المكتبة المالكية

أزهار الرياض في أخبار عياض

تأليف

شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني

(ت: ١٠٤١هـ)

طبعة مزيدة ومنقحة

تحقيق

الدكتور علي عمر

الجزء الخامس

الناشر
مكتبة الثقافة الدينية

مكتبة الثقافة الدينية

٥٢٦ شارع بورسعيد / القاهرة

ت . ٢٥٩٢٢٦٢٠ ـ ٢٥٩٣٨٤١١ فاكس : ٢٥٩٣٦٢٧٧

ص.ب ٢١ توزيع الظاهر ـ القاهرة

E-mail : alsakaalDinaya@hotmail.com

مكتبة الثقافة الدينية

٥٢٦ شارع بورسعيد / القاهرة

ت . ٢٥٩٢٢٦٢٠ ــ ٢٥٩٣٨٤١١ فاكس : ٢٥٩٣٦٢٧٧

ص.ب ٢١ توزيع الظاهر ـ القاهرة

E-mail : alsakaalDinaya@hotmail.com

أزهار الرياض فى أخبار عياض

وما يناسبها مما يحصل به ارتياح وارتياض

تأليف

الشيخ أحمد بن محمد المقرى التلمسانى

(٩٨٦ - ١٠٤١ هـ)

طبعة مزيدة ومنقحة .

تحقيق

الدكتور على عمر

بقسم التاريخ والحضارة الإسلامية

بجامعة المنيا والإمام بالرياض

ومن الباحثين بمركز تحقيق التراث (سابقا)

الجزء الخامس

الناشر

مكتبة الثقافة الدينية

الطبعة الاولى
1431هـ-2010

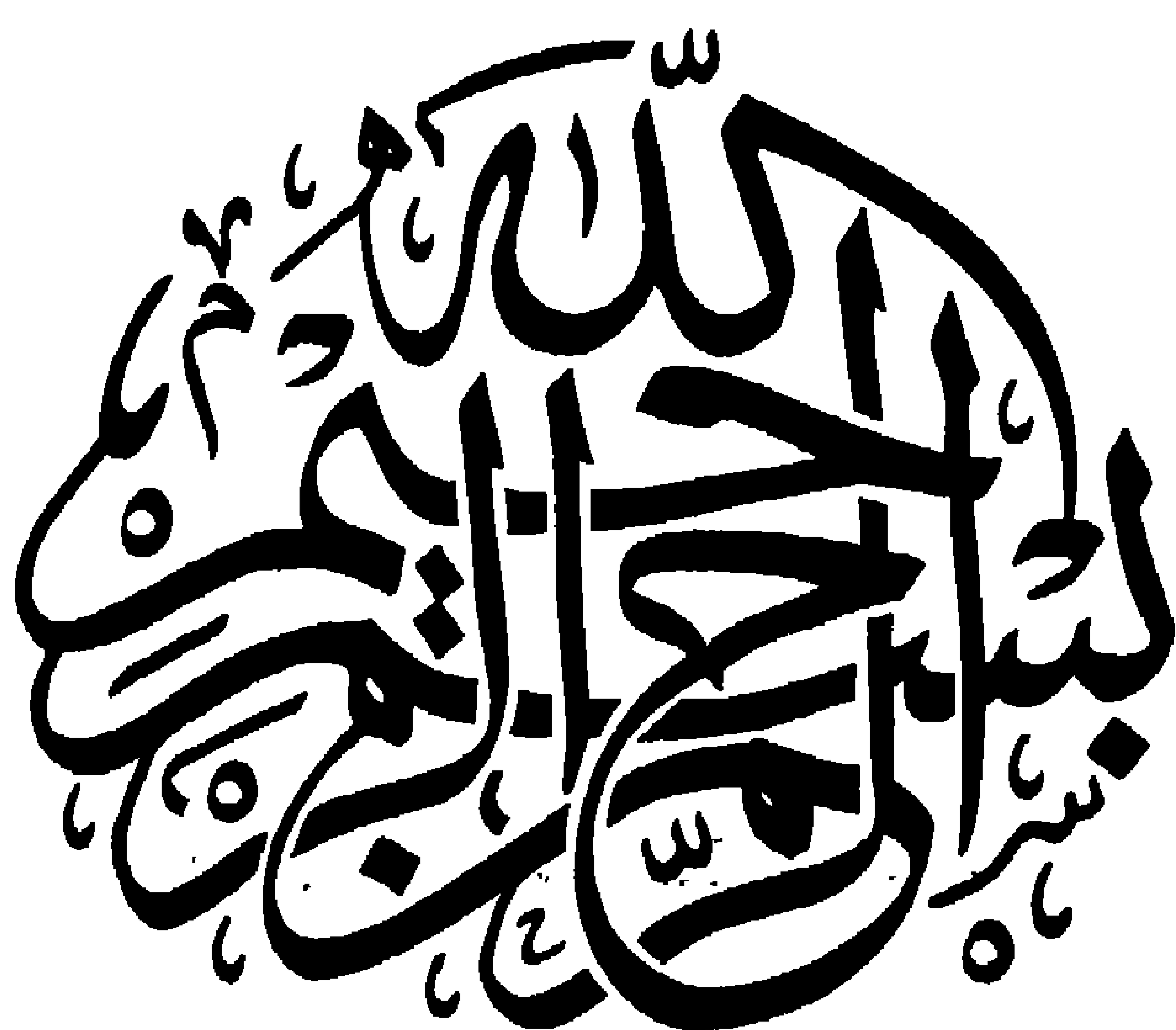
الناشر
مكتبة الثقافة الدينية
526 شارع بورسعيد – القاهرة
25922620-25938411 / فاكس: 25936277
E-mail: alsakafa_aldinay@hotmail.com

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

المقرى،احمد بن محمد احمد بن يحيى ، 1584-1631
ازهار الرياض فى اخبار عياض
تاليف : شهاب الدين احمد بن محمد المقرى التلمسانى ، تحقيق: على عمر
ط1 القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية ،2010
5مج ، سم
تدمك : 978-977-341-499-3
1- المحدثون المغاربة
2-القاضى عياض ، عياض بن موسى بن عياض
ا- عمر،على (محقق)
ب- العنوان

ديوى:922.13

رقم الايداع: 16755



ومما لم يكمله من مـؤلفاته. كتـاب «الفنون الستة، فى أخـبار سبـتة». وكتاب «غنية الكاتب، وبغية الطالب» - فى الصدور والترسيل.

هكذا قـال ابن الخطيب وقال ابن خـاتمة فى «مـزية المرية» وكتـاب فيـه سؤالات وترسيل له - فى نحو أربعة أسفار. وانظر هذا الذى قال ابن خاتمة، هل هو «غنية الطالب» المذكـور أو غيره؟ وكتاب تاريخ المرابطين - انتـهى فيه إلى سنة أربعين وخمسمائة، قال ذلك ابن خاتمة فى «المزية».

وقال ابن حـمادة البرنسى: إنه ألف كـتاب جامع التـاريخ. فأربى على جمـيع المؤلفات: فـيه أخـبار الملوك بالأندلـس والمغرب منذ دخـول الإسلام إليهما. واستوعب فـيه أخبار سبتة، وقضاتها وفقهـائها، وجميع ما جرى من الأمور فيها. واستوعب أخبار الدولة الحسنية.

قال جـامع هذا التأليف: انظر هذا، هل هو المذكـور عند ابن خاتمة أو غيره. وكتاب «الأجوبة المحبرة، على المسائل المتخيرة».

قال ابنه: وجدت منها يسيرا فضـممته إلى ما وجدته فى بطائقه. وعند أصحـابه من معـان شاذة فى أنواع شـتى. سئل عنهـا - رحمة الله عـليه - فأجاب: جمـعت ذلك فى جزء. وكتاب أجوبة القرطبـيين. قال ابنه: رأيت هذه الترجـمة بخطه. ولم أجـد لها عنده مبـيضة. غـير أنى وجـدتها بطائق فجمعتها مع أجوبـة غيرهم وأجوبته مما نزل فى أيام قضائه من نوازل الأحكام فى سفرين. وكتاب «سر السراة فى آداب القضاة».

قال ابن خاتمة فى «المزية» للقاضى عيـاض - رحمه الله - تآليف مفيدة كتبها الناس عنه وانتفعوا بها. وكثر استعمال كل طائفة لها - انتهى.

وقال الإمام الرحال أبو عبد الله بن جابر الوادى آشى - رحمه الله حدثنى شيخنا الفقيه الكاتب البليغ المجاور بحرم رسول الله - ﷺ. المدفون فى بقيعه أبو القاسم خلف ابن الشيخ المرحوم أبى الإصبغ عبد العزيز بن محمد الغافقى القبتورى. أنه تذاكر مع بعض أصحابه ببجاية أبا الفضل هذا وتواليفه، فأنشد فيه ارتجالا بها. وذلك فى أواسط ربيع الأول المبارك من عام خمسة وتسعين وستمائة. وسمعتها منها بتونس بمنزله عند جوازه مشرقا علينا فى أوائل رجب من العام المذكور.

عياض إمام لا يضاهى جلاله فما عوض من كتبه الدهر بالملفى
مشارقه إكماله شهدا له بسبق أرى السباق فيه له خلفا
وحسبك ريا بالشفاء لذى صدى لمودعه من وصف خير الورى أشفى
وأعجب تنبيهاته اللاء أوسعت غوامض أعيت رائمى فهمها كشفا
وما مدرك شأو له فى مدارك فإحسانه إحسان ما قبلها قفى
وكم ذا له من مثلهن مصنفا تقرط أذن الدهر من ذهب شنفا
وليس يوفى الدهر حصر محاسن بها فخر عصر كان منجبه وفى
وما غير إحفاء لسن يراعه يفيد الذى فى البحث عن فضله أحفى

ولما شرعت فى هذا المجموع الموسوم بـ «أزهار الرياض، فى أخبار عياض» وذكرت يوما هذه التسمية لصاحبنا الفقيه النبيه الأديب، سيدى على ابن أحمد الشامى - حفظه الله، واستنهضت فكره السليم لنظم يصلح إثباته هنا فى وصف القاضى عياض وكتبه وغير ذلك. فكتب لى من الغد ما نصه:

يمـــينا مـــا الأزاهر فـي رياض ولا الغـــزلان فى ورد الحـيـــاض
ولا الخـيـلان فى الـوجنات تبـدو لصب لامــــعــات فى بـيــاض
ولا الغــــدران فى الفلـوات تندى لصـــاد نابعـات فـى افـتـيـاض
بأبـدع من تآلـف منتــــمـــــاة إلى قـــاضى أئـمـــتنا عــيـــاض

وحذف الياء من تآليف. وقد تقـدم مثله فى نظم الإمام أبى القاسم بن رضوان.

وأنشدنى المذكور حفظه الله تعالى أيضا:

عيـاض سمت فخـرا تآليفك التى حوت ما حوت من حسن ريح لمبتاع
من لم تكـن منهـا لديه ذخــيـرة فـلا نال من دنيـاه نفـعـا بإمـتـاع

فائدة: فى تعليق البسـيلى على التفسيـر مما التقطه من كلام شـيخه ابن عرفـة - أن تقى الدين بن تيـمية قـال - لما رأى شفــاء القاضى أبى الـفضل عياض - غــلا هذا المغيربى! قال: وإلى الرد عــليه أشار شيخنـا ابن عرفة - رحمه الله - تعالى بقوله:

شـفـاء عيـاض فى كـمـال نبـينا كواصف ضوء الشمـس ناظر قرصها
فـلا غرو فى تبليـغـه كنه وصفـه وفى عجزه عن وصفه كنه شخصها
وإن شـئت شـبـهـه بذكـر أمـارة بأصل لبـرهان مـبـين لنقـصـهـا
وهذا لقـول قـيل عن زائغ: غـلا عيـاض فتبت ذاته عن مـحيصـها

ونسب البسيلى المذكـور لابن تيمية القول بالجهة، وكـتب بعضهم على طرة البسيلى ما نصه: رأيت أسئلته - أى ابن تيمية - فى أسفار فلا تسأل عن

اطلاعه وحسن تصرفه، والتجسيم نسبه له أبو حيان فى آية الكرسى. وأبو حيان مدحه بقصيدة، ثم عاداه، فوجب التوقف فى نقله لأجلها، ولم يزل حاله فى ظهور حتى ناظر السبكيين، ومناظرته معهم حجة باهرة فى فضله، وقد أثنى على عياض فلا يصح عنه ذمه، أو أراد أن القتل لا يقول به من الأربعة غير مالك، ولهذا رد حكم هذا الباب إليه فى البلاد المشرقية - انتهى ما فى الطرة.

قلت: أما علمه، فأمر لا ينكر ولا يجحد، وقد رأيت مؤلفا فى التعريف به، ومحاشاته عما نسب إليه من التجسيم وغيره من المقالات الشنعية، وذكر فيه قصيدة أبى حيان التى مدحه بها وثناء الأكابر عليه. وغير ذلك من أموره. وكتب بالموافقة على ذلك، الحافظ ابن حجر والعينى والبساطى وغيرهم، وقال بعض هؤلاء: إن مسألة الزيارة التى رد عليه فيها السبكى. لا توجب فى حقه بدعة، وغاية ما هنالك أنه أخطأ فيها، والتسليم فى أمره أسلم، وهؤلاء نزهوه عن القول بالجهة، وهم أعرف بحاله من غيرهم - وإن صرح بخلاف ذلك غير واحد من المغاربة. منهم الحاج الرحال ابن بطوطة. فإنه قال فى رحلته، شاهدته نزل درجة وقال: إن الله ينزل كما أنزل انتهى - عياذا بالله من هذه المقالة! وقد صرح بذلك أيضا بعض سلفنا، وهو الإمام القاضى أبو عبد الله محمد بن أحمد المَقَّرِى التلمسانى - رحمه الله - فى أول رحلته المسماة بـ «نظم اللآلى، فى سلوك الأمالى» - عندما تعرض لشيخيه ابنى الإمام التلمسانين، وهأنا أثبت كلامه بطوله لم اشتمل عليه من ذكر أمر ابن تيمية وغير ذلك من الفوائد البديعة. وقد بدأ بهذين الشيخين فى رحلته المذكورة بعد أن قدم ذكر نسب نفسه وأوليته - حسبما

نقل ذلك بقريب - إن شاء الله سبحانه وتعالى، لأنا ستتعرض للتعريف به إذ قد عرفنا بغيره من الأعلام، فتعين أن نذكره، لأن الإنسان مجبول على خبر أسلافه، ومن له به تعلق، ونص كلامه:

فممن أخذت عنه واستفدت منه، علماها - يعنى تلمسان - الشامخان، وعالماها الراسخان، أبو زيد عبد الرحمن، وأبو موسى عيسى، ابنا محمد بن عبد الله ابن الإمام، وكانا قد رحلا فى شبابهما من بلدهما برشك إلى تونس، فأخذا بها عن ابن جماعة وابن العطار، واليفرنى، تلك الحلبة، وأدركا المرجانى وطبقته من أعجاز المائة السابعة، ثم وردا فى أول المائة الثامنة تلمسان على أمير المؤمنين أبى يعقوب وهو محاصر لها. وفقيه حضرته يومئذ، أبو الحسن على بن يخلف التنسى، وكان قد خرج إليه برسالة من صاحب تلمسان المحصورة فلم يعد، وارتفع شأنه عند أبى يعقوب حتى إنه شهد جنازته، ولم يشهد جنازة أحد ممن قبله، وقام على قبره وقال: نعم الصاحب فقدنا اليوم[1].

حدثنى الحاج الشيخ بعباد تلمسان، أبو عبد الله محمد بن محمد بن مرزوق العجيسى أن أبا يعقوب طلع إلى جنازة التنسى فى الخيل حوالى روضة الشيخ أبى مدين فقال لى، كيف تتركون الخيل تصل إلى ضريح الشيخ؟ هلا عرضتم هنالك - وأشار إلى حيث المعراض الآن خشبة؟ ففعلنا. فلما قتل أبو يعقوب. وخرج المحصوران. أنكرا ذلك فأخبرتهما، فأما أبو زيان - وكان السلطان يومئذ - فنزل وطأطأ رأسه ودخل[2].

---

(١) نفح الطيب ٥/ ٢١٥.

(٢) نفح الطيب ٥/ ٢١٥.

وأما أبو حمو - وكان أميرا - فوثب وخلفها. ولما رجع الملك إلى هذين الرجلين. اختصا ابنى الإمام، وكان أبو حكو أشد اعتناء بهما. ثم بعده ابنه أبو تاشفين، ثم زادت حظوتهما عند أمير المسلمين أبى الحسن - إلى أن توفى أبو زيد فى العشر الأوسط من شهر رمضان الذى من عام أحد وأربعين وسبعمائة بعد وقعة طريف بأشهر. فزادت مرتبة أبى موسى عنده إلى أن كان من أمر السلطان بإفريقية ما كان فى أول عام تسعة وأربعين، وكان أبو موسى قد صدر عنه قبل الوقعة، فتوجه صحبة ابنه أمير المؤمنين أبى عنان إلى فاس. ثم رده إلى تلمسان - وقد استولى عليها عثمان بن عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراس بن زيان، فكان عنده إلى أن مات الفقيه عقب الطاعون العام(١).

قال لى خطيب الحضرة الفاسية، أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الله بن مالك بن عباد الرندى - لما أزمع الفقيه ومن أطلق معه على القفول إلى تلمسان بت على تشييعهم، فرأيت كأنى نظمت هذا البيت فى المنام:

وعند وداع القوم ودعت سلوتى وقلت لها بينى فأنت المودع(٢)

فانتبهت وهو في فِيَّ، فحاولت قريحتى بالزيادة عليه فلم يتيسر لى مثله. ولما استحكم ملك أبى تاشفين واستوثق، رحل الفقيهان إلى المشرق فى حدود العشرين وسبعمائة، فلقيا علاء الدين القونوى وكان بحيث إنى لما رحلت، فلقيت أبا على حسين بن حسين ببجاية، قال لى، إن قدرت أن لا يفوتك شىء من كلام علاء الدين القونوى حتى تكتب جميعه فافعل، فإنه لا نظير له.

---

(١) نفح الطيب ٥/٢١٦.

(٢) نفح الطيب ٥/٢١٦.

ولقيا أيضا جلال الدين القزويني صاحب البيان وسمعا صحيح البخارى على الحجار - وقد سمعته أنا عليهما، وناظرا تقى الدين بن تيمية وظهرا عليه، وكان ذلك من أسباب محنته.

وكانت له مقالات شنيعة من إمرار حديث النزول على ظاهره. وقوله فيه: كنزولى هذا. وقوله فيمن سافر إلى المدينة لا ينوى إلا زيارة القبر الكريم، لا يقصر حتى ينوى المسجد لحديث لا تشد الرحال، وكان شديد الإنكار على الإمام فخر الدين.

حدثنى شيخى العلامة أبو عبد الله الآبلى. أن عبد الله بن إبراهيم الزمورى أخبره أنه سمع ابن تيمية ينشد لنفسه.

محَصَّلٌ فى أصول الدين حاصله ... من بعد تحصيله علم بلا دين
أصل الضلالة والإفك المبين فما ... فيه فأكثره وحى الشياطين[1]

قال: وكان فى يده قضيب فقال: والله لو رأيته لضربته بهذا القضيب هكذا، ثم رفعه ووضعه[2].

وبحسبك ما ظهر لهذين الرجلين من الصيت بالمشرق، أنى لما حللت ببيت المقدس وعرف به مكانى من الطلب. وذلك أنى قصدت قاضيه شمس الدين بن سالم ليضع لى يده على رسم استوجب به هنالك حقا. فلما أَطْلَلْتُ عليه عرفه بى بعض من معه، فقام إلى حتى جلست، ثم سألنى بعض الطلبة بحضرته، فقال لى: إنكم - معشر المالكية - تبيحون للشامى يمر بالمدينة أن يتعدى ميقاتها إلى الجحفة، وقد قال رسول الله - ﷺ - بعد

(١) نفح الطيب ج٥ ص ٢١٦.
(٢) نفح الطيب ٥/٢١٦.

أن عين المواقيت لأهل الآفاق: هن لهن ولمن مَرّ عليهن من غير أهلهن، وهذا قد مَرّ على أهل ذى الحليفة، وليس من أهله فيكون له، فقلت له: إن النبى ﷺ قال: من غير أهلهن، أى من غير أهل المواقيت، وهذا سلب كلى، وأنه غير صادق على هذا الفرد ضرورة صدق نقيضه - وهو ألا يجاب الجزئى عليه، لأنه من بعض أهل المواقيت قطعا، فلما لم يتناوله النص، رجعنا إلى القياس، ولاشك أنه لا يلزم أحدا أن يحرم قبل ميقاته وهو يمر به، لكن من ليس من أهل الجحفة لا يمر بميقاته إذا مر بالمدينة. فوجب عليه الإحرام من ميقاتها، بخلاف أهل الجحفة. فإنها بين أيديهم وهم يمرون عليها، فوقعت من نفوس أهل البلد بسبب ذلك، فلما عرفت أتانى آت من أهل المغرب فقال لى: تعلم أن مكانك فى نفوس أهل [هذا] البلد مكين[1]، وقدرك عندهم رفيع، وأنا أعلم انقباضك عن ابنى الإمام. فإن سئلت فانتسب إليهما، فقد سمعت منهما وأخذت عنهما، ولا تظهر العدول عنهما إلى غيرهما، فتضع من قدرك، فإنما أنت عند هؤلاء الناس خليفتهما ووراث علمهما وأن لا أحد فوقهما[2].

وليس لما تبنى يد الله هادم

وشهدت مجلسا بين يدى السلطان أبى تاشفين، عبد الرحمن بن أبى حمو، ذكر فيه أبو زيد بن الإمام - أن ابن القاسم مقلد مقيد النظر بأصول مالك، ونازعه أبو موسى عمران بن موسى المشدالى، وادعى أنه مطلق الاجتهاد، واحتج له بمخالفته لبعض ما يرويه ويبلغه عنه لما ليس من قوله، وأتى من ذلك بنظائر كثيرة، قال: فلو تقيد بمذهبه لم يخالفه لغيره، فاستظهر أبو زيد بنص لشرف الدين التلمسانى مثل فيه الاجتهاد المخصوص، باجتهاد ابن القاسم بالنظر إلى مذهب مالك والمزنى إلى الشافعى، فقال عمران، هذا

(١) هذا المثبت من نفح الطيب، ومكُنَ فلان عند الناس عَظم عندهم، فهو مكين. والذى فى المطبوع: «ميكن».

(٢) نفح الطيب ج٥ ص ٧٥١ - ٥١٨، وما بين حاصرتين منه.

مثال، والمثال لا تلزم صحته، فصاح به أبو موسى بن الإمام وقال لأبى عبد الله بن أبى عمرو: تكلم. فقال لا أعرف ما قال هذا الفقيه، والذى أذكره من كلام أهل العلم أنه لا يلزم من فساد المثال فساد الممثل، فقال أبو موسى للسلطان، هذا كلام أصولى محقق، فقلت لهما - وأنا يومئذ حديث السن، ما أنصفتما الرجل، فإن المثل كما تؤخذ على جهة التحقيق، كذلك تؤخذ على طريق التقريب، ومن ثم جاء ما قاله الشيخ - أعنى ابن أبى عمرو، وكيف لا وهذا سيبويه يقول: وهذا مثال ولا يتكلم به. فإذا صح أن المثال قد يكون تقريبا، فلا يلزم صحة المثال، ولا فساد الممثل لفساده، فهذان القولان من أصل واحد(١).

وشهدت مجلسا آخر عند هذا السلطان. قرئ فيه على أبى زيد بن الإمام حديث لقنوا موتاكم لا إله إلا الله فى صحيح مسلم، فقال له الأستاذ أبو إسحاق ابن حكم السلوى، هذا الملقن محتضر حقيقة، ميت مجازا، فما وجه ترك محتضريكم إلى موتاكم - والأصل الحقيقة؟ فأجابه أبو زيد بجواب لم يقنعه(٢).

وكنت قد قرأت على الأستاذ بعض التنقيح فقلت: زعم القرافى أن المشتق إنما يكون حقيقة فى الحال، مجازا فى الاستقبال، مختلفا فيه فى الماضى إذا كان محكوما به. أما إذا كان متعلق الحكم كما هنا، فهو حقيقة مطلقا إجماعا، وعلى هذا التقرير لا مجاز فلا سؤال(٣).

---

(١) نفح الطيب ج٥ ص ٢١٧ - ٢١٨.

(٢) نفح الطيب ٥/٢١٩.

(٣) نفح الطيب ٥/٢١٩.

لا يقال إنه احتج على ذلك بما فيه نظر، لأنا نقول: إنه نقل الإجماع - وهو أحد الأربعة التى لا يطالب مدعيهـا بالدليل كما ذكر أيضا، بل نقول إنه أساء حيث احتج فى موضع الوفاق، كمـا أساء اللخمى وغيره فى الاحتجاج على وجـوب الطهارة ونحـوها، بل هذا أشنع لكونه مما علم كـونه من الدين بالضرورة، ثم إنا لو سلمنا نفى الإجمـاع، فلنا أن نقول، إن ذلك إشارة إلى ظهور العلامات التى يعقبها الموت عادة لأن تلقينه قبل ذلك - إن لم يدهش، فـقد يوحش، فـهو تنبـيه على وقت التلـقين - أى، لقنوا من تحكمـون بأنه ميت، أو نقول: إنما عدل عن الاحتضار لما فيه من الإبهام، ألا ترى اختلافهم فيه، هل أخذ من حضور الملائكة أو حضور الأجل، أو حضور الجلاس، ولا شك أن هذه حالة خفية، يحتاج فى نصبها دليلا على الحكم إلى وصف ظاهر يضبـطها - وهو ما ذكـرناه، أو من حضـور الموت، وهو أيضا ممـا لا يعرف بنفسه بل بالعلامـات، فلما وجب اعتبارها. وجب كون تلك التسـمية إشارة إليها - والله تعالى أعلم[1].

كان أبو زيد يقول فيمـا جاء من الأحاديث من معنى قول ابن أبى زيد: وإذا سلم الإمام فلا يثبت بعد سلامه ولينصرف - إن ذلك بعد أن ينتظر بقدر ما يسلم من خلفـه، لئلا يمر بين يدى أحد، وقد ارتفع عنـه حكمه، فيكون كالداخل مع المسبوق جمعا بين الأدلة. قلت: وهذا من ملح الفقه[2].

اعتـرض عند أبى زيد قول ابن الحاجـب «ولبن الآدمى والمباح طاهر» - بأنه إنما يقال فى الآدمى لبان، فأجاب بالمنع، واحتج بقول النبى - ﷺ «اللبن

(١) نفح الطيب ٢١٩/٥.

(٢) نفح الطيب ٢١٩/٥.

للفحل». وأجيب بأن قوله ذلك لتشريكه[1] المباح معه فى الحكم، لأن اللبان خاص به، وليس موضع تغليب، لأن اللبان ليس بعاقل، ولا حجة على تغليب ما يختص بالعاقل[2].

تكلم أبو زيد يوما فى مجلس تدريسه فى الجلوس على الحرير، فاحتج إبراهيم السلوى للمنع بقول أنس: فقمت إلى حصير لنا قد اسود من طول ما لبس»، فمنع أبو زيد أن يكون إنما أراد باللباس الافتراش فحسب، لاحتمال أن يكون إنما أراد التغطية معه أو وحدها، وذكر حديثا فيه تغطية الحصير. فقلت: كلا الأمرين يسمى لباسا، قال الله عز وجل: ﴿... هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ ... ﴿١٨٧﴾﴾ [البقرة] وفيه بحث[3]، كان أبو زيد يصحف قول الخونجى فى الجمل، والمقارنات التى يمكن اجتماعه معها. فيقول: والمفارقات. ولعله فى هذا كما قال أبو عمرو بن العلاء للأصمعى لما قرأ عليه:

وغررتنى وزعمت أنك لا بنٌ بالصيف تامرْ

فقال:

وغررتنى وزعمت أنك لا تنى بالضيف تامر[4]

فقال: أنت فى تصحيفك أشعر من الحُطيئة[5]، أو كما حكى عن الشافعى أنه لما صلى بالخليفة فى رمضان، لم يكن يومئذ يحفظ القرآن. فكان ينظر فى المصحف، فصحف آيات، صنعة الله - أصيب به من أساء - إنما

(١) هذا الصواب من نفح الطيب، والذى فى المطبوع: «لتشركيه».
(٢) نفح الطيب ٥/ ٢٢٠.
(٣) نفح الطيب ٥/ ٢٢٠.
(٤) نفح الطيب ٥/ ٢٢٠.
(٥) هذا الصواب من نفح الطيب، والذى فى المطبوع: «الحطئة».

المشركون نحس - وعدها أباه - تقية الله خير لكم - هذا أن دعوا للرحمن ولدا - لكل امرئ منهم يومئذ شأن يعنيه[١].

سمعت أبا زيد يقول: إن أبا العباس الغمارى التونسى، أول من أدخل «معالم» الإمام فخر الدين للمغرب، وبسبب ما قفل به من الفوائد، رحل أبو القاسم ابن زيتون[٢].

وسمعته يقول: إن ابن الحاجب ألف كتابه الفقهى من ستين ديوانا، وحفظت من وجادة أنه ذكر عند أبى عبد الله بن قطرال المراكشى. أن ابن الحاجب اختصر الجواهر. فقال: ذكر هذا لأبى عمرو حين فرغ منه، فقال: بل ابن شاس اختصر كتابى. قال ابن قطرال: وهو أعلم بصناعة التأليف من ابن شاس، والإنصاف أنه لا يخرج عنه وعن ابن بشير إلا فى الشىء اليسير، فهما أصلاه ومعتمداه، ولا شك أن له زيادات وتصرفات تنبئ عن رسوخ قدمه وبعد مداه[٣].

وكان أبو زيد من العلماء الذين يخشون الله. حدثنى أمير المؤمنين المتوكل أبو عنان أن والده أمير المسلمين أبا الحسن، ندب الناس إلى الإعانة بأموالهم على الجهاد، فقال له أبو زيد، لا يصح لك هذا حتى تكنس بيت المال وتصلى فيه ركعتين كما فعل على بن أبى طالب[٤].

وسأله أبو الفضل بن أبى مدين الكاتب ذات يوم عن حاله - وهو قاعد ينتظر خروج السلطان. فقال له: أما الآن فأنا مشرك، فقال: أعيذك من

(١) نفح الطيب ٥/ ٢٢١.
(٢) نفح الطيب ٥/ ٢٢١.
(٣) نفح الطيب ٥/ ٢٢١.
(٤) نفح الطيب ج٥ ص ٢٢١.

ذلك، فقال: لم أرد الشرك فى التوحيد، لكن فى التعظيم والمراقبة، وإلا فأى شيء جلوسى ها هنا[1].

والشيء يذكر بالشيء، قمت ذات يوم على باب السلطان بمراكش فيمن ينتظر خروجه، فقام إلى جانبى شيخ من الطلبة، وأنشدنى لأبى بكر بن خطاب:

أبصرت أبواب الملوك تغص بالر ... اجين إدراك العُلا والجاه
مترقبين لها فمهما فتحت ... خروا لأذقان لهم وجباه
فأنفت من ذاك الزحام وأشفقت ... نفسى على إنضاء جسمى الواهى
ورأيت باب الله ليس عليه مر ... متزاحم فقصدت باب الله
وجعلت من دونهم لى عدة ... فأنفت من غيى وطول سفاهى[2]

قال جامع هذا، أحمد بن محمد المقرى - وفقه الله - رأيت على قوله ورأيت باب الله - البيت بخط الإمام عالم الدنيا، أبى عبد الله بن مرزوق شارح خليل وصاحب التآليف البديعة، بطرة رحلة القاضى أبى عبد الله المقرى، مشيرا إلى البيت المذكور ما نصه.

قلت ذلك لسعته أو لقلة أهله

إن الكرام كثير فى البلاد وإن ... قلوا كما غيرهم قل وإن كثروا

قل: ﴿ ... لاَّ يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ ... ١٠٠ ﴾ [المائدة] - انتهى[3].

(١) نفح الطيب ٥/ ٢٢١.
(٢) نفح الطيب ٥/ ٢٢١.
(٣) نفح الطيب ٥/ ٢٢٢.

رجع: وحدثني شيخ من أهل تلمسـان، أنه كان عند أبى زيد مرة فذكر القيامة وأهوالهـا، فبكى، فقلت، لا بأس عليك وأنتم أمامنا، فصـاح صيحة واسود وجهه، وكاد يتفجر دما، فلما سرى عنه، رفع يديه وطرفه إلى السماء وقال: اللهم لا تفضحنا مع هذا الرجل، وأخباره كثيرة[١].

وأما شقـيقه أبو موسى، فـسمعت عليه كـتاب مسلم، واستـفدت منه كثـيرا، فـممـا سألته عنـه قول ابن الحاجب فـى الاستلحاق، وإذا اسـتلحق مجهول النسب إلى قـوله أو الشرع بشهرة[٢] نسبه - كـيف يصح هذا القسم مع فرضـه مجهول النسب؟ فـقال: يمكن أن يكون مجهـول النسب فى حال الاستلحاق، ثم يشـتهر بعد ذلك فـيبطل الاستلحاق، فكأنه يقـول: ألحقه[٣] ابتداء ودواما ما لم يكذبه أحد. هذه فـى أحد الحالين، إلا أن هذا إنما يتصور فى الدوام فقط[٤].

ومما سألته عنه أن الموثقين يكتبون الصحة والجواز والطوع على ما يوهم القطع، وكثيرا ما ينكشف الأمر بخلافه، ولو كتبوا مثلا ظاهر الصحة والجواز والطوع، لبرئوا من ذلك، فقال لى، لما كان مبنى الشهادة وأصلها العلم - لم يجمل ذكـر الظن ولا ما فى معناه احتـمال، فإذا أمكن العلم بمضمـونها، لم يجز أن يحمل على غـيره، فإذ تعذر كما ها هـنا، بنى باطن أمرها على غاية ما يسـعه فيه الإمكان عـادة، وأجرى ظاهره على ما لا ينافى أصلها، صـيانة لرونقها ورعاية لما كان ينبـغى أن تكون عليه لولا الضرورة. قلت ولذلك عقد

---

(١) نفح الطيب ٥/٢٢٢.

(٢) فى الأصل: «فشهرة» والمثبت من نفح الطيب.

(٣) فى الأصل: «لحقه» والمثبت رواية المصنف فى النفح.

(٤) نفح الطيب ٥/٢٢٢.

ابن فتوح وغيره عقـود الجوائح على ما يوهم العلم بالتقدير، مع أن ذلك إنما يدرك بما غايته الظن فى الحرز والتخمين، وكانا معا يذهبان إلى الاختيار وترك التقليد - انتهى[1] كلام القاضى المقرى فى حق ابنى الإمام

وإذا قد بلغنا إلى هذا الموضع، فلنذكر التعريف بهذا الإمام الذى هو من أشهر أسلافنا فنقول:

قال - رحمه الله - أول كتابه المسمى بـ «نظم اللآلي فى سلوك الأمالي» يقول محـمد المقرى - سمح الله تعالى له ولطف به - كان مـولدى بتلمسان أيام أبى حمو[2] موسى بن عثمان بن يغمراس بن زيان، وقـد وقفت على تاريخ ذلك، ولكنى رأيت الـصفح عنه، لأن أبـا الحسن ابن مـؤمن سـأل أبا الطاهر السلفى عن سنه فـقال: أقبل على شـأنك، فإنى سألـت أبا الفتح بن زيان عن سنه فقال لى: أقبل على شأنك، فـإنى سألت على بن محمد اللبان عن سنه فـقال لى: أقـبل على شأنك، فـإنى سألت أبا القـاسم، حمـزة بن يوسف السهمى عن سنه فقال: أقبل على شـأنك، فإنى سألت أبا بكر محمد ابن عدى المنقرى عن سنه، فقال: أقبل على شأنك، فإنى سألت أبا اسماعيل الترمـذى عن سنه، فـقال: أقبل علـى شأنك، فإنـى سألت بعض أصـحاب الشافـعى عن سنه، فقال: أقبل على شـأنك، فإنى سألت الشـافعى عن سنه فقال: أقبل على شانك، فإنى سألت مالك بن أنس عن سنه فقال: أقبل على شأنك، ليس من المروءة للرجل أن يخبر بسنه[3].

(١) نفح الطيب ٥/ ٢٢٣.

(٢) فى الأصل: «حم» والمثبت لدى المصنف فى نفح الطيب ٥/ ٢٠٦.

(٣) نفح الطيب ٥/ ٢٠٦.

وكان الذى اتخذها من سلفنا قرارا، بعد أن كـانت لمن قبله مزارا، عبد الرحمن بن أبى بكر بن على المقرى، صاحب الشيخ أبى مدين، الذى دعا له ولذريته بما ظهر فيـهم قبوله وتبين، وهو أبى الخامس، فأنا محمـد بن محمد ابن أحمد بن أبى بكر بن يحيى بن عبد الرحمن، وكان هذا الشيخ عروى[1] الصلاة، حتى إنه ربما امـتحن بشىء فلم يؤنس منه التفات، ولا اسشـتعر منه شعور، ويقال إن هذا الحضور مما أدركه من مقامات شيخه أبى مدين[2].

ثم قال القاضى أبو عبد الله المقرى بعـد كلام فى ذكر طبقات أسلافنا ما نصه: ولما درج هؤلاء الأشـياخ، جـعل أبناؤهم ينفقون مما تـركوا لهم، ولم يقومـوا بأمر التثمـير قيامـهم، وصادفوا توالى الفتن، ولـم يسلمـوا من جور السلاطين، فلـم يزل حالهم فى نقصـان إلى هذا الزمان فـهأنذا لم أدرك من ذلك إلا أثر نعمـة، اتخذنا فضوله عـيشا، وأصوله حرمـة، ومن جملة ذلك خزانة كبيرة من الكتب، وأسباب كثـيرة تعين على الطلب، فتفرغت - بحول الله عز وجل للقراءة، فاستوعبت أهل البلد لقاء، وأخذت عن بعضهم عرضا وإلقاء، سواء المقيم القاطن، والوراد الظاعن[3].

فممن أخذت عند واستفدت منه علماها الشامخان، وعالماها الراسخان، أبو زيد عبد الرحمن، أبو موسى عيـسى، ابنا محمد بن عبد الله بن الإمام، ثم ذكر جـميع مـا قدمناه قـريبا ثم قـال: وممن أخذت عنه أيـضا، حافظـها ومدرسها ومـفتيها، أبو موسى عمران بن مـوسى بن يوسف المشدالى. صهر شيخ المدرسين[4] أبى على ناصر الدين على ابنتـه، وكان قد فر مـن حصار

(١) نسبة إلى عروة، لعله عروة بن الزبير، فقـد كان يطيل الصلاة ويكثر من الدعاء حتى كان يقول: إنى لأسأل الله فى صلاتى كل شىء حتى الملح.

(٢) نفح الطيب ٥/ ٢٠٣.

(٣) نفح الطيب ج٥ ص ٢٠٦.

(٤) فى الأصل: «المتأخرين» والمثبت رواية المصنف فى نفح الطيب ٥/ ٢٢٣.

بجاية فنزل الجـزائر، فبعث فـيه أبو تاشفـين، وأنزله من التقريب والإحـسان بالمحل المكين، فـدرس بتلمسـان الحديث والفـقه والأصلين والنحـو والمنطق والجدل[1] والفرائض. وكان كثير الاتساع فى الفـقه والجدل، مديد الباع فيما سواهما مما ذكر[2].

سألتـه عن قول ابن الحاجب فى السـهو: «فإن أخال الإعـراض، فبطل عمـده» فقال: مـعناه: فإن أخال غـيره أنه معـرض، فحذف المفـعول الأول لجوازه، وأقام المصدر مقام المفعولين كما يقوم مقامه ما فى معناه من أنَّ وأنْ. قال الله العظيم: ﴿الٓمٓ ① أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا ... ②﴾ [العنكبوت][3].

قلت: وأقـوى من هذا، أن يكون المصدر هو المفـعول الثـانى، وحذف الثالث اختصارا لدلالة المعنى عليه. أى فإن أخال الإعراض كائنا، كما قالوا، خلت ذلك وقد أعربت الآية بالوجهين، وهذا - عندى أقرب[4].

ومن هذا الباب ما يكتب به القضاة من قـولهم: أعلم ياستقلاله فلان، أى أعلم فلان من يقف عليه بأن الرسم مستقـل، فحذفوا الأول، وصاغوا ما بعده المصدر[5].

سئل عمران - وأنا عنده - عما صـبغ من الثياب بالدم، فكانت حمرته منه، فقـال: يغسل فـإن لم يخرج شىء من ذلك فى الماء. فـهو طاهر، لأن

(١) هذا الصواب فى نفخ الطيب، والذى فى المطبوع: «الجدول».
(٢) نفح الطيب ٥/ ٢٢٣.
(٣) نفح الطيب ج٥ ص ٢٢٣ - ٢٢٤.
(٤) نفح الطيب ٥/ ٢٢٤.
(٥) نفح الطيب ٥/ ٢٢٤.

المتعلق به على هذا التقـدير ليس إلا لون النجاسة، وإذا عسر قلعـه بالماء فهو عفو. وإلا لوجب غسله إلى أن لا يخرج منه شيء(١).

قلت: في البخاري: قال معمـر: رأيت الزهرى يصلى فيما صبغ بالبول من ثياب اليـمن - يعنى - والله تعالى أعلم - بالإرشـالة، وتفسيـره على ما ذكره عمران، وكان قد صاهر قاضى الجماعة أبا عبد الله بن هدية على ابنته، فلم تزل عنده إلى أن توفى عنها(٢).

ومنهم مـشكاة الأنوار، الـذى يكاد زيتـه يضىء ولو لم تمسـسـه نار، الأسـتاذ أبو إسـحـاق إبراهيم بن حكم الكنانى الـسلوى - رحمـه الله، ورد تلمسان بعـد العشرين، ثم لم يزل بها إلى أن قتل يـوم دُخِلَتْ على بنى عبد الواد، وذلك فى الثامن والعشـرين من شهر رمضان، من عام سـبعة وثلاثين [وسبعمائة](٣).

قال لى الشيخ ابن مرزوق: ابتدأ أمـر بنى عبد الواد بقتلهم لأبى الحسن السعيد، وكان أسمر لأم ولد تسمى العنـبر، وختم بقتل أبى الحسن بن عثمان إياهم - وهو بصفته المذكورة حذوك النعل بالنعل، فـسبحان من دقت حكمته فى كل شيء(٤).

ولما وقف الرفيـقان أبو عبـد الله محـمد بن عمـر بن رشيد الفـهرى، ومحمـد بن عبد الرحمن بن الحكيم الرندى. فى رحلتـهما على قبر السـعيد بعباد تلمسان، تناول ابن الحكيم فحمة، ثم نقش بها على جدار هنالك.

---

(١) نفح الطيب ٥/٢٢٤.
(٢) نفح الطيب ج٥ ص ٢٢٤.
(٣) نفح الطيب ج٥ ص ٢٢٤ وما بين حاصرتين منه.
(٤) نفح الطيب ٥/٢٢٤.

انظر فَـفِيَّ إليك اليـوم مـعـتـبـر ... إن كنت ممن بعين الـقلب قد لحظا
بالأمس أدعى سعيدا-والورى خولى ... واليوم يدعى سعيدا من بى اتعظا[1]

قال ابن حكم: كان أول اتصالى بالأستاذ أبى عبد الله بن آجروم. أنى دخلت عليه وقـد حفظت بعض كتاب المـفصل. فوجدت الطلبـة يعربون بين يديه هذا البيت.

عـهـدى به الحى الجمـيع وفـيـهم ... قـبـل التـفـرق مـيـسـر ونـدام

وقد عـمى عليهم خـبر «عـهدى» فـقلت له: قد سـدت الحال - وهى الجملة بعده - مسده، فقـال لى بعض الطلبة: وهل يكون هذا فى الجملة كما كان فى قولك: «ضربى زيدا قائما»؟ فقلت له: نعم، قال رسول الله - ﷺ: أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد[2].

ذكر أبو زيد ابن الإمـام يوما فى مجلسه، أنه سـئل بالمشرق عن هاتين الشرطيتين ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ (٢٣)﴾ [الأنفال] فإنهمـا يستلزمان بحكم الإنتاج، ولو علم الله فيـهم خيرا، لتولوا، وهو محال. ثم أراد أن يرى ماعند الحاضـرين فقال ابن حكم، قال الخونجى، والإهمـال بإطلاق لفظ لو وإنْ فى المتـصلة، فـهـاتان القـضيـتـان على هذا مهملتـان، والمهلة فى قوة الجزئية، ولا قيـاس على جزئيتين: فلما اجـتمعت ببجاية بـأبى على حسن بن حسين، وأخـبرته بهذا وبما أجاب به الزمـخشرى وغيـره مما يرجع إلى انتـقاء تكرر الوسط، فـقال لى: الجـوابان[3] فى المعنى

(١) نفح الطيب ٥/ ٢٢٤.
(٢) نفح الطيب ٥/ ٢٢٥.
(٣) تحرف فى المطبوع إلى: «الجوبان» وصوابه من نفح الطيب.

ســواء. لأن القيـاس على الجزئيـتين، إنمـا امتنع لانتـقاء أمـر تكرر الوسط، فأخـبرت بذلك شـيخنا الآبلى، فـقال: إنما يقـوم القيـاس على الوسط، ثم يشتـرط فيه بعد ذلك أن لا يـكون من جزئيتين ولا سـالبتين - إلى سـائر ما يشترط، فقلت، ما المانع من كون هذه الشروط تـفصيلا لمجمل ما ينبنى عليه من الوسط وغيره، وإلا فـلا مانع غير ما قاله ابن حسـين، قال الآبلى: وقد أجيت بجواب السلوى، ثم رجعت إلى ما قـاله الناس لوجوب كون مهملات القرآن كلية، لأن الشرطية لا تنتج جزئية، فقلت: هذا فيما يساق منها للحجة مثل ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا ... (٢٢)﴾ [الأنبيـاء]. أما فى مـثل هذا فلا[١].

ولما ورد تلمسان الـشيخ الأديب أبو الحسن بن فرحون - نـزيل طيبة - على تربتها السلام - سأل ابن حكم عن معنى هذين البيتين:

رأت قـمـر السـمــاء فـأذكـرتنى ... ليـالى وصـلـهـا[٢] بالرقـمـتـين
كـــلانا ناظـر قـــمـــرا ولـكن ... رأيت بعـــينهـــا ورأت بعـــينى

فـفكر ثم قال: لعل هذا الـرجل كان ينظر إليـهـا وهى تنظر إلى قمـر السمـاء، فهى تنظر إلى القمـر حقيـقة، وهو لإفراط الاسـتحسـان يرى أنها الحقيـقة، فقد رأى بعيـنها، لأنها ناظرة الحقيـقة، وأيضا فهو يـنظر إلى قمر مجازا وهو لإفراط استحسانه لهـا، يرى أن قمر السماء هو المجاز، فقد رأت بعينه لأنها ناظرة المجاز[٣].

---

(١) نفح الطيب ٥/٢٢٥.

(٢) فى المطبوع: «وصلنا» والمثبت رواية نفح الطيب.

(٣) نفح الطيب ٥/٢٢٦.

قلت: ومن هنا تعلم وجه الفاء فى قوله: «فأذكرتنى» لأنه لما صارت رؤيتها رؤيته، وصار القمر حقيقة إياها، كان قوله «رأت قمر السماء فأذكرتنى» بمثابة قولك، أذكرتني فتأمله، فإن بعض من لا يفهم كلام الأستاذ حق الفهم ينشده وأذكرتنى، فالفاء فى البيت الأول مبنية على معنى البيت الثانى، لأنها مبنية عليه، وهذا النحو يسمى: الإيذان فى علم البيان[1].

ولما اجتمعنا بأبى الوليد بن هانئ - مقدمه علينا من غرناطة - سأل ابن حكم عن تكرار من فى قوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ ... ⑩﴾ [الرعد]، دون ما بعده، فقال: لولا تكررها أولا، لتوهم التضاد بتوهم اتحاد الزمان، فارتفع بتكرر الموضوع، أما آخر، فقد تكرر الزمان، فارتفع توهم التضاد، فلم يحتج إلى زائد على ذلك[2].

فقلت: فهلا اكتفى بسواء عن تكرر الموضوع، لأن التسوية لا تقع إلا بين أمرين وإنما الجواب عندى أنها تكررت أولا على الأصل لأنهما صنفان يستدعيها كل واحد منهما أن تقع عليه، ثم اختصرت ثانيا لفهم المراد من التفصيل بالأول مع أمن اللبس. وقد أجاب الزمخشرى بغير هذين فانظره[3].

سألنى ابن حكم المذكور عن نسب المجيب فى هذا البيت:

ومهفهف ألا عطاف قلت له انتسب   فأجاب ما قتل المحب حرام

(١) نفح الطيب ٥/٢٢٦.

(٢) نفح الطيب ٥/٢٢٧.

(٣) نفح الطيب ٥/٢٢٧.

ففكرت ثم قلت: أراه تميميا لإلغائه «ما» النافية، فاستحسانه منى لصغر سنى يومئذ(١).

تذاكرت(٢) يوما مع ابن حكم فـى تكملة محمـد بن محمـد بن مالك لشرح التسهيل لأبيه، ففضلت عليه كلام أبيه. ونازعنى الأستاذ فقلت:

عهود من الآبا توارثها ألا بنا

فما رأيت بأسرع من أن قال:

بنوا مجدها لكن بنوهم لها أبنى

فبـهت من العجب(٣) وتوفى الشـيخ ابن مالك سنـة اثنتين وسـبعـين [وستمـائة] وفيها ولد شـيخنا عبد المهـيمن الحضرمى، فـقيل مات فيـها إمام نحو، وولد إمام نحو(٤).

سألـت ابن حكم عن قول فـخر الدين فى أول المحـصل: «وعندى أن شيئـا منها غير مكتسب - بمعنى لا شىء ولا واحـد، هل له أصل فى العربية أو هو كمـا قيل من بقايا عـجمتـه؟ فقال لى: بـل له أصل، وقد حكى ابن مالك مثله عن العـرب فلم يتفق أن استوقفـه عليه، ثم لم أزل أستكشف كل من أظن أن لديه شيـئا عنه فلم أجد من عنده أثارة منه حـتى مر بى فى باب الأفـعال الداخلة على المبـتدأ والخـبـر الداخل عليهـا، «كان» - من «شـرح التسهيل» قوله: «فإن تقدم على الاستفهام أحد المفعولين» نحو: «علمت زيدا

---

(١) نفح الطيب ٥/٢٢٧.

(٢) فى المطبوع: «نظرت» والمثبت رواية نفح الطيب.

(٣) فى المطبوع: «التعجب» والمثبت من نفح الطيب.

(٤) نفح الطيب ٢٢٧ وما بين حاصرتين منه.

أبو من هو» اختير نصبه، لأن الفعل مسلط عليه فلا مانع، ويجوز رفعه لأنه والذى بعد الاستفهام شىء واحد فى المعنى، فكأنه فى حيز الاستفهام، والاستفهام مشتمل عليه، وهو نظير قولهم «إن أحد إلا[1] يقول ذلك» وأحد هذا لا يقع إلا بعد نفى، ولكن لما كان هنا والضمير المرفوع بالقول شيئا واحدا فى المعنى، تنزل منزلة واقع بعد نفى، فعلمت أنه نحا إلى هذا، لأن شيئا ها هنا والضمير المرفوع بمكتسب المنفى فى المعنى شىء واحد، فكان شيئا كأنه وقع بعد غير، أى بعد النفى[2].

سأل ابن فرحون ابن حكم: هل تجد فى التنزيل ست فاءات مرتبة ترتيبها فى هذا البيت:

رأى فحب فرام الوصل فامتنعت فسام صبرا فأعيا نيله فقضى

ففكر ثم قال: نعم ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ ... ﴿١٩﴾﴾ [القلم] إلى آخرها، فمنعت له البناء فى «فتنادوا» فقال لابن فرحون: فهل عندك غيره؟ فقال: نعم، فقال لهم رسول الله - إلى آخر السورة [الآيات ١٣ - ١٥ من سورة الشمس]، فمنع له بناء الأخيرة لقراءة الواو، فقلت: امنع ولا تسند فيقال لك إن المعانى قد تختلف باختلاف الحروف، وإن كان السند لا يسمع الكلام عليه، وأكثر ما وجدت الفاء تنتهى فى كلامهم إلى هذا العدد سواء بهذا الشرط وبدونه، كقول نوح عليه السلام، ﴿... فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ ... ﴿٧١﴾﴾ [يونس]، وكقول امرئ القيس:

غشيت ديار الحى بالبكرات

---

(١) فى الأصل: «لا» والمثبت رواية نفح الطيب.

(٢) نفح الطيب ٥/ ٢٢٨.

البيتين[١].

لا يقال: فالحب سابع لأنا نقول: إنه عطف على عاقل المجرد منها، ولعل حكمة الستة أنها أول الأعداد التامة، كما قيل فى حكمة خلق السموات والأرض فيها. وشأن اللسان عجيب[٢].

وقوله فى هذا البيت: فحب لغة قليلة جرى عليها محبوب كثيرا حتى استغنى به عن محب، فلا تكاد تجده إلا فى قول عنترة:

ولقد نزلت فلا تظنى غيره منى بمنزلة المحب المكرم

ونظيره محسوس من حس[٣]، والأكثر أحس ولا تكاد تجد محسا، وهذا التوجيه أحسن[٤] من قول القرافى فى شرح التنقيح إنهم أجروا محسوسات مجرى معلومات لأن الحس أحد طرق[٥] العلم[٦].

سمعت ابن حكم يقول: كتب بعض أدباء فاس إلى صاحب له:

ابعث إلى بشىء مدار فاسْ عليه

وليس عندك شىء مما أشير إليه

(١) نفح الطيب ٥/ ٢٢٨ والبيتان هما قوله:

غشيت ديار الحى بالبكرات فعارمة فبرقة العبرات

الغول فحليت فأكناف منعج إلى عاقل فالجب ذى الأمرات

(٢) نفح الطيب ٥/ ٢٢٩.

(٣) تحرف فى المطبوع إلى: «حسن» وصوابه من نفح الطيب.

(٤) فى المطبوع: «أحسنَ» والمثبت رواية نفح الطيب.

(٥) فى المطبوع: «الطرق» والمثبت رواية نفح الطيب.

(٦) نفح الطيب ٥/ ٢٢٩.

فبعث إليه ببطة من مرى[١] - يشير بذلك إلى الرياء[٢].

وحدثت أن قاضيها أبا محمد عبد الله بن أحمد بن الملجوم، حضر وليمة، وكان كثير البلغم، فوضع بين يديه صهره أبو العباس بن الأشقر غضارا من اللون المطبوخ بالمرى لمناسبته لمزاجه، فخاف أن يكون قد عرض له بالرياء، وكان ابن الأشقر يذكر بالوقوع في الناس، فناوله القاضي غضار المقروض، فاستحسن الحاضرون فطنته[٣].

ومنهم عالم الصلحاء، وصالح العلماء، وجليس التنزيل، وحليف البكاء والعويل، أبو محمد عبد الله بن عبد الواحد بن إبراهيم بن الناصر المجاصى، خطيب جامع القصر الجديد، وجامع خطتى التحديث والتجويد[٤]، ويسميه أهل مكة البكاء، ولما قدم أبو الحسن على ابن موسى البحيرى، سأل عنه فقيل له: لو علم بك أتاك، فقال: أنا آتى من سمعت

---

(١) البطة: إناء كالقارورة يعمل على شكل بطة، والمرى - بتشديد الراء - أنواع من مستحضرات تتخذ فى صنع الأطعمة منها المرى النقيع والطيب ومرى الخبز ومرى الحوت. وبعض أنواعه يصنع من عصير العنب بالأفاويه دون خبز محرق، والعامة تصنعه من العسل المحرق والخبز المحرق وغيرهما. ويقول دوزى: إنه مركب يصنع من الدقيق والملح والعسل والتمر وأشياء أخرى. ويقول ابن البيطار: إن نوعًا منه يعمل من السمك المالح واللحوم المالحة، وينقل عن الجاحظ قوله: «المرى هو جوهر الطعام وروح البارد المستظرف والحار المستنظف...»

(انظر قاموس دوزى «مادة مرى» ومفردات ابن البيطار ٤/ ١٤٩ وكتاب الطبيخ ٨٢ ومواضع أخرى منه).

(٢) نفح الطيب ٥/ ٢٢٩.

(٣) نفح الطيب ٥/ ٢٣٠، وتحرف فى المطبوع: «...بن أحمد بن الملجوم» إلى: «...المجوم».

(٤) فى الأصل: «التجديد» والمثبت رواية نفح الطيب.

سيدى أبا زيد الهـزميرى يقول له - لأول ما رآه ولم يكن يعـرفه قبل ذلك - مرحبا بالفتى الخاشع، أسمعنا من قراءتك الحسنة(١).

دخلت عليه بالفقيه أبى عبد الله الـسطى فى أيام عيد، فقدم لنا طعاما، فقلت له: لـو أكلت معنا، فرجـونا بذلك ما يرفع من حـديث: من أكل مع مغـفور غفر له، فـتبسم وقال لى: دخـلت على سيدى أبى عبـد الله الفاسى بالإسكندرية، فقدم طعاما، فـسألناه عن هذا الحديث، فقال لى: دخلت على شرف الدين الدمياطى، فقدم لى طعامـا فسألته عن هذا الحديث، فقال: وقع فى نفسى منه شىء، فرأيت النبى - ﷺ فى المنام، فسألته عنه، فقال لى: لم اقله، وأرجو أن يكون كذلك(٢).

وصافحته بمصافحة الشيخ أبا عبد الله زيان بمصافحته أبا سعيد عثمان بن عطية الصـعيدى، بمصـافحتـه أبا العباس أحـمد الملثم، بمصافـحته المعـمر، بمصافحته رسول الله - ﷺ(٣).

وسمعته يحدث عن شيخه أبى محمد الدلاصى، أنه كان للملك العادل مملوك اسمه محمد، فكان يخـصه لدينه وعقله بالنداء باسمه، وإنما كان ينعق بمماليكه: يا ساقى، يا طبـاخ، يا مزين، فنادى به ذات يوم: يا فراش، فظن ذلك لموجـدة عليه، فلـما لم ير أثر ذلك، وتصـورت له به خلوة سـأله عن مخالفته لعادته معه، فـقال: لا عليك كنت حينئذ جنبا، فكرهت ذكر رسول الله - ﷺ - على تلك الحالة(٤).

---

(١) نفح الطيب ٥/ ٢٣٠.

(٢) نفح الطيب ٥/ ٢٣٠.

(٣) نفح الطيب ٥/ ٢٣٠.

(٤) نفح الطيب ٥/ ٢٣١.

نقلت من خط المجاصى ثم قرأته عليه، فحدثنى قال: حدثنى القاضى أبو زكرياء يحيى بن محمد بن يحيى بن أبى بكر بن عصفور، قال: حدثنى جدى يحيى المذكور، أخبرنا محمد بن عبد الرحمن التجيبى المقرئ بتلمسان، حدثنا الحافظ أبو محمد - يعنى والله أعلم - عبد الحق الإشبيلى. حدثنا أبو غالب أحمد بن الحسن المستعمل. حدثنا أبو الفتوح: عبد الغافر بن الحسين ابن أبى الحسن بن خلف الألمعى، أخبرنا أو نصر أحمد بن إسحاق النيسابورى، أملى علينا أبو عثمان إسماعيل بن عبد الرحمن الصابونى، حدثنا محمد بن على بن الحسين العلوى، حدثنا عبد الله بن إسحاق اللغوى - وأنا سألته - حدثنا إبراهيم بن الهيثم البلدى، حدثنا عبد الله بن نافع، عن عيسى بن يونس، عن الأعمش، عن أبى وائل، عن عبد الله بن مسعود، قال: قال رسول الله - ﷺ: قال لى جبريل: ألا أعلمك الكلمات التى قالهن موسى حين انفلق البحر، قلت: بلى، قال: قل: اللهم لك الحمد، وإليك المشتكى، وبك المستغاث، وأنت المستعان، ولا حول ولا قوة إلا بالله. قال ابن مسعود، ما تركتهن منذ سمعتهن من رسول الله - ﷺ، ثم تسلسل الحديث على ذلك كل أحد من رجاله - يقول: ما تركتهن منذ سمعتهن من فلان - لشيخه، وقد سمعت المجاصى يكررها كثيرا وما تركتهن منذ سمعتهن منه(١).

وأنشدنى المجاصى وقال: أنشدنى نجم الدين الواسطى، وقال: أنشدنى شرف الدين الدمياطى وقال: أنشدنى تاج الدين الأرموى مؤلف «الحاصل» وقال: أنشدنى الإمام فخر الدين لنفسه(٢):

(١) نفح الطيب ج٥ ص ٢٣١.

(٢) نفح الطيب ج٥ ص ٢٣٢.

نهـايـة إقـدام العـقـول عــقـال ... وأكـثــر سـعى العـالمـين ضـلال
وأرواحنا في وحـشة من جسـومنا ... وحـــاصل دنيـــانـا أذى ووبال
ولم نستـفد من بحثنا طول عـمرنا ... سوى أن جـمعنا فـيه قـيل وقالوا
وكم من رجـــال قـــد رأينا ودولة ... فـبادوا جـمـيـعا مـسرعـين وزالوا
وكم من جبـال قد علت شرفـاتها ... رجـال فـمـاتوا والجـبـال جـبـال

وتوفى المجـاصى فى العشـر الآخر من شـهر ربيع الأول من عـام أحد وأربعين[1].

ومنهم الشـيخ الشـريف القاضى الـرحلة المعمـر، أبو على حـسن بن يوسف بن يحيى الحسينى السبـتى، أدرك أبا الحسين بن أبى الربيع وأبا القاسم العـزفى، واختص بابن عـبيـدة وابن الشاط، ثم رحل إلى المشـرق فلقى ابن دقيق العيد وحَلْبـته، ثم قفل فاستوطن تلمسان - إلى أن مـات فيها سنة أربع وخمسين أو ثلاث وخمسين وسبـعمائة. قرأ علينا حديث الرحمة، وهو أول حديث سمعته منه. قال: حدثنا الحسن بن على بن عيسى بن الحسن اللخمى - وهو أول حـديث سمـعتـه منه. قـال: حدثنا على بـن المظفر بن القـاسم الدمشقى - وهو أول حديث سـمعته منه، قال: حدثنا أبو الفـرج محمد بن عبـد الرحمن بن أبى العـز الواسطى - وهو أول حديث سمـعتـه منه، قال: حدثنا أبو العـز عبد المغيث بن زهيـر - وهو أول حديث سمعتـه منه، قال: حدثنا زاهر بن طاهر بن محمد الشحامى - وهو أول حديث سمعته منه.

---

(١) نفح الطيب ج٥ ص ٢٣٢.

(ح)[1] قال الحسن بن على: وحدثنا أيضا - عاليا - الحسن بن محمد ابن محمد البكرى - وهو أول حديث سمعته منه، أخبرنا أبو الفتوح محمد ابن محمد بن محمد بن الجنيد الصوفى - وهو أول حديث سمعناه منه، حدثنا زاهر بن طاهر - وهو أول حديث سمعته منه، حدثنا أبو الفضل عبد الرحمن بن أبى الفضائل عبد الوهاب بن صالح عرف بابن المعزم[2] إمام جامع همذان بها - وهو أول حديث سمعته منه - حدثنا أبو منصور عبد الكريم بن محمد بن حامد المعروف بابن الخيام - وهو أول حديث سمعته منه، حدثنا أبو صالح أحمد بن عبد الملك - وهو أول حديث سمعته منه حفظا، حدثنا أبو الطاهر محمد بن محمد بن محمش الزيادى - وهو أول حديث سمعته منه، حدثنا أبو حامد أحمد بن محمد بن محمد بن يحيى بن هلال البزار - وهو أول حديث سمعته منه، حدثنا عبد الرحمن بن بشر بن الحكم - وهو أول حديث سمعته منه، حدثنا سفيان بن عيينة - وهو أول حديث سمعته منه، عن عمرو بن دينار، عن أبى قابوس مولى لعبد الله بن عمرو بن العاص، عن عبد الله بن عمرو بن العاص، أن رسول الله - ﷺ قال: الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا أهل الأرض يرحمكم من فى السماء[3].

(ح). وحدثنى الشريف أيضا كذلك قال: حدثنى السلفى كذلك بأسانيده المشهورة فيه. وهذا الحديث أخرجه الترمذى.

---

(١) جرت عادة علماء مصطلح الحديث - إذا كان للحديث إسنادان فأكثر. وجمعوا بين الأسانيد فى متن واحد - أنهم إذا انتقلوا من إسناد إلى إسناد آخر، كتبوا بينهما حاء مفردة مهملة كذا (ح) اختصاراً من كلمة «تحويل».

(٢) فى نفح الطيب: «المغرم».

(٣) نفح الطيب ٥/ ٢٣٢.

وقال حديث حسن صحيح. قال لى الشريف: قال لى القاضى أبو العباس الرندى، لما قدم أبو العباس بن الغماز من بلنسية، نزل بجاية، فجلس بها فى الشهود مع عبد الحق بن ربيع، فجاء عبد الحق يوما وعليه برنس أبيض وقد حسنت شارته وكملت هيئته، فلما نظر إليه ابن الغماز أنشده:

لبس البرنس الفقيه فباهى وأرى[1] أنه المليح فتاها
لو زليخا رأته حين تبدى لتمنته أن يكون فتاها[2]

وبه أن ابن الغماز جلس لارتقاب الهلال بجامع الزيتونة، فنزل الشهود من المئذنة وأخبروا أنهم لم يُهِلّوه، وجاء حفيد له صغير، فأخبره أنه أَهَلَّه، فردهم معه فأراهم إياه، فقال: ما أشبه الليلة بالبارحة! وقع لنا مثل هذا مع أبى الربيع بن سالم، فأنشدنا فيه:

توارى هلال الأفق عن أعين الورى وأرخى حجاب الغيم دون محياه
فلما تصدى لارتقاب شقيقه تبدى له دون الأنام فحياه[3]

وقال - رحمه الله: سمعت الشريف يقول: أول زجل عمل فى الدنيا:

بالله يا طير مدلل مر بى وسط القفار
إياك نجدك لعاده ترمى حجيره فى دارى[4]

ومنهم قاضى جماعتها، وكاتب خلافتها، وخطيب جامعها، أبو عبد الله محمد بن منصور بن على بن هدية القرشى، من ولد عقبة بن عامر

---

(١) فى نفح الطيب: «ورأى».
(٢) نفح الطيب ٥/ ٢٣٣.
(٣) نفح الطيب ٥/ ٢٣٤.
(٤) نفح الطيب ٥/ ٢٣٤.

الفهرى، نزلها سلفه قديما، وخلفه بها إلى الآن، توفى فى أواسط سنة خمس وثلاثين وسبعمائة. وشهد جنازته سلطانها يومئذ أبو تاشفين، وولى ابنه أبا على منصورا - مكانه - يومئذ، ولما ثقل لسانه، دعا ابنه هذا فقال له: اكتب هذين البيتين، فإنى نظمتهما على هذه الحالة، فكتب:

إلهى مضت للعمر سبعون حجة ... جنيت بها لما جنيت الدواهيا

وعبدك قد أمسى عليل ذنوبه ... فجد لى برحمى منك نعم الدواهيا[1]

ولما ورد الأديب أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن المكودى من المغرب، رفع إليه قصيدة أولها:

سرت والدجى لم يبق إلا يسيرها ... نسيم صبا يحيى القلوب مسيرها

وفيها الأبيات العجاب التى سارت سير الأمثال، وهى قوله:

وفى الكلة الحمراء حمراء لو بدت ... لثكلى لولى ثكلها وثبورها

فما بسوى مثوى لها من سوى القنا ... خيام ومن بيض الصفاح ستورها

وما بسوى صدق الغرام أرومها ... ولا بسوى زور الخيال أزورها

فأحسن إليه، وكلم السلطان حتى أرسل جرايته عليه، وقد شهدت المكودى وهذه القصيدة تقرأ عليه[2].

ومنهم القاضى أبو عبد الله محمد بن أحمد بن على بن أبى عمرو التميمى، أدرك ابن زيتون، وأخذ عن أبى الطاهر بن سرور وحَلْبته، وعنه

---

(١) نفح الطيب ٥/ ٢٣٤.

(٢) نفح الطيب ٥/ ٢٣٥.

أخذت شرح المعالم له، وولى القضاء بتلمسان مرات، فلم تستفزه الدنيا، ولا باع الفقر بالغنى[1].

ومنهم أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد النور.

قاضى الجماعة - بعد ابن أبى عمرو، وكانت له رحلة إلى المشرق، لقى بها جلال الدين القزوينى وحلبته، وتوفى بتونس فى الوباء العام فى حدود الخمسين وسبعمائة[2].

ومنهم الشيخ أبو عبد الله محمد بن الحسن البرونى،

قدم عليها من الأندلس، فأقام إلى أن مات. سمعته يقول: البقر العدوية، كالإبل المهملة فى الصحراء، لا يجوز أن تباع بالنظر إليها، لكن بعد أن تمسك ويستولى عليها[3].

ومنهم أبو عمران موسى بن يمويمن المصمودى، الشهير بالبخارى.

سمعت البونى يقول: كان الشيخ أبو عمران يدرس صحيح البخارى، ورفيق له يدرس صحيح مسلم، فكانا يعرفان بالبخارى ومسلم، فشهدا عند قاض، فطلب المشهود عليه الإعذار فيهما، فقال له أبو عمران: أتمكنه من الإعذار فى الصحيحين؟ فضحك القاضى وأصلح بين الخصمين.

سألته عما ضربه ابن هدية عليه من إباحته الاستياك فى رمضان بقشر الجوز، فقال لى: نعم ويبلع ريقه. تأول - رحمه الله - أن الخصال المذكورة

(١) نفح الطيب ٥/ ٢٣٥.
(٢) نفح الطيب ٥/ ٢٣٥.
(٣) نفح الطيب ٥/ ٢٣٦.

فى السـواك إنما تجمع فى الجـوز، فكان يحمل كل مـا روى فيه علـيه، وهذا غلط فاحش، لأن العرب لا تكاد تعرفه، ونـظر إلى ما فى البخارى من قوله بعد أن ذكر جواز السواك للصائم، ولا بأس أن يبتلع ريقه - يعنى الصائم فى الجملة، فحمله على المستاك بالجوز.

وكان رحمه الله - قليل الإصابة فى الفتيا كثير المصيبات عليها[١].

ومنهم: نادرة الأعـصار، أبو عـبد الله مـحـمد بن يحـيى بن على بن النجار.

قال لى العلامة الآبلى: ما قرأ أحد على حتى قلت له: لم يبقى عندى ما أقول لك غير ابن النجار.

سمعت ابن النجار يقول: مر عـمل الموقتين على تساوى فضلتى ما بين المغرب والعـشاء والفـجر والشمس، فـيؤذنون بالعشـاء لذهاب ثمانى عـشرة درجة، وبالفجر لـبقائها، والجارى على مذهب مالـك أن الشفق الحمرة، وأن تكون فضلة مـا بين العشـائين أقصر، لأن الحـمرة ثانيـة الغوارب والطوالع، فتـزيد فضلة الفـجر بمقدار مـا بين ابتداء طلوع الحـمـرة والشمس، فـعرضت كـلامـه - هذا على المزوار أبى زيد عـبـد الرحـمـن بن سليـمـان اللجـائى فصوبه[٢].

وذكرت يوما حكاية ابن رشد الاتفاق فى الخمـر إذا تخللت بنفسها أنها تطهر، واعترضته بما فى الإكمـال عن ابن وضاح أنها لا تطهر. فقال لى: لا

(١) نفح الطيب ٥/ ٢٣٦.

(٢) نفح الطيب ٥/ ٢٣٦.

معتبر بقول ابن وضــاح هذا، لأنه يلزم عليه تحريم الخل، لأن العنب لا يصير خلا حتى يكون خمرا. و- وفيه بحث[1].

وذكرت يومــا قول ابن الحــاجب فيمــا يحرم من النساء بــالقرابة، وهى أصــوله وفصــوله وفصــول أول أصــوله، وأول فصل من كل أصل وإن عــلا فقال: إن تركب لفظ التسمية العرفـية من الطرفين حلت وإلا حرمت، فتأملته فوجدته كما قال، لأن أقســام هذا الضابط أربعة: التركب من الطرفين، كابن العم وابنة العم، مقابله: كالأب والبنت، التركب من قبل الرجل، كابنة الأخ والعم، مقابلة: كابن الأخت والخالة[2].

وأنشدت يوما عنده على زيادة اللام:

باعد أُمَّ العمر من أسيرها[3] - البيت.

فقال لى: وما يدريك أنه أراد العمر الذى أراده المعرى فى قوله:

وعــــمــر هنــد كــأن الله صـــوره عمــرو بن هند يعنى الناس تعنيــتا

وأضاف اللام إليه - كا قالوا، أم الحليس، قلت: ولا يندفع هذا بثبوت كون المعنيــة تكنى أم عمرو. لأن ذلك لا يمنع إرادة المعنى الآخــر فتكون: أم عمرو، وأم العمر[4].

قال ابن النجار: بعثت بهذه الأبيات من نظمى إلى القاضى أبى عبد الله ابن هدية، فأخرج لغزها:

---

(١) نفح الطيب ٥/٢٣٧.

(٢) نفح الطيب ٥/٢٣٧.

(٣) فى المطبوع: «باعد العــمر..» وهو غير صحــيح عروضيًا والبــيت من الرجز، وتمامه: «حراس أبواب على قصورها».

(٤) نفح الطيب ٥/٢٣٨.

إن حـــــروف اسم مــن كلفــت به   خـــــفت عــلى كل نــاطق بــفم
سـائـغـة سـهلـة مـخـارجـــهـا   أجل بـهـــــــذا تزاد فــى الكــلم
صَـحِّـفْـه ثم أقـبلن مُـصَـحَّـفَـه   فِـــعْــلَ ذكى مـــهـــذب فــــهم
واطلبــه فى الشعـر جـد مطلبـه   تجـده كـــالصبح لاح فــى الظلم
فــــإن تــأملــت بت مــنه عــلى   علــم وإلا فـــأنت عنـه عـــمى

واللغز سلمان وموضعه «تأملت بت» وتوفى - رحمه الله - بتونس أيام الوباء العام[1].

ومنهم الأستاذ المقرئ الرواية الرحلة، أبو الحسن على بن أبى بكر بن سبع[2] بن مزاحم المكناسى، ورد علينا من المشرق، فأقام معنا أعواما، ثم رحل إلى فاس، فتوفى بها فى الوباء العام، جمعت عليه السبع، وقرأت عليه البخارى والشاطبتين وغير ذلك، فأما البخارى، فحدثنى به قراءة على أحمد ابن الشحنة الحجار فى سنة ثلاثين وسبعمائة، وكان الحجار قد سمعه على بن الزبيدى فى سنة ثلاثين وستمائة، وهذا ما لا يعرف له نظير فى الإسلام، وقد قال عبد الغنى الحافظ: لا نعرف فى الإسلام من وازاه غير عبد الله بن محمد البغوى فى قدم السماع، فإنه توفى سنة سبع عشرة وثلاثمائة. قال ابن خلاد: سمعناه يقول: حدثنا إسحاق بن إسماعيل الطالقانى سنة خمس وعشرين ومائتين، وسمعه ابن الزبيدى على أبى الوقت بسنده قال لى ابن مزاحم: هذا طريق كله سماع. ةأما الشاطبيتان، فحدثنى بهما قراءة عليه جميعهما، عن بدر الدين بن جماعة بقراءتهما عليه، عن أبى الفضل هبة الله بن الأزرق

(١) نفح الطيب ٥/٢٣٨.

(٢) هذا المثبت من نفح الطيب، والذى فى المطبوع: «بن سبوع».

بقراءتهما عليه عن المؤلف - كذلك، وحدثنى بتسهيل الفوائد عن ابن جماعة عن المؤلف ابن مالك وغير ذلك(١).

وممن ورد عليها لا يريد الإقامة بها، شيخى وبركتى وقدوتى: أبو عبد الله محمد بن حسين القرشى الزبيدى التونسى.

حدثنى بالصحيحين قراءة لبعضهما ومناولة لجميعهما، عن أبى اليمن ابن عساكر، لقيه بمكة سنة إحدى وثمانين وستمائة بسنده المشهور. وحدثنى أيضا، أن أبا منصور العجمى حدثه بمحضر الشيخين، والده حسين وعمه حسن، وأثنى عليه دينا وفضلا - أنه أُدخل ببعض بلاد المشرق على المعمَّر أدخله عليه بعض ولد ولده، فألقاه ملفوفا فى قطن، وسمع له دويا كدوى النحل، فقال له: ألقيت رسول الله - ﷺ ورأيته؟ قال: نعم، قلت ليس فى هذا ما يستراب منه إلا الشيخ المعمر، فإنا لا نعرف حاله، فإن صح، فحديثنا عنه ثلاثى، وقد تركت سنة خمس وأربعين بمصر رجلا يسمى بعثمان، معه تسعون حديثا، يزعم أنه سمها من المعمر. وقد أخذت عنه وكتبت منه، فهذا ثُنائى(٢)، وأمر المعمر غريب، والنفس أميل إلى نفيه(٣).

ومنهم إمام الحديث والعربية، وكاتب الخلافة العثمانية والعلوية، أبو محمد عبد المهيمن بن محمد الحضرمى السبتى.

جمع فأوعى، واستوعب أكثر المشاهير وما سعى، فهو المقيم الظاعن، الضارب القاطن، سألنى عن الفرق بين علم الجنس واسم الجنس، فقلت له: زعم الخسروشاهى أنه ليس بالديار المصرية من يعرفه غيره، وأنا أقول: ليس

---

(١) نفح الطيب ٥/ ٢٣٨.

(٢) هذا المثبت من نفح الطيب، والذى فى المطبوع: «ثنائى».

(٣) نفح الطيب ٥/ ٢٣٩.

فى الدنيا عالم إلا وهو يعلمه غـيره، لأنه حكم لفظى أوجب تقديره المحافظة على ضبط القوانين كعـدل عمر ونحوه، فاستحـسن ذلك، وكان ينكر إضافة الحول إلى الله عز وجل، فـلا يجيز أن يقال بحـول الله وقوته، قال: لأنه لم يرد إطلاقـه، والمعنى يقتـضى امتناعـه، لأن الحول كالحـيلة أو قريب مـنها، وتوفى بتونس أيام الوباء العام[1].

ومنهم الفقيه المحقق الفرضى المدقق، أبو عبد الله محمد بن سليمان[2] ابن على السطى.

قرأت عليه كتاب الحوفى علمـا وعملا، قال لى فى قول ابن الحاجب: والثمن والثلـث والسدس من أربعة وعـشرين - هذا لا يصح، إذ لا يجـتمع الثلث والثـمن فى فريضـة، وقد سـبقه إلى هذا الـوهم صاحب المقـدمات، وسـألت عنه ابن النجار فـقال لى: إنما أراد المـقام لأنه يجـتمع مع الثلثـين، والإنصاف أنه لا يحسن التعبير بما لا تصح إرادة نفسه عن غيره، فكان الوجه أن يقـول: والثلثان أو ومـقـام الثلث ونحو ذلـك، لأن الثلث إنما يدخل هنا تقديرا لا تحقيقا - كمـا فى الجواهر. وانظر باب المدبر من كتاب الحوفى، فإن فيـه وافقة السـبعة لعـدد لا توافقه، فـهو من باب الفرض، وعليـه ينبغى أن يحمل كلام ابن الحاجب[3].

ومنهم: الأستاذ أبو عـبد الله الرندى. والقاضى أبو عبد الله مـحمد بن على بن عبد الرازق الجزولى. والقاضى أبو إسـحاق إبراهيم بن عبد الرحمن ابن أبى يحيى - فى كثير من الخلق. فلنضرب عن هذا[4].

---

(١) نفح الطيب ٥/ ٢٤٠.

(٢) هذا المثبت من نفح الطيب، والذى فى المطبوع: «أبو عبد الله بن سليمان».

(٣) نفح الطيب ٥/ ٢٤٠.

(٤) نفح الطيب ٥/ ٢٤١.

ومن شيوخي الصلحاء الذين لقيت بها، خطيبها الشيخ أبو عثمان سعيد ابن إبراهيم بن على الخياط.

أدرك أبا إسحاق الطيار، وقد صافحته - وأنا صغير، لأنه توفى سنة تسع وعشرين بمصافحته إياه بمصافحته الشيخ ابا تميم، بمصافحته أبا مدين، بمصافحته أبا الحسن بن حرزهم، بمصافحته ابن العربى، بمصافحته الغزالى، بمصافحته أبا المعالى، بمصافحته أبا طالب المكى، بمصافحته أبا محمد الجزيرى، بمصافحته الجنيد، بمصافحته سريا، بمصافحته معروفا، بمصافحته داود الطائى، بمصافحته حبيبا العجمى، بمصافحته الحسن البصرى، بمصافحته على بن أبى طالب، بمصافحته رسول الله - ﷺ(1).

ومنهم خطيبها المصقع، أبو عبد الله محمد بن على بن الجمال.

أدرك محمد بن رشد البغدادى. صاحب الزهر والوتريات على حروف العجم، والمذهبة، وغيرها، حدثنى عنه أنه تاب بين يديه لأول مجلس جلسه بتلمسان سبعون رجلا(2).

ومنهم الشقيقان الحاجان الفاضلان، أبو عبد الله محمد وأبو العباس أحمد، ابنا ولى الله أبى عبد الله محمد بن محمد بن أبى بكر بن مرزوق العجيسى.

كسانى محمد خرقة التصوف بيده كما كساه إياها الشيخ بلال بن عبد الله الحبشى، خادم الشيخ أبى مدين، كما كساه أبو مدين، قال محمد بن

(1) نفح الطيب ٥/ ٢٤١.

(2) نفح الطيب ٥/ ٢٤٢.

مرزوق، وكان مولد بلال سنة تسع وخمسين وخمسمائة. وخدم أبا مدين - نحوا من خمسة عشر عاما - إلى أن توفى فى عام تسعين وخمسمائة، ثم عاش بعده أكثر من مائة سنة، ولبس أبو مدين من يد ابن حرزهم، ولبس ابن حرزهم من يد ابن العربى. واتصل اللباس اتصال المصافحة[1].

ومنهم أبو زيد عبد الرحمن[2] بن يعقوب بن على الصنهاجى.

المكتب، حدثنا عن قاضيها أبى زيد عبد الرحمن بن على الدكالى، أنه اختصم عنده رجلان فى شاة ادعى أحدهما أنه أودعها الآخر، وادعى أنها ضاعت منه، فأوجب اليمين على المودع [عنده] أنها ضاعت من غير تضييع. فقال: كيف أضيع وقد شغلتنى حراستها عن الصلاة حتى خرج وقتها؟ فحكم عليه بالغرم. فقيل له فى ذلك، فقال: تأولت قول عمر، ومن ضيعها فهو لما سواها أضيع[3].

ومنهم أبو عبد الله محمد بن محمد القرمونى.

مكتبى الأول، ووسيلتى إلى الله عز وجل، قرأ على الشيخين أبوى عبد الله القصرى وابن حريث وحج حجات، وكان عقد بقلبه أنه كلما ملك مائة دينار عيونا، سافر إلى الحج، وكان بصيرا بتعبير الرؤيا، فمن عجائب شأنه فيه أنه كان فى سجن أبى يعقوب يوسف بن يعقوب بن عبد الحق فيمن كان من أهل تلمسان أيام محاصرته لها، فرأى أبو جمعة بن على التلاسى الجرائحى منهم كأنه قائم على سانية دائرة وجميع قواديسها يصب فى نقير فى وسطها، فجاء ليشرب، فلما اغترف الماء إذا فيه فرث ودم فأرسله، ثم اغترف

---

(١) نفح الطيب ٥/٢٤٢.

(٢) هذ الصواب من نفح الطيب، والذى فى المطبوع: «أبو زيد بن عبد الرحمن».

(٣) نفح الطيب ٥/٢٤٢، وما بين حاصرتين منه.

فإذا هو كذلك ثلاثا أو أكثر، فعدل عنه فرأى خصة ماء. وشرب منها، ثم استيقظ وهو [في][1] النهار. فأخبره فقال: إن صدقت رؤياك فنحن عن قليل خارجون عن هذا المكان. قال: كيف؟ قال: السانية الزمان، والنقير السلطان، وأنت جرائحي تدخل يديك في جوفه، فينالها الفرث والدم[2].

وهذا ما لا نحتاج معه، فلم يكن إلا ضحوة الغد، وإذا النداء عليه، فاخرج فوجد السلطان مطعونا بخنجر. فأدخل يده، فنالها الفرث والدم، فخاط جراحته ثم خرج فرأى خصة ماء، فغسل يديه وشرب، ثم لم يلبث السلطان أن توفي وسرحوا[3].

وتعداد أهل هذه الصفة يكثر. فلنصفح عنهم ولنختم فصل من لقيته بتلمسان بذكر رجلين هما بقيد الحياة، أحدهما عالم الدنيا: والآخرة نادرتها.

أما العالم فشيخنا ومعلمنا العلامة أبو عبد الله محمد إبراهيم بن أحمد العبدري الآبلي التلمساني سمع جده لأمه أبا الحسين بن غلبون المرسي القاضي بتلمسان، وأخذ عن فقهائها أبي الحسين التنسي وابني الإمام، ورحل في آخر المائة السابعة، فدخل مصر والشام والحجاز والعراق، ثم قفل إلى المغرب، فأقام بتلمسان مدة، ثم فر أيام[4] أبي حمو موسى بن عثمان إلى المغرب.

حدثني أنه لقي أبا العباس أحمد بن إبراهيم الخياط، شقيق شيخنا أبي عثمان المتقدم ذكره، فشكا له ما يتوقعه من شر أبي حمو، فقال له: عليك

---

(١) تكملة من نيل الابتهاج.

(٢) نفح الطيب ٥/ ٢٤٣.

(٣) نفح الطيب ٥/ ٢٤٣، والإحاطة ٢/ ٢٠١، ونيل الابتهاج، ج٢/ ٨٠.

(٤) في المطبوع: «أمام» والمثبت رواية النفح.

بالجبل، فلم يدر ما قال حتى تعرض له رجل من غمارة، فعرض عليه الهروب به، قال: فخفت أن يكون أبو حمو قد دسه على، فتنكرت له فقال لى: إنما أنا أسير بك على الجبل، فتذكرت قول أبى إسحاق، فواطأته وكان خلاصى على يده، ولقد وجدت العطش فى بعض مسيرى معه، حى غلظ لسانى، واضطربت ركبتاى فقال لى، وإن جلست قتلتك لئلا أفتضح بك، فكنت أقوى نفسى، فمر على بالى فى تلك الحالة استسقاء عمر بالعباس وتوسله به. فوالله ما قلت شيئا حتى رفع لى غدير ماء. فأريته إياه، فشربنا ونهضنا(١).

ولما دخل المغرب. أدرك أبا العباس ابن البناء. فأخذ عنه وشافه كثيرا من علمائه، قال لى: قلت لأبى الحسن الصغير: ما قولك فى المهدى؟ فقال: عالم سلطان. فقلت: قد أبنت(٢) عن مرادى، ثم سكن جبال الموحدين، ثم رجع إلى فاس، فلما افتتحت تلمسان، لقيته بها، فأخذت عنه، فقال لى الآبلى، كنت يوما مع القاسم بن محمد الصنهاجى، فوردت عليه طومارة من قبل القاضى أبى الحجاج الطرطوشى فيها:

خيرات ما تحويه مبذولة ومطلبى(٣) تصحيف مقلوبها

فقال لى: ما مطلبه؟ فقلت: نارنج(٤).

دخل على الآبلى - وأنا عنده بتلمسان - الشيخ عبد الله الدباغ المالقى المتطبب، فأخبرنا أن أديبا استجدى وزيرا بهذا الشطر:

(١) نفح الطيب ٥/ ٢٤٤.

(٢) فى الأصل: «أنبأت» والمثبت رواية نفح الطيب.

(٣) فى المطبوع: «ومطلب» والمثبت رواية نفح الطيب.

(٤) نفح الطيب ٥/ ٢٤٤.

ثم حبيب[1] قل ما ينصف

فأخذته فكتبته ثم قلبته وصحفته، فإذا هو قصبتا ملف شحمي[2].

ومر الدباغ علينا يوما بفاس، فدعاه الشيخ فلباه، فقال: حدثنا بحديث اللظافة، فقال: نعم، حدثني أبو زكرياء بن السراج الكاتب بسجلماسة، أن أبا إسحاق التلمساني وصهره مالك بن المرحل، وكان ابن السراج قد لقيهما، اصطحبا في مسير، فآواهما الليل إلى مجشر، فسألا عن طالبه، فدلا فاستضافاه فأضافهما، فبسط قطيفة بيضاء، ثم عطف عليهما بخبز ولبن، وقال لهما: استعملا من هذه اللظافة حتى يحضر عشاؤكما، وانصرف فتحاورا في اسم اللظافة لأي شيء هو منهما حتى ناما، فلم يرع أبا إسحاق إلا مالك يوقظه ويقول: قد وجدت اللظافة، قال: كيف؟ قال: أبعدت في طلبها حتى وقعت بما لم يمر قط على سمع هذا البدوي، فضلا عن أن يراه، ثم رجعت القهقهرى حتى وقعت على قول النابغة:

بمخضب رخص كأن بنانه   عنم يكاد من اللطافة يعقد

فسنح لبالي أنه وجد اللطافة وعليها مكتوب بالخط الرقيق: اللين، فجعل إحدى النقطتين للطاء، فصارت اللطافة اللظافة، واللين: اللبن، وإن كان صحف عنم بغنم، وظن أن يعقد جبن فقد قوى عنده الوهم، فقال أبو إسحاق: ما خرجت عن صوبه، فلما جاء سألاه، فأخبرهما أنها اللبن، واستشهد بالبيت كما قال مالك[3].

(١) هذا المثبت في نفح الطيب ٥/ ٢٤٥ ونيل الابتهاج ٢/ ٩٧ والذي في المطبوع: «طبيب».
(٢) نفح الطيب ٥/ ٢٤٥.
(٣) نفح الطيب ٥/ ٢٤٥.

ولا تعجب من مسالك، فقد ورد فاسا شيخنا أبو عبد الله محمد بن يحيى الباهلى - عرف بابن المسفر - رسولا عن صاحب بجاية، فزاره الطلبة فكان فيما حدثهم أنهم كانوا على زمان ناصر الدين يستشكلون كلاما وقع فى تفسير سورة الفاتحة من كتاب فخر الدين ويستشكله الشيخ معهم. وهذا نصه: ثبت فى بعض العلوم العقلية، أن المركب مثل البسيط فى الجنس، والبسيط مثل المركب فى الفصل، وأن الجنس أقوى من الفصل، فرجعوا به إلى الشيخ الآبلى، فتأمله ثم قال: هذا كلام مصحف، وأصله أن المركب قبل البسيط فى الحس، والبسيط قبل المركب فى العقل، وأن الحس أقوى من العقل، وأخبروا ابن المسفر فلج. فقال لهم الشيخ: التمسوا النسخ، فوجدوه فى بعضها كما قال الشيخ: «والله يؤتى فضله من يشاء»(١).

قال لى الآبلى: لما نزلت تازة، بت مع أبى الحسن بن برى وأبى عبد الله الترجالى، فاحتجت إلى النوم، وكرهت قطعهما عن الكلام. فاستكشفتهما عن معنى هذا البيت للمعرى:

أقول لعبد الله لما سقاؤنا   ونحن بوادى عبد شمس وهاشم

فجعلا يفكران فيه، فنمت حتى أصبح ولم يجداه، فسألانى عنه، فقلت: معناه أقول لعبد الله لما وهى سقاؤنا ونحن بوادى عبد الشمس شم لنا برقا. قلت وفى جواز مثل هذا نظر(٢).

سمعت الآبلى يقول: دخل قطب الدين الشيرازى والدبيران على فضل

---

(١) نفح الطيب ٢٤٦/٥.

(٢) نفح الطيب ٢٤٦/٥.

الدين الخونجى ببلده - وقد تزيا بزى القونوية. فسأله أحدهما عن مسألة فأجابه، فتعايا عن الفهم. وقرب التقرير فتعايا، فقال الخونجى متمثلا:

على نحت[١] المعانى من معادنها وما على لكم أن تفهم البقر

فقال له: ضم التاء يا مولانا، فعرفهما فحملهما إلى بيته.

قلت: سمعت شمس الدين الأصبهانى بخانقاه قوصون[٢] بمصر يقول: إن شيخه القطب توفى عام أحد عشر وسبعمائة، وله سبع وسبعون سنة وهذا يضعف هذه الحكاية - عندى[٣].

سمعت الآبلى يقول إن الخونجى ولى قضاء مصر بعد عز الدين ابن عبد السلام، فقدم شاهدا كان عز الدين أخره. فعذله فى ذلك. فقال: إن مولانا لم يذكر السبب الذى رفع يده من أجله، وهو الآن غير متمكن من ذكره[٤].

سمعت الشيخ الآبلى يحدث عن قطب الدين القسطلانى أنه ظهر فى المائة السابعة من المفاسد العظام ثلاث: مذهب ابن سبعين، وتملك الكفار للعراق. واستعمال الحشيشة[٥].

سمعت الآبلى يقول: قال أبو المطرف بن عميرة:

فضل الجمال على الكمال بوجهه فالحق لا يخفى على من وَسَّطه

وبطرفه سقم وسحر قد أتى مستظهرا بهما على ما استنبطه

---

(١) فى الأصل: «جلب» والمثبت رواية نفح الطيب.

(٢) هذا الصواب من نفح الطيب، والذى فى المطبوع: «بخانقة قيسوم».

(٣) نفح الطيب ٥/ ٢٤٧.

(٤) نفح الطيب ٥/ ٢٤٧.

(٥) نفح الطيب ٥/ ٢٤٧.

عـجـبـا له برهانـه بشـروطه مـعه فـمـا مقـصوده بـالسفـسطه

قال: فأجابه أبو القاسم بن الشاط فقال:

علم التبـاين فـى النفـوس وأنهـا منهـا مـغـلطة وغـيـر مـغلطهْ

فـئـة رأت وجـه الـدليل وفـرقـة أصغت إلى الشبـهات فهى مورطهْ

فـأراد جـمـعـهـا مـعـا فى ملكه هذى بمـنتـجـة وذى بمغلـطهْ

يعنى قولهم فى التـام هو ما تحمل فى البرهان الفـصل. وأخبار الآبلى وأَسْمِعَتِى منه تحتمل كتابا، فلنقف على هذا القدر منها[1].

وأمـا النادرة، فأبو عـبـد الله محـمـد بن أحمـد بن شـاطر الجمـحى المراكشى.

صحب أبا زيد الهزميرى كثيرا، وأبا عبد الله بن تَجِلاَّت[2] وأبا العباس ابن البناء، وأضرابه من المراكـشيين ومن جـاورهم، ورزق بصحبة الصـالحين حلاوة القـول، فلا تكاد تجد من يسـتثقله وربما سئـل عن نفسه فيـقول: ولى مفسود[3].

قلت له يومـا: كيف أنت؟ فـقـال: محـبوس فى الروح وقـال: الليل والنهار حـرسيان، أحدهمـا أبيض، والآخر أسود، وقد أخـذا بمجامع الخلق يجرانهم إلى يوم القيامة وإن مردنا إلى الله. وسـمعته يقول: المؤذنون يدعون أولياء الله إلى بيته لعبادته، فلا يصدهم عن دعائهم ظلمة ولا شتاء ولا طين.

(١) نفح الطيب ٥/ ٢٤٧.

(٢) هذا الصواب فى نفح الطيب، والذى فى المطبوع: «تيجلات».

(٣) نفح الطيب ٥/ ٢٤٨.

ويصرفونهم عن الاشتغال بما لم يبن له؛ فيخرجونهم ويغلقون الأبواب دونهم[1].

ووجدته ذات يوم فى المسجد ذاكرا، فقلت: كيف أنت؟ فقال: ﴿...فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ⑮﴾ [الروم] فهممت بالانصراف، فقال: أين تذهب من روضة من رياض الجنة، يقام بها على رأسك بهذا التاج[2] - وأشار إلى المنار مملوءا: الله أكبر[3].

مر ابن شاطر يوما على أبى العباس أحمد بن شعيب الكاتب - وهو جالس فى جامع الجزيرة - طهره الله - وقد ذهبت به الفكرة، فصاح به، فلما رفع رأسه إليه، قال له: انظر إلى مركب عزرائيل هذا، وأشار إلى نعش هنالك - وقد رفع شراعه، ونودى عليه: الطلوع يا غزى[4].

وأكل يوما مع أبى القاسم عبد الله بن رضوان الكاتب جلجلانا، فقال لهم أبو القاسم: إن فى الجلجلان لضربا[5] من طعم اللوز، فقال: ابن شاطر: وهل الجلجلان إلا لوزة دقة؟ وسئل عن العلة فى نضارة الحداثة، فقال: قرب عهدها بالله، قيل له: فمم تغير الشيوخ؟ فقال: من بعد العهد من الله وطول الصحبة مع الشياطين، فقيل له: فَبَخَرُ أفواههم؟ فقال: من كثرة ما تفل الشياطين فيها: وكان يسمى الصغير فأر المصطكى.

---

(١) نفح الطيب ٥/٢٤٨.

(٢) هذا الصواب من نفح الطيب، والذى فى المطبوع: «الباجى».

(٣) نفح الطيب ٥/٢٤٨.

(٤) نفح الطيب ٥/٢٤٨.

(٥) فى المطبوع: «لطعما» والمثبت رواية نفح الطيب.

قال لى ابن شاطر: لقيت عمى ميمونا المعروف بدبير لقرب موته وقد اصفر وجهه. وتغيرت حاله فقلت ما بالك؟.

فقال لى انسدت الزربطانة(١) فطلع الخراء - يعنى العذرة. يشير إلى الاحتقان للطبيعة.

أنشدنى ابن شاطر قال أنشدنى أبو العباس بن البناء لنفسه.

قصدت إلى الوجازة فى كلامى لعلمى بالصواب فى الاختصار

فلم أحذر فهوما دون فهمى ولكن خفت إزراء الكبار

فشأن فحولة العلماء شأنى وشأن البسط تفهيم الصغار

وأخبار ابن الشاطر عندى تحتمل كراسة، فلنقنع بهذا القدر(٢).

فصل: ولما دخلت تلمسان على بنى عبد الواد تهيأ لى السفر منها، فرحلت إلى بجاية، فلقيت فيها أعلاما درجوا، فأمست بعدهم خلاء بلقعا.

فمنهم: الفقيه أبو عبد الله محمد بن يحيى الباهلى، عرف بابن المسفر. باحثته واستفدت منه. فسألنى عن اسم كتاب الجوهرى. فقلت له: من الناس من يقول: الصحاح بالكسر. ومنهم من يفتح، فقال: إنما هو بالفتح بمعنى الصحيح كما ذكره فى باب صح، قلت: ويحتمل أن يكون مصدر صح، وكتب لبعض أصحابه رسالة صدرها بهذين البيتين:

---

(١) فى هامش المطبوع: «الزربطانة: مجمع المياه القذرة يسد بزرب وشبهه وفى فاس حى يعرف اليوم بالزربطانة».

(٢) نفح الطيب ٥/٢٤٩.

وصلت صحيفتكم فهزت معطفى فكأنما أهدت كئوس القرقف

وكأنها نيل الأمانى لخائف أو وصل محبوب لصب مدنف(١)

ومنهم قاضيها: أبو عبد الله محمد بن الشيخ أبى يوسف يعقوب الزواوى.

فقيه ابن فقيه، كان يقول: من عرف ابن الحاجب أقرأ به المدونة، قال: وأنا أقرأ به المدونة(٢).

ومنهم أبو على حسين بن حسين، إمام المعقولات - بعد ناصر الدين(٣).

ومنهم: خطيبها أبو العباس أحمد بن عمران، وكان قد ورد تلمسان، وأورد بها على قول ابن الحاجب فى حد العلم: صفة توجب تمييزا لا يحتمل النقيض - الخاصة إلا أن يزاد فى الحد لمن قامت به، لأنها إنما توجب فيه تمييزا لا تمييزا، وهذا حسن(٤).

ومنهم الشيخان أبو عزيز، وأبو موسى بن فرحان وغيرهم من أهل عصرهم، ثم رحلت إلى تونس، فلقيت بها قاضى الجماعة وفقيهها، أبا عبد الله بن عبد السلام، فحضرت تدريسه، وأكثرت مباحثته، ولما نزلت بظاهر تلقائى رجل من الطلبة، فسألنى عن هذه الآية: ﴿... وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ... (٦٧)﴾ [المائدة] فإن ظاهرها أن الجزاء هو الشرط - أى: وإن لم

(١) نفح الطيب ٥/ ٢٤٩.

(٢) نفح الطيب ٥/ ٢٥٠.

(٣) نفح الطيب ٥/ ٢٥٠.

(٤) نفح الطيب ٥/ ٢٥٠.

تبلغ، فما بلغت، وذلك غير مفيد، فقلت: بل هو مفيد - أى: وإن لم تبلغ فى المستقبل، لم ينفعك تبليغك فى الماضى، لارتباط أول الرسالة بآخرها، كالصلاة ونحوها، بدليل قصة يونس، فعبر بانتقاء ماهية التبليغ عند انتقاء المقصود منه، إذ كان إنما يطلب له ولا يعتبر بدونه، كقوله عليه السلام: لا صلاة إلا بطهور[1].

ثم اجتمعت بابن عبد السلام بجامع بتونس، فسألته عن ذلك، فلم يزد على أن قال هذا مثل قوله عليه السلام، فمن كانت هجرته إلى الله - الحديث. وقد علمت ما قال الشيخ تقى الدين فيه. قلت: كلام تقى الدين لا يعطى الجواب عن الآية - فتأمله[2].

وقاضى المناكح أبا محمد الأجمى - وهو حافظ فقهائها فى وقته، والفقيه أبا عبد الله بن هارون، شارح ابن الحاجب فى الفقه والأصول، والخطيب أبا عبد الله بن الستار، وحضرت تدريسه بمدرسة المعرض. والعلامة أبا عبد الله بن الجياب الكاتب والفقيه أبا عبد الله بن سلامة. والشيخ الصالح أبا الحسن المنتصر. وارث طريقة الشيخ أبى محمد المرجانى. آخر المذكورين بإفريقية[3].

ورأيت ابن الشيخ المرجانى فحدثنى أبو موسى بن الإمام - أنه أشبه به من الغراب بالغراب![4].

---

(١) فى المطبوع: «قسطنطينة» والمثبت رواية نفح الطيب.

(٢) نفح الطيب ٥/ ٢٥٠.

(٣) نفح الطيب ٥/ ٢٥١.

(٤) نفح الطيب ٥/ ٢٥١.

وسيدى أبا عبد الله الزبيدى المتقدم ذكره، وأوقفنى على خطأ فى كتاب الصحـاح وذلك أنه زعم أن السالم جلدة ما بين العـينين والأنف، قال: ومنه قول ابن عمر فى ابنه سالم - رضى الله عنه:

يديـرونني عن ســـالم وأديـرهـم   وجلدة بين الـعـين والأنف سـالم

قـال: وهذا أراد عـبد الملـك - حيث كـتب إلى الحـجـاج: أنت منى كسالم، وهذا خطـأ فاحش، وكان يلزمه أن يسمـيها بالعمـارة أيضا لقوله - عليه الصـلاة والسلام: عمارة جلدة مـا بين عينى وأنفى، وإنما المراد بمثل هذا القرب والتحمد[١].

ولقيت بتونس غير واحد من العلماء والصلحاء يطول ذكرهم، ثم قفلت إلى المغرب يسـايرنى رجل من أهل قسنطينة[٢] يعرف بمـنصور الحلبى، فـما لقيت رجـلا أكثر أخبـارا ولا أظرف نوادر منه، فممـا حفظته من حـديثه أن رجلا من الأدباء، مر برجل من الغرباء، وقد قام بين ستة أطفال، جعل ثلاثة عن يمينه، وثلاثة عن شماله، وأخذ ينشد:

ما كنت أحـسب أن أبقى كذا أبدا   أعـيش والدهر فى أطرافـه حـتف

ســاس بســـتــة أطفــال تـوسطهم   شخصى كأحـرف ساس وسطها ألف

قال: فـتقدمت إلـيه وقلت: وأين تعريقـة السين؟ فـقال: طالب ورب الكعبـة، ثم قال للآخـر من جهة يمـينه: قم فقـام يجر رجله كـأنه مبطول، فقال: هذا تمام تعريقة السين[٣].

---

(١) نفح الطيب ٥/ ٢٥١.

(٢) فى المطبوع: «القسطنطينة» والمثبت رواية نفح الطيب.

(٣) نفح الطيب ٥/ ٢٥٢.

ثم رحلت[1] من تلمسان إلى المغرب، فلقيت بفاس الشيخ الفقيه الحاج أبا إسحاق إبراهيم بن عبد الله بن عبد الرحيم اليزناسنى والشيخ الفقيه أبا محمد عبد المؤمن الجاناتى، والشيخ الفقيه الصالح: أبا زرهون عبد العزيز بن محمد القيروانى، والفقيه أبا الضياء مصباح بن عبد الله اليالصوتى وكان حافظ وقته، والفقيه أبا عبد الله بن عبد الكريم، وشيخ الشيوخ أبا زيد عبد الرحمن بن عمران الجزولى، والأستاذ أبا العباس المكناسى، وكنت لقيت الأستاذ أبا العباس ابن حزب الله، والأستاذ أبا عبد الله محمد بن القصار بتلمسان، ولقيت غير هؤلاء ممن يكثر عددهم[2].

وكنت لقيت بتازى الفقيه أبا عبد الله بن عطية، والأستاذ ابا عبد الله المجاصى. والأستاذ أبا الحسين الجيار[3]. وغيرهم.

ثم بلغت بالرحلة إلى أغمات، ثم وصلت إلى سبتة، فاستوعبت بلاد المغرب، ولقيت بكل بلد من لابد من لقائه من علمائه وصلحائه، ثم قفلت إلى تلمسان فأقمت بها ما شاء الله، ثم أعملت الرحلة إلى الحجاز، فلقيت بمصر الأستاذ أثير الدين أبا حيان الغرناطى، رويت عنه واستفدت منه، وشمس الدين الأصبهانى الآخر، وشمس الدين بن عدلان، وقرأ على بعض شرحه لكتاب المازنى، وناولنى إياه. وشمس الدين بن اللبان آخر المذكورين بها، والشيخ الصالح أبا محمد المنوفى فقيه المالكية بها، وتاج الدين التبريزى الأصم، وغيرهم ممن يطول ذكرهم[4]، ثم حججت، فلقيت بمكة إمام الوقت[5]

(١) فى المطبوع: «دخلت» والمثبت رواية نفح الطيب.

(٢) نفح الطيب ٥/٢٥٢.

(٣) هذا الصواب من نفح الطيب، والذى فى المطبوع: «أبا الحَسَن الجبار».

(٤) نفح الطيب ٥/٢٥٣.

(٥) هذا الصواب من نفح الطيب، والذى فى المطبوع: «أبا الموقف».

أبا عبـد الله محمـد بن عبد الرحـمن التوزرى المعروف بخليل، وسـألته يوم النحر حين وقـفت بالمشعر الحرام عن بطن محسر لأحرك فيه الجـمل، فقال لى: تمالأ الناس على ترك هذه السنة حتى نـسى بتركها محلـها، والأقرب أنه هذا – وأشار إلى مـا يلى الجابية التى على يسار المار من المشـعر إلى منى من الطريق من أول ما يـحاذيها إلى أن يأخـذ صاعدا إلى منـى، وما رأيت أعلم بالمناسك منه، والإمـام أبا العبـاس رضى الدين الشـافعى، وغـير واحـد من الزائرين والمجاوريـن وأهل البلد. وبالمدينة – أعجـوبة الدنيا أبا محـمد عـبد الوهاب الجبرتى وغيره[1].

ثم أخذت على الشـام، فلقيت بدمشق شمس الدين بن قـيم الجوزية – صاحب الفـقيه ابن تيـمية، وصـدر الدين الغمارى المالـكى، وأبا القاسم ابن محـمد اليمـانى الشافعى وغـيرهم، وببيت المقـدس الأستاذ أبا عـبد الله ابن مثبت، والقاضى شمس الدين بن سالم، والفقيه المذكر أبا عبد الله ابن عثمان وغيرهم[2].

ثم رجـعت إلى المغرب فـدخلت سـجلماسـة ودرعـة، ثم قطعت إلى الأندلس فدخلت الجبل وأصطبونة ومربلة ومـالقة وبلش والحامة، وانتهت بى الرحلة إلى غرناطة، وفى علم الله ما لا أعلم، وهو المسئول أن يحملنا على الصراط الأقوم، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم – انتهى ما قصدناه من رحلة أشهـر أسلافنا الإمـام القاضى أبى عبـد الله المقرى – رحـمه الله – ذكرته بطولة لما فيه من الفائدة[3].

---

(١) نفح الطيب ٥/ ٢٥٣.

(٢) نفح الطيب ٥/ ٢٥٤.

(٣) نفح الطيب ٥/ ٢٥٤.

وقد أَلَمَّ بذكـر هذا الشيخ المَقَّـرِى - رحمـه الله تعالى - العـلامة ولى الدين بن خلدون[1] - رحمـه الله - فى تاريخه الكبـير، وقال فـيه إنه كبـير العلماء بالمغرب، وذلك عندما عرف بنفسـه آخر التاريخ، ونص محل الحاجة منه: ولما رحلت من تونس منتصـف شعبان من سنة أربع وثمـانين، أقمنا فى البحر نحوا من أربعين ليلة، [ثم] وافـينا مرسى الإسكندرية يوم الفطر ولعشر ليال من جلوس الملك الظاهر - على التخت، واقـتعاد كرسى الملك دون أهله بنى قـلاوون، وكنا على ترقب ذلك لما كـان يؤثر بقاصـية البـلاد من سمـوه لذلك وتمهيده له، وأقـمت بالإسكندرية شهرا لتهيئ أسـباب الحج، ولم يقدر عامـئذ، فـانتقلت إلى القاهـرة من أول ذى القعدة، فـرأيت حضـرة الدنيا، وبستـان العالم، ومـحشر الأمم، ومـدرج الذر من البشـر، وإيوان الإسلام، وكرسى الملوك، تاج القـصور والأواوين فى أوجـه، وتزهو الخوانق والمدارس بآفاقه، وتضىء البدور والكواكب من عليائه، وقـد امتلأ بساط بحر النيل نهر الجنة، ومدفع مـياه السمـاء، يسقـيهم النهل والعلل بسـيحه، ويجـبى إليهم الثـمرات والخـيـرات بثجـه، ومـررت فى سكك المدينة تغص بزحـام المارة. وأسواقها تزخر بالنعم، وما زلنا نحدث عن هذه البلدة وبعد مداه فى العمران واتساع الأحـوال، وقد اخـتلفت عبـارات من لقيناه من شـيوخنا وأصـحابنا بفاس، وكـبير العلمـاء بالمغرب أبا عبـد الله المقرى، فقلت له: كـيف كانت القاهرة؟ فقال: من لم يرها لم يعرف عز الإسـلام، فسألت شيخنا أبا العباس ابن إدريس كبير العلماء ببجاية، فـقال. كأنما انطلق أهله من الحساب - يشير إلى كثـرة أممه وأمنهم العواقب. وحـضرت صاحـبنا قاضى العـسكر بفاس، الفقـيه الكاتب أبا القاسـم البرجى بمجلس السلطان أبى عنان - منصـرفه من السفـارة عنه إلى ملوك مصر وتأدية رسـالته النبوية إلى الـضريح الكريم سنة

(١) نقله المؤلف بنصه فى نفح الطيب ج٥ ص ٢٥٤ وما بين الحاصرتين منه.

خمس وخمسين، وسألته عن القاهرة فـقال: أقول فى العبارة عنها على سبيل الاختصار - الذى يتخيله الإنسان، إنما يراه دون الصورة التى يتخيلها، لاتساع الخيال عن كل محـسوس، إلا القاهرة، فإنها أوسع من كل ما يتخـيل فيها، فأعجب السلطان والحاضرون بذلك انتهى.

وصلى الله على سيـدنا ومولانا مـحمد وآله وصـحبه وسلم تسليـما، والحمد لله رب العالمين.

* * *

٨ - روضة النيلوفر، فى ثناء الناس عليه وذكر بعض مناقبه التى هى أذكى من المسك الأذفر

أقول: لا سبيل إلى حصر ثناء الناس على هذا الإمام. ولكن لابد من الإلماع بالنزر اليسير والإلمام.

قال القاضى أبو البركات بن الحاج البلفيقى - رحمه الله: لما قدم أبو الفضل عياض على قرطبة، ولقى أبا الوليد بن رشد. ورأى نبله وفضل ذكائه قال: عجبا لرجل ينشأ فى البلاد البحرية على أكل السمك من أين يكون له هذا النبل والذكاء، قال: فبلغ كلامه القاضى أبا الفضل فقال: والله ما أكلت سمكا منذ عقلت. انتهى.

قال بعض الأشياخ: يريد - والله أعلم - منذ عقل أضرار السمك بالحفظ وتبليده للذهن - والله أعلم.

وهكذا ذكر غير واحد. وسمعت فى بعض المجالس العلمية ما فيه بعض مخالفته لهذا، وهو أن ابن رشد كتب إلى القاضى عياض، عجبا - ولم يزد على هذه اللفظة شيئا. فأجابه القاضى عياض بقوله: والله قط - ولم يزذ فلم يفهم الناس، فسألوا ابن رشد فقال: أردت بقولى عجبا: عجبا لرجل ينشأ فى البلاد البحرية إلى آخره. وأراد أبو الفضل عياض بقوله: والله قط - أنه لم يأكله قط. غير أنى لم أر ذلك على هذا الوجه منصوصا. وإنما هو شيء سمعته.

وأما الوجه الأول. فذكره ابن خاتمة وأبو البركات وغير واحد - والله أعلم.

وقـال ولده: أخبـرنى ابن عـمى الزاهد، أن القـاضى أبا عبـد الله بن حـمدين كـان يقول له - وقت رحلتـه إليـه - وحقى يا أبا الفـضل إن كنت تركت فى المغرب مثلـك! وقال: وأخبرنى أن أبا الحسـين بن سراج قال له - وقد أراد الرحلة إلى بعض الأشـياخ - لهو أحوج إليك منك إلـيه. وقال إن الفقيه أبا محمد بن أبى جعفر قال له: ما وصل إلينا من المغرب مثل عياض.

قال ابن الخطيب - رحـمه الله - ومثل هـذا كثيـر - يعنى ثناء الأعلام على القاضى عياض - رحمه الله.

وحكى غـيـر واحـد منهم: ابن جـابـر الوادى آشى - أن القـاضى أبا الفضل. لما ألف كـتاب الشفا. أوقف عليـه شيخه الإمـام الحافظ أبا بكر بن العـربى - رحمـهـما الله تعـالى، فـقال له: بارك الله فـيك يا أبا الفـضل، واستحسنه جـدا! وأثنى عليه الناس سواه، وما أحسن قـول الإمام أبى عمرو المالقى - رحمه الله يمدح القاضى أبا الفضل عياضا.

ظلمـوا عيـاضـا وهو يحلم عنهم　　والظـلم بين الـعـالمـين قـديم
جعلوا مـكان الراء عينا فى اسـمه　　كى يكـتـمـوه وإنه مـعـلوم
لولاه مـا فـاحت أبـاطح سـبـتـة　　والروض حـول فنائـهـا مـعـدوم

قلت: تذكـرت هنا من هذا المعنى، مـا كتب إلى بـه صاحـبنا الكاتب البليغ، جـام أشتات الآداب، سـيدى محـمد المكلاتى فى شـأن هذا الكتاب الموسم بـ «أزهار الرياض فى أخبار عياض» ونصه:

أتى برياض فـى عـيـاض وردها　　مظالم كـانت قـبل مـعـضلة الداء
وفـاضت بـنيل العلم منـه أصـابع　　فـلا تنكرن نبـع الأصـابـع بالماء

خليلى هذى معجزات لأحمد ... فلا تعجبن إن رد عينا إلى الراء

ووصل هذه الأبيات بنثر نصه: تأملت ما سطره سيدنا - لا زال قلمه فرعا يشمل بظله، ويتصرف فى ثناء الثناء بمعرفته وعدله - فرأيت الكواكب الوقادة تهاوت بهذا الرياض، وسالت به المجرة نهرا فراقت منها الخلجان والحياض، فسجد لك الكلام واقترب، وبايعتك رعايا المعانى منشدة "فسمعا لأمر أمير العرب «والسلام» انتهى.

ولاخفاء أنه أشار بالبيت الأول إلى معنى أبيات المالقى الثلاثة، ثم أتى فى البيت الثانى والثالث بالعجب العجاب حسبما يدركه من له أدنى تعلق بالبلاغة، وما رأيت ولا سمعت قط بمثل هذا الاتفاق الذى اتفق له فى هذين البيتين، لا سيما قوله: إن رد عينا إلى الراء، على أن مثل هذا ليس فيه إلا ترفيع قدر النبى - ﷺ، والإشارة إلى بعض معجزاته الشهيرة على طريق التلميح، لا كما توهمه بعض الأغمار مما لا يليق ذكره - والأعمال بالنيات.

وللفقيه الأديب الماهر، أبى محمد محارب بن محمد بن محارب الوادى آشى يمدح القاضى عياضا أثناء مقامه من إنشائه:

غدا سلس القياد فما يراض ... وعم جميع لمته البياض

وأضحى القلب لا تصيبه هند ... ولا سلمى ولا الحدق المراض

ولا يشجعه طيب نسيم نجد ... ولا تسليه بالزهر الرياض

وأن غنى الحمام بغصن أيك ... فمن عض الزمان به عضاض

وقائله: أتكرع فى ثماد ... وقد لاحت لرائدها الحياض

إلى كم ذا تقول لكل خطب ... مقالة من ألم بها المخاض

وتنقبض انقباض العى حتى | أضر بك السكون والانقباض
ووجد بنى عياض بالمعالى | مدى الدنيا حديث مستفاض
إذا قصدوا أثاروا الجود بحرا | وسالوا بالمكارم ثم فاضوا
فقلت لها: ومن منهم عياذى | فقالت: ذاك سيدهم عياض
إمام زانه علم وحلم | له بالخطة العليا انتهاض
يقارض من أساء بحسن صبر | وأمر الدين والدنيا قراض
ففى الآداب جدول ماء مزن | وفى الآراء بحر لا يخاض
ويبرم ما يروم فليس يخشى | على أمر إن أبرمه انتقاض
يهيم بكل معلوة وفضل | كما قد هام بالعليا مضاض
ومن تعلق حبال بنى عياض | يداه فلا يضام ولا يهاض

وإذا تتبع هذا الباب، وقفت دون بلوغ مداه الألباب.

وأما مناقب الإمام أبى الفضل عياض - رحمه الله - فكثيرة، وكلها دال على ما له فى الرتبة الدينية من المزية الأثيرة، فمن ذلك ما حدث به المشيخة عن بعض الصالحين. قال: رأيت القاضى أبا الفضل - بعد موته فى المنام - وهو فى قصر عظيم جالس على سرير قوائمه من ذهب. قال: فكان يسألنى عن مسألة. فأقول له: يا سيدى، ذكر فيها فى كتابك الموسوم بـ «الشفا» كيت وكيت. قال: فكان يقول لى: أعندك ذلك الكتاب؟ فأقول له: نعم، فيقول لى: شد يدك عليه، فبه نفعنى الله وأعطانى ما تراه.

وحدث بعضهم قال: رأيت القاضى أبا الفضل فى النوم إلى جانبه رجل

طيب الرائحة، جميل الصورة، حسن الثياب - كصفة النبى ﷺ، قال الرائى: فكنت أقصد إلى سيدى عياض فأسلم عليه، فكان يقول لى: سلم على هذا فأقول له: من هذا؟ فيقول لى: هذا هو الذى نفعنى الله به.

نقلت هاتين المنقبتين من خط الشيخ الإمام أبى عبد الله سيدى محمد ابن صعد التلمسانى رحمه الله، وأظن أنه نقل ذلك عن الإمام الرحلة أبى عبد الله بن رشيد الفهرى - والله أعلم.

ومن مناقب عياض، ما رأيت بخط ابن صعد التلمسانى المذكور، ونصه: حدثوا عن عياض أنه لما توفى والده - وكان من عباد الله الصالحين. وخيار أهل العلم - ترك موروثا عنه سبعة عشر ألفا من الذهب، فتنزه عنها القاضى أبو الفضل، وتركها لأخيه - مع علمه بطيب مكسب والده، ونزاهته. انتهى.

ومن مناقبه - رحمه الله - ما ذكره السيد الفقيه أبو الحسن الوضاحى - رحمه الله فى كتابه - أن أحد الملوك رُئى فى منامه - بعد موته فى القيامة، والنار تسوق الناس إلى المحشر، وهو فى حالة حسنة، وثياب حسان، يقول الرائى: لا أقدر أن أصف حسن ثيابه، فكلما همت النار أن تلحقه أو تقرب إليه، مد إليها يده، فترجع النار عنه مسيرة خمسمائة عام، فقلت له: ماهذا؟ فقال: كنت فى الدنيا قد كتبت الشفا لعياض وحبست عليه، وكسوت عليه شرين كسوة فى كل سنة كسوة للقارئ. فلما وقفت بين يدى ربى، أمر بى إلى النار، فأنا كلما همت النار بى مددت إليها يدى، فترجع النار - كما ترى - عنى، وكسانى بكل كسوة عشرين ألف حلة من حلل الجنة، فقلت له: وما تنتظر؟ فقال: وهل تكون فى النار ثياب الجنة؟ قلت: فادخل الجنة، قال:

الرســول - ﷺ - يشفع لى ويـجازى عنى أصـحاب المـظالم والحقـوق التى وجـبت على للناس، فحـينئـذ أدخل الجنة - لأنه حرام على أحـد أن يدخل الجنة ولأحد عليـه مظلمة حتى يشـفع فيها - انتـهى. من خط بعض الأعلام من تلاميذه الشيخ ابن غازى - رحمه الله.

وحكى أن بعض الملوك كان مـسرفا على نفسه فى الـلهو وما لا يرضى الله، فرفعت إليه رقـعة فيها مكتوب: «حتى مـتى وإلى متى من هذا اللهو - والموت يطلبك»؟ فـأعـرض عن ذلـك مـدة، ثم رجع وندم، وشـاور بعض خواصـه فى وجه الخلاص، فدل على بعض صلـحاء وقته، فلمـا شكا إليه، قال له: مـا أرى أفضل من خـدمة الرسـول - ﷺ، فقال له: وبـأى وسيلة أتقرب إليه - وأنا بعيد من طريقته؟ فقـال له: بكتاب الشفا للقاضى عياض، ومن هناك يقع الصلح بينك وبين الرسـول - ﷺ، فمن ذلك اشتغل بنسـخه والعطاء عليه، وكان يقـرأه دائما، ورتب فى مجلسه قـارئا له، فظهرت عليه آثار القـبول والمحبـة شيـئا بعـد شىء فى باطنه، واسـتنار من فيض حـبيـبه وشفيعه، وكبر شأن ملـكه، وهادته الملوك بحسن نيته - إذ الأعمال بالنيات، ورأى الرسول - ﷺ - فى المنام، وأخـبره بأمـور من الغيب، وأمره بأشـياء امتثلها، وكان يقول: ذلك كله من بركة الشفا لعياض، نقلته ملخصا من خط من ذكر. ونقلت من خطه أيضا - مانصه: وقد تكرر السماع من علماء فاس - ولا سيـما من السيد القـدوة أبى عبد الله بن غازى - رحـمهم الله - أنهم قالوا: رأى بعض صلحاء فاس - نفع الله بهم - فى المنام - السلطان أبا عنان وهو بحالة حـسنة وثياب حسان، فـقال له: ما فعل الله بك؟ قـال: غفر لى وأدخلنى الجنة، فقال له: وبم ذلك؟ قال: بتحبيسى على قراءة الشفا للقاضى

عياض بمساجد فاس، غفر الله لى وضمن عنى الحقوق، وهنا رجاء عظيم، وذلك قليل فى حق المصطفى - ﷺ - انتهى.

قلت: رأيت بخط الفقيه القاضى، الكاتب الرحال: أبى إسحاق إبراهيم ابن الحاج النميرى - رحمه الله - فى تاريخ له بعد الكلام - ما نصه: ثم ولى بعده ابنه المتوكل على الله أبو عنان - وهو الذى تميز بأمير المؤمنين من بنى مرين - وحده، وتلقب المتوكل، وهو الجامع لكمالات الملوك والمنفرد بما لم ينفرد به أحد منهم، وكان محبا فى العلم وأهله، يحصل المسائل العلمية، ويطالع الكتب ليله أجمع، لم تهزم له قط راية، وخلد آثارا عظيمة، وبنى بكل بلدة من بلاده - زاوية لإطعام الطعام، ولم يكن له قصد إلا فى تحصيل الأجور، واكتساب المحامد والمعالى، ورُئى فى النوم فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال: غفر لى وأدخلنى الجنة، فقيل له: بصدقاتك؟ قال: لا، رجع كل ذلك إلى أربابه، وإنما نفعنى قراءتى سورة الأنعام فى كل ليلة، ورآه بعضهم أيضا فقال له: كيف حالك؟ فقال: أنا فى أتم النعم، وأكمل الخيرات بمحبتى فى آل رسول الله - ﷺ - انتهى.

وقد يجمع بين هذه الأشياء بأن جميعها حصلت به المغفرة - وفضل الله واسع، نسأله - سبحانه - أن يمن علينا بالرضوان، ويقينا فى الدارين مسالك الذل والهوان، بجاه سيدنا محمد - ﷺ.

ومن فضائل الشفا ما وقفت عليه لبعض أعلام المتأخرين من أهل فاس فى كتاب له يخاطب به السلطان الوطاسى. ونص محل الحاجة منه، ومن فضائل الشفا، مما اتفق فى زمننا هذا - وهو ما أبرزه الله فى وجهتك العجيبة، وإيالتك السعيدة - فأصبحت النفوس منشرحة يوم الخصلة المأثورة،

وغنيمة المعمـورة وذلك أن السيد الفقيه، المبارك الصالح، سـيدى عبد العزيز اللمطى رحمه الله ورضى عنه رأى فى منامه فى عـام عشرين من هذ القرن، كأن دخل القرويين، فوجد فى وسط الجـامع جمعا من الناس - وهم يطلبون الله - قال: وإذا برجل داخل على الباب الشرقى المدرج وبيـده مصباح، فلما دخل واجتـمع مع الناس، صار يقلع حـصر المسجـد قال: وإذا برجل داخل على الباب المذكـور لوجهه نور، أضـاء منه المسجد على برنس أبيض، فـقال قائل للناس: هذا رسـول الله - ﷺ - قد جاء فـأتى الناس للقائه، فـسلموا عليه، فدخل حتى أتى الصف الذى فيه الكرسى الذى أنا أقرأ عليه الشفاء ثم جاء إلى ناحية الكرسى، حتى وصل إليه، قال سيدى عبد العزيز - رحمه الله - وأنا على الكرسى أقول: قال الشـيخ الفقيه القاضى عيـاض، قال الرسول عليـه - الصلاة والسـلام - نعم، أحسن عـياض، أحـسن عياض، أحـسن عيـاض! ثم جلس مع الناس فى المجلس، فلما فرغت من القـراءة، شرعت فى الدعاء، ونصب الرسول - ﷺ - يديه، فلما فرغت - يـقول سيدى عبد العـزيز - أتيت رسول الله - ﷺ، وقـبلت يديه، وجـعل يده الكريمـة على كتـفى، ثم قـال الرسول - ﷺ - لسـيدى عـبد العـزيز: لم أنت تكره هذا القارئ؟ ألـم تعلم أنه يحبنى ويكثـر من الصلاة على؟ قـال: قلت: أنا تائب لله، قال: قل: أستغفر الله. فقلت: أستغفر الله، قال: قلت: يا رسول الله، أما ترى ما نحن فيه فى هذا الغـرب من الغفلة؟ قال: قل لهذا المحب القارئ يقرأ الشـفا فى مقام هـذا الشيخ أربعين أربعـاء، ولابد من النصر بإثر ذلك، قلت: ومن هذا الشيخ؟ قـال: أبو جيدة، ثم قال أشـياء أخرى، قال سـيدى عبد العزيز للقارئ: أحمد الله - تعالى - أن خصك الرسول - ﷺ - بقراءة أوصافه، فـشرعت فى القراءة فى مقـام الولى المذكور، فلما كـان آخر أربعاء

منها - وأنت يـاعين الزمان أعطاك الله النـصر والتمكن والأمـان بالناس على المعـمورة، فكانت هزيـمة الروم يوم الأحـد، فكان بين التـمام والنصـر يوم الخميس والجمـعة والسبت وصدق الله قول سيدى عبـد العزيز - رحمه الله، وذلك من بركة الشـفا المبارك، وبسـعادة أيامك - والحمد لله - أسـعدك الله ونفعنا وإياك بالشفا آمين - انتهى بحروفه.

وكتب بعضهم إلى الأمير على بن يوسف الوطاسى - يزعم أنه رآه يقرأ كتاب الشفا فى الجامع، فأول ذلك الوطاسى بالصدقة، لكونها شفاء.

قال صاحب «الروض الأنف، فى مـآثر على بن يوسف»: وهذه مناسبة حسنة جدا - انتهى.

وحدث الشيخ أبو محمد بن الصـائغ، أنه رأى القاضى عياضا فى النوم فى قـصر قـوائمه من ذهب، قـال: فكان يسـألنى عن مسـألة، فأقـول له: سيدى، ذكـرت فيها فى كتـاب الشفا كذا، فيـقول لى: عندك ذلك الكتاب؟ فأقول له: نعم، فيقول لى: شد عليه، فبذلك نفعنى الله - أو نحو هذا.

قال الراوى عـن ابن الصائغ المذكـور: قال لى أبو مـحمد بن الـصائغ المذكور: قد أخبرت بهذه الرؤيا ابن عـمك أبا عبد الله، فقال لى: رأى إنسان - لا أدرى أعن نفسه كنى أم عن غيره - أنه كان يرى الشيخ - رضى الله عنه - فى النوم، وإلى جانبه رجل طيب الرائحة، حـسن الملبس، جميل الصورة كهيئـة النبى - ﷺ، قال الراوى فكنت أقوم إلى الشيخ فأسلم عليـه، فيقول لى: سلم على هذا، فأقول: ومن هو؟ فـيقول لى: هذا الذى نفعنى الله به، أو نحو هذا - انتهى.

وقد قدمنا عن ابن صعد مثله، وكررته لأن هذا أتم فائدة مع ما فيه من

تسمية الرائى وغير ذلك، على أن ابن صعد، جعلهما حكايتين مختلفتين، وهذا جعلهما - حكاية واحدة - حسبما لقيته على نسخة عتيقة من الشفا، عليها خط جماعة من الأعلام - والله أعلم.

ومن مناقب الإمام القاضى أبى الفضل عياض، الداخلة فى أعمال بره، إقامته الحد على الفتح بن عبيد الله صاحب القلائد، وذلك أنه قصد مجلس قضائه - مخمرا، فتنسم بعض شهود المجلس منه رائحة الخمر، فأعلم القاضى بذلك، فأمر به، فاستثبت فى استنكاهه وحده حدا تاما. وقد حكى هذه المنقبة أبو عبد الله بن عياض، وعن نقلها صاحب المعيار، ونص ما تعلق به الغرض من كلامه فى ذلك، وفى بعض تواريخ الأندلس، أن رجلا كان مع حمدين وابن رشد - حين كان يتعلمان العلم، فارتفع ابن حمدين حين بلغ القضاء والفتيا، وابن رشد كذلك، وخرج هذا الرجل متخلفا، فرفعته العامة أيام قضاء ابن حمدين، وذكروا له أنه شرب الخمر، فلما وقعت عينه عليه، قال له: يا شيخ، إنك أحمق؟ فقال الرجل: ما يعرفنى غيرك، فأمر بإرساله من أيديهم، ثم أخذوه ثانية، وذكروا أنهم وجدوه - ومعه الخمر، فقال: ما شأنك أيها الشيخ؟ فقال له: يا أخى، فساد الزمان، ومخافة الإخوان، ومعاداة العوام، هذا شأنى: فقال لهم: أعرف هذا مجنونا، أرسلوه، فقال بعضهم لبعض: إن هذا القاضى لا يمكنكم منه، اقطعوا مادته، وكان له حمام وعتبة أخرى يستغلهما. فأتوا إليهما فهدموهما، وحملوا جميع أنقاضهما وترابهما، وبقيتا عرصتين كأنهما ما عمرا قط، وقطعوا مادته من قطع معاشه، وهذا من نحو العفو عن شارب الخمر، لقوله - عليه السلام - أقيلوا ذوى الهيئات زلاتهم. أخرجه ابن أبى شيبة والنسائى.

وهو محمول على الندب، وقد يحتمل الوجوب، وهذا عكس ما اتفق للقاضى الفاضل، أبى الفضل عياض - رحمه الله - وهى من نوادره التى اضطره الشرع إليها، إقامته حد الخمر على الفتح بن خاقان، وذلك أنه قصد إلى مجلس قضائه مخمرا، فتنسم بعض شهود المجلس منه رائحة الخمر، فأعلم القاضى بذلك، فأمر فاستثبت فى استنكاهه، وحده حدا تاما.

قال ولد القاضى - محمد بن عياض: قال لى بعض أصحابنا، بعث أبوك إلى الفتح بن خافان بعد أن أقام عليه الحد - صحبتى - ثمانية دنانير وعمامة.

وأخبرنى بعض أصحاب الفتح بن خاقان، أن الفتح قال له - بعد أن أقام عليه والدى الحد - عزمت على إسقاط اسم القاضى أبى الفضل من كتابى الموسوم بـ «قلائد العقيان»، قال: فقلت: لا تفعل وهى نصيحة، قال لى: وكيف ذلك؟ قال: فقلت له: قصتك معه من الجائز أن تنسى وأنت تريد أن تخلدها مؤرخة، فقال لى، وكيف؟ فقلت له: كل من نظر فى كتابك، يجدك قد ذكرت مثله ودونه في العلم والصيت، فيسأل عن السبب، فيقال له، فيتوارث العلم بذلك الأصاغر عن الأكابر، قال: فتبين له ذلك وعلم صحته - انتهى.

قلت: وقريب[2] مما وقع لابن حمدين، حكى عن القاضى أبى عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي عيسى، قاضي الجماعة بقرطبة لعبد الرحمن الناصر، قال القاسم بن محمد كاتبه - أيام قضائه بإلبيرة - ركبنا مع القاضى فى موكب حافل من وجوه البلد، إذ عرض لنا فتى متأدب قد خرج من بعض

(١) هذا المثبت هو الصواب، والذى فى المطبوع: «خافان» بالفاء.

(٢) المرقبة العليا ص ٦١.

الأزقة يتمايد سكرا، فلما رأى القاضى هابه، وأراد الفرار، فخانته رجلاه، فاستند إلى الحائط وأطرق، فلما قرب منه القاضى، رفع رأسه إليه ثم أنشأ يقول:

ألا أيها القاضى الذى عم عدله ... فأضحى به فى العالمين فريدا

قرأت كتاب الله ألفين مرة ... فلم أر فيه للشراب حدودا

فإن شئم جلدى فدونك منكبا ... صبورا على ريب الخطوب جليدا

وإن شئت أن تعفو تكن لك منة ... تروح بها فى العالمين حميدا

وإن كنت تختار الحدود فإن لى ... لسانا على هجو الرجال حديدا

قال: فلما سمع القاضى شعره، وتبين له أدبه، أعرض عنه ومضى لشأنه - كأن لم يره - انتهى.

قال القاضى أبو الحسن[1] النباهى، الظاهر من القاضى ابن أبى عيسى، أنه ذهب إلى الأخذ فى القضية التى تضمنتها أبيات الفتى المتأدب بقول زفر: إنّ حد الخمر لا يقوم بالإقرار مرة واحدة، حتى يقر الشارب على نفسه بالشرب مرتين. أو بقول الشافعى والكوفى[2]: أنه لا يحد إلا من الشهادة على شربها أو قيئها، لا من الرائحة وتخيل السكر، أو ظن القاضى أن الفتى ممن لم يبلغ سن التكليف، أو قيل له عنه إنه كان مكرها، وحسب النازلة من باب درء الحدود بالشبهات - والله أعلم أى ذلك كان، فلا وجه لحكم فى إسقاط حد لغير عذر ولا تأويل، فإجماع المسلمين، منعقد على تحريم خمر

---

(١) تحرف فى المطبوع إلى: «ابن» وصوابه من المرقبة العليا.

(٢) فى المرقبة ص ٦١: «والكافى».

العنب النيئ قليله وكثيره، وعلى وجوب الحد فيه، وإنما الخلاف فى التفضيل والقدر، فمذهب الجمهور من السلف والفقهاء، مالك وأبى حنيفة والثورى والأوزاعى وأحمد وإسحاق وغيرهم، أن حده ثمانون جلدة. وقال قوم - منهم أهل الظاهر: أن حده أربعون. قال الشافعى: بالأيدى والنعال، وأطراف الثياب، وعند مالك وغيره، الضرب فيه بسوط بين سوطين، وضرب بين ضربين، والحدود كلها سواء. وعند الزهرى والثورى وإسحاق وأحمد والشافعى، أن حد الخمر أضعف الحدود[1].

قال عياض فى الإكمال، ورأى مالك وبعض أصحابنا فى المدمن، عليه التغليظ بالفضيحة والطواف والسجن، واختلفوا فى المريض الذى لا يرجى برؤه، فذهب مالك والكوفيين وجمهور العلماء، أنه لا يجرى فيه إلا ما يجرى فى الصحيح ويترك حتى يبرأ أو يموت. وقال الشافعى: يضرب بعثكول نخل، يصل جميع شماريخه إليه، أو ما يقوم مقامه. والمذهب إلزام السكران جميع أحكام الصحيح. لأنه أدخل ذلك على نفسه، وهو حقيقة مذهب الشافعى، وفرق بين الشارب مختارا وبين المستكره[2].

وأكثر العلماء ذهب إلى أن الحدود كفارة، ومنهم من وقف واحتج بقوله تعالى: ﴿ ...لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ ﴾ [المائدة]، وفى حديث: ما عز الثابت فى الصحيح، ما يدل على أن التوبة لاتسقط حد الزانى والسرقة والخمر، وإنما تنفع عند الله[3].

---

(١) المرقبة العليا ص ٦١.

(٢) المرقبة العليا ص ٦١.

(٣) المرقبة العليا ص ٦٢.

وروى عن الشافعى، أن التوبة تسقط حد الخمر، وعلى كل تقدير، فمن الواجب على من وقع فى معصية وترتب بسببها قبله حق الله، وللناس من دم أو مال أو عرض أو انتهاك حرمة أن يبادر - أولا - إلى التوبة، ثم يرجع بعدها إلى الإقادة من نفسه للخلق والتحلل من التبعات بجهده على الوجوه المقررة فى الفقهيات. وأن يكثر من ذلك مدة حياته من العمل الصالح، ومن الدعاء والبكاء، وبخصوص فيما يرجع إلى الدماء، فالمنقول عن مالك - وقد سئل عمن كتب إليه وال فى قتل رجل فقتله، ثم أراد التنصل والتوبة، فعرض نفسه على أولياء المقتول وأخبرهم فقالوا: لسنا بقاتليك، وإنا نخاف - إن قتلناك - عاقبة ذلك، وعرض عليهم الدية، فأبوا أن يقبلوها - فكان من جوابه - رضى الله عنه - أن قال: أحب إلى أن يؤدى دينه إليهم، وأن يعتق الرقاب ويتصدق، ويكرر الحج والغزو، وإن استطاع أن يلحق بالثغور ويكون فيها أبدا حتى يموت فهو أحب إلى[1].

وفى الحديث: أقيلوا ذوى الهيئات عثراتهم. والمراد بذلك أهل المروءة والصلاح، ويبينه ما روى أن رسول الله - ﷺ - قال: تجافوا عن عقوبة ذوى المروءة والصلاح، والمأمورون بالتجافى عن زلات ذوى الهيئات عند العلماء. هم الأئمة الذين إليهم إقامة العقوبات على ذوى الجنايات، والإقالة هى فيما عدا الحدود. والزلات التى أمر بالتجافى عنها، هى ما لم يخرج بها فاعلها عن أن يكون من ذوى المروءات والهيئات التى هى الصلاح، فأما من أتى ما يوجب حدا ما، إما قذف محصنة أو ما سوى ذلك من الأشياء التى توجب الحدود، فلا يجب التجافى عنه، لأنه قد خرج بذلك عن ذوى الهيئات

---

(١) المرقبة العليا ص ٦٢.

والصلاح. وصار من أهل الفسق، فوجب إقامة الحد عليه، ليكون ذلك ردعا له ولغيره، رزقنا الله الاستقامة، وسلك بنا مسالك السلامة[1].

انتهى كلام النباهى. وذكرته بجملته تتميما للفائدة: وبالجملة، فما فعله القاضى عياض من إقامة الحد على الفتح، هو الحق الذى لا غبار عليه، ولا يتوجه الاعتذار إليه، وعكسه يحتاج إلى تأويل، والله يهدى من يشاء إلى سواء السبيل.

والفتح المذكور، هو إمام البلاغة والكتابة، وصاحب التآليف الشهيرة التى منها «قلائد العقيان، فى محاسن الأعيان» و«مطمح الأنفس، ومسرح التأنس، فى ملح أهل الأندلس» وغير ذلك.

وهو الفتح بن محمد بن عبيد الله، يكنى أبا نصر، ويعرف بابن خاقان، الكاتب الشهير القيسى، وهو من قرية تعرف بصخرة الوادى من قرى قلعة يحصب، خرج من موضعه وتجول فى البلاد، وبرع فى الكتابة والشعر، وامتدح الملوك، وشهر فى الأمصار، وكان مترسلا بليغا، آية من آيات الله فى البلاغة، لا يشق غباره، ولا يدرك شأوه عذب الألفاظ ناصعها، أصيل المعانى وثيقها، لعوبا بأطراف الكلام، معجزا فى باب الحلى والصفات، إلا أنه كان مقدورا عليه فى الرزق، محروما فى الدنيا على غالب عادة أهل الأدب، لا يمل من المعاقرة والقصف، حتى هان قدره، وابتذلت نفسه، وساء ذكره، لذا قال ابن الأبار فى معجم أصحاب الصدفى - إذ لم يذكره فى التكملة: لم يكن مرضيا، وحذفه أولى من إثباته[2] - انتهى.

(١) المرقبة العليا ص ٦٢.

(٢) معجم أصحاب الصدفى، ص ٣٠٠.

ولم يدع بلدا من بلاد الأندلس، إلا ودخله - مسترفـدا أميره، وواغلا على عليتـه، وكان كثير الأسفار، سـريع التنقل، مرهب الشبـا، قادرا على إظهار المثـالب، وقد قال فى أبى بكر بن باجـة - الشهير بابن الصـائغ، آخر فلاسفة الإسلام بجزيرة الأندلس - علـى ما قال ابن الخطيب وغيره - ما هو مخلد فى كتابه «قلائد العقيان» إلى غابر الدهر، وبه ختم الكتاب المذكور.

وحدث بعض الأشـياخ، أن سـبب حقـده عليه، ما كـان من إزرائه به وتكذيبه إياه فى بعض المجـالس، إذ جعل ذكر مـا وصله به أمراء الأندلس، ووصف حليا - وكان يبـدو من أنفه فضلة خضراء اللون - زعمـوا، فقال له ابن باجة - فمن تلك الجواهر إذن الزمردة التى على شاربك؟ فثلبه أبو نصر، وعلى ذلك كله فهو نسيج وحده - غفر الله له. قال ابن خاتمة: لم يعرف من المعارف بغير الكتابة والشعر والآداب.

قـال الأستـاذ فى الصلة - وكان مـعـاصرا للكاتب المجـيد، المحـدث الجليل، أبى عبـد الله بن أبى الخصـال، إلا أن بطالته أخلدت به عن مـرتبه. سمع - رحمـه الله - من الأستاذ أبى على الصدفى، وأبى محمـد ابن السيد البطليوسى، والقاضى أبى بكر بـن العربى، وخططاه بذى الوزارتين، وحدث عن أبى الحسين بن سراج بحكايـات، وروى عن أبى بكر بن القصيرة، وابن اللبانة، وأبى جعفر بن سعدون الكاتب، وأبى خالد بن بشتغير، وأبى الطيب ابن زرقون، وأبى عبد الله بن خلصـة الكاتب، وأبى عبد الرحمن بن طاهر، وأبى محمد بن عبدون، وأبى الوليد بن حجاج - وغير واحد.

وروى عنه أبو عبد الله بن زرقون جميع تواليفه، وسمع كثيرا من نوادره وأخباره، وروى عنه أيضـا، أبو بكر يحيى بن محمـد الأركشى - فى آخرين يطول تعدادهم.

وألف - رحمه الله - كتبا جمة، ظهرت فيها براعته، وتبينت بلاغته وصناعته، منها: «قلائد العقيان، فى محاسن الأعيان» وكتاب «المطمح الكبير» وكتاب «المطمح الصغير» - كذا قال ابن خاتمة، وابن الخطيب، وقال ابن خلكان: «مطمح الأنفس ومسرح التأنس، فى ملح أهل الأندلس» - وهو ثلاث نسخ: كبرى. ووسطى، وصغرى، وهو كتاب كثير الفوائد، وكلامه فيه يدل على غزارة مادته[1] - انتهى.

ومن تآليفه: «راية المحاسن وغاية المحاسن» ومجموع فى ترسيله: وتوفى - رحمه الله - ذبيحا بفندق لبيب من حضرة مراكش، قيل: ليلة الأحد لثمان بقين من محرم، من عام تسع وعشرين وخمسمائة، حكاه ابن الخطيب، وقال ابن الآبار: ليلة عيد الفطر، من سنة ثمان وعشرين وخمسمائة، قال: قرأت ذلك بخط من يوثق به[2]. وهذا الذى حكاه ابن الآبار هو المعتمد - عندى، وحكى ابن خلكان أنه توفى سنة خمس وثلاثين وخمسمائة، وهو - عندى - خطأ، على أنه قد حكى القول الآخر، الذى هو سنة تسع وعشرين، وقد قيل إن قتله كان بإشارة أمير المسلمين: على بن يوسف بن تاشفين، أخى إبراهيم بن يوسف بن تاشفين، الذى ألف برسمه «قلائد العقيان» وذكره فى خطبته، وقد أشار إلى هذا ابن خلكان[3] - والله أعلم.

وبالجملة، فقد ذبح - رحمه الله - فى هذا الفندق، وعبث به فى أحد بيوت الفندق المذكور، وما شعر به إلا بعد ثلاث ليال من مقتله. ودفن بباب الدباغين من محروسة مراكش - تجاوز الله عنه.

---

(١) انظر وفيات الأعيان ج٣ ص ٤٩٨.

(٢) المعجم ص ٣٠١.

(٣) وفيات الأعيان ٣/ ٤٩٨.

ونثره - رحمه الله - شهير، وكتابته فائقة، فمما ثبت له من غير المتعارف من السلطانيات. ظهير كتبه عن بعض الأمراء لصاحب الشُرَط، ولا خفاء بإدلاله وبراعته[1]، وهو: هذا كتاب تأكيد اعتناء، وتقليد ذى منة وغناء، أمر بإنقاذه فلان - أيده الله - لفلان بن فلان - صانه الله - ليتقدم لولاية المدينة الفلانية وجهاتها، ويصوح ما تكاثف من العدوان بجنباتها، - تنويها أحظاه بعلائه. وكساه رائق ملائه، لما علمه من سنائه، وتوسمه من غنائه، ورجاه من حسن منابه، وتحققه من طهارة ساحته وجنابه، وتيقن - أيده الله - أنه مستحق بما ولاه، مستقل بما تولاه، لا يعتريه الكسل، ولا تثنيه عن المضاء الصوارم والأسل، ولم يكل الأمر منه إلى وكل، ولا ناطه بمناط عجز ولا فشل، وأمره أن يراقب الله - تعالى - فى أوامره ونواهيه، ويعلم أنه زاجره عن الجور وناهيه، وساله عما حكم به وقضاه، وأنفذه وأمضاه: ﴿يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ⑲﴾ [الانفطار]، فليتقدم لذلك بحزم لا يخمد توقده، وعزم لا ينفد تفقده، ونفس مع الخير ذاهبة، وعلى متن البر والتقوى راكبة، ويقدم للاحتراس من عرف اجتهاده، وعلم أرقه فى البحث وسهاده، وحمدت أعماله، وأمن تفريطه وإهماله، ويضم إليهم من يحذو حذوهم، ويقفو شأوهم، مما لا يستراب بمناحيه، ولا يصاب خلل فى ناحية من نواحيه، وأن يذكى العيون على الجناة، وينفى عنها لذيذ السناة، ويفحص عن مكامنهم، حتى يغص بالروع نفس أمنهم، فلا يستقر بهم موضع، ولا يقر منهم مخب ولا موضع، فإذا ظفر منهم بمن ظفر بحث عن باطنه، وبث السؤال فى مواضع تصرفه ومواطنه، فإن لاحت شبهة أبداها الكشف والاستبراء، وتعداها البغى والافتراء، نكله بالعقوبة أشد نكال، وأوضح له منها ما كان ذا إشكال، - بعد أن يبلغ إناه. ويقف على طرف

---

(1) نفح الطيب ج٧ ص ٣١.

مداه، وحد له ألا يكشف بشرة إلا فى حد يتعين، وإن جاءه فاسق أن يتبين، وأن لا يطمع فى صاحب مال موفور، وأن لا يسمع من مكشوف فى مستور، وأن يسلك السنن المحمود، وينزه عقوبته من الإفراط وعفوه من تعطيل الحدود، وإذا انتهت قصة مشكلة أخرها إلى غده، فهو على العقاب أقدر منه على رده، فقد يتبين فى وقت، ما لا يتبين فى وقت، والمعاجلة بالعقوبة من المقت، وأن يتغمد هفوات ذوى الهيئات، وأن يستشعر الإشفاق، ويخلع التكبر فإنه من ملابس أهل النفاق، وليحسن لعباد الله اعتقاده، ولا يرفض زمام العدل ولا مقاده، وأن يعاقب المجرم قدر زلته، ولا يعتز عند ذلته وليعلم أن الشيطان أغواه، وزين له مثواه، فيشفق من عثاره، وسوء آثاره، وليشكر الله على ما وهبه من العافية، وألبسه من ملابسه الضافية، ويذكره - جل وعلا - فى جميع أحواله، ويفكر فى الحشر وأهواله، ويتذكر وعدا بنجز فيه ووعيدا، "يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا" والأمير - أيده الله - ولى له - ما عدل وأقسط، وبرئ منه أن جار وقسط، فمن قرأه فليقف عند حده ورسمه، وليعرف له حق قطع الشر وحسمه، ومن وافقه من شريف أو مشروف، وخالفه فى نهى عن منكر أو أمر بمعروف، فقد تعرض من العقاب لما يذيقه وبال فعله. ﴿ ... وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ... (٤٣) ﴾ [فاطر] - انتهى.

ومن مكاتباته الرائقة. قوله(١): أطال الله بقاء الوزير الأجل، عتادى الأسرى. وزنادى الأورى. وأيامه أعياد. وللسعد فى زمانه انقياد: أما أنا - أدام الله عزه - فجوى عاتم، وأعيادى مآتم، وصبحى عشاء. ومالى إلا من الخطوب انتشاء، أبيت بين فؤاد خافق وطرف مسهد. نائى الملحة من مزار

(١) نفح الطيب ج٧ ص ٣٦.

العود، حين لا أرى الروض المنور، ولا أحس سهيلا إذ لاح ثم تَغَوَّر: وقد بعدت دار إلى حبيبة، ودنت مني حوادث بأدناها توذى الشبيبة، وأى عيش لمن لزم المفاوز لا يريمها، حتى ألفه ريمها، قد رمته النوائب فما اتقى، وارتقت له الجوانح فى وعور المرتقى، يواصل النوى ولا يهجر سيرا، ولا يزجر فى الإراحة طيرا، قد هام بالوطن، هيام ابن طالب بالحوض والعطن، وحن إلى تلك البقاع، حنينه إلى أثلاث القاع، ولا سبيل أن يشعب صدع بينه شاعب، أو تكملة أحجار للدار وملاعب، وليس له إلى أمين يجنح، ولا يرى أمله ينسج، قد طوى البلاد وبسطها، وتطرف الأرض وتوسطها، ولم يلف مقيلا، ولا وجد مقيلا، إلى الله أشكو ما أقاسى وأقاصى، وبيده الأقدام والنواصى، ولقاؤه موعد كل موعد، وكل معمر سيدركه يوما حمام الموعد، وأنفذته - وقد صدرت عن فلانة بعد أهوال لقيتها، وأنكال سقيتها، وسفر لقيت منه نصبا، وكدر أعقبنى وصبا، وإلى متى يعتزلنى السعد، و﴿ ... لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ ... ﴿٤﴾ ﴾ [الروم].

قال بعضهم: ومن أحسن ما رأيت له، قوله[1]: معاليك أشهر رسوما، وأعطر نسيما، من أن يغرب شهاب مسعاها، أو يجدب لرائد مرعاها، فإن نبهتك فإنما نبهت عمرا وإن استنرتك فإنما أستنير قمرا: والأمير - أيده الله - أجل من أن أعتصم فى ملكه. وأنتظم فى سلكه، فإنه حسام بيد الملك طلاقته فرنده، وشهامته حده، وقضيب فى دوحة الشرف رطيب، بشره زهره، وبره ثمره، وقد توسمت نارك لعلى أفوز منها بقبس، أو تكون كنار موسى بالواد المقدس، وعسى الأمل أن تعلو بكم قداحه، ويشف من أفقكم مصباحه فجرد - أيدك الله - صارم عزم لا يفل غروبه. واطلعْ كوكب سعد لا يخاف غروبه - انتهى.

---

(١) نفح الطيب ج٧ ص ٣٨.

المطمح ولنذكر بعض كلام الفتح فى المطمح، فإنى رأيت منه أوراقا بخزانة الكتب بتلمسان. ولفظه كلفظ القلائد، غير أنه زاد فى عدد الرجال، ووقفت فى مقيداتى على جملة من ذلك، وهأنا أثبته - وإن كنت لم أر الكتاب المذكور، ولم أقف منه على غير هذه الأوراق، على أنى لست على يقين أن ذلك هو المطمح، وإنما غلب على ظنى بموافقته لفظ القلائد.

فمن ذلك، قوله عند ذكر المنصور بن أبى عامر - رحمه الله - بعد كلام ما نصه(١): وتمرس المنصور ببلاد الشرك أعظم تمرس، ومحا من طواغيتها كل تعجرف وتغطرس، وغادرهم صرعى البقاع، وتركهم أذل من وتد البقاع، ووالى إلى بلادهم الوقائع، وسدد إلى أكبادهم سهام الفجائع، وأغص بالحمام أرواحهم(٢)، ونغص بتلك الآلام بكورهم ورواحهم، ومن أوضح الأمور هنالك، وأفصح الأخبار فى ذلك - أن أحد رسله كان كثير الانتياب، لذلك الجناب، فسار فى بعض مسيراته إلى غرسية صاحب البشكنش فوالى فى إكرامه، وتناهى فى بره واهتمامه، فطالت مدته فلا متنزه إلا مر عليه متفرجا، ولا موضع إلا سار عليه معرجا، فحل فى ذلك، أكثر الكنائس هنالك، فبينا هو يجول فى ساحتها، ويجيل العين فى مساحتها، إذ عرضت له امرأة قديمة الأسر، قويمة - على طول الكسر، فكلمته، وعرفته بنفسها وأعلمته، وقالت له: أيرضى المنصور أن ينسى بتنعمه بؤسها، ويتمتع بلبوس العافية وقد نضت لبوسها، وزعمت أن لها عدة من السنين بتلك الكنيسة محبسة، وبكل ذل وصغار ملبسة، وناشدته الله فى إنهاء قصتها، وإبراء غصتها، واستحلفته بأغلظ الأيمان، وأخذت عليه فى ذلك أوكد

---

(١) نفح الطيب ١/ ٤٠٣.

(٢) هذا الصواب من النفح، والذى فى المطبوع: «أوراحهم».

مواثيق الرحمن، فلما وصل إلى المنصور عـرفه بما يجب تعريفه به وإعلامه، وهو مصغ إليـه حتى تم كلامه، فلمـا فرغ من قصته، قـال له المنصور: هل وقفت هنالك على أمر أنكرته، أم لم تقف على غير ما ذكرته، فأعلمه بقصة المرأة وما خرجت عنه إليـه. وبالمواثيق التى أخذت عليه، فعتـبه ولامه، على أن لم يبدأ بها كلامه، ثم أخذ فى الجهاد من فوره، وعرض [مَنْ] مِنَ الأجناد فى نجد وغور، وأصبح غازيا على سرجـه، مباهيا مروان يوم مرجه[1]، حتى وافى ابن شانجة فى جمعه، فأخذت مهابته ببصره وسمعه، فبادر بالكتاب إليه يتعـرف ما الجنيـة، ويحلف له بأعظم ألية، أنه مـا جنى ذنبا، ولا جـفا عن مضجع الطاعة جنبا، فعنف أرساله وقال لهم: كان قد عاقدنى ألا يبقى ببلاده مأسورة ولا مـأسور، ولو حملته فى حـواصله النسور، وقد بلغنى بعـد مقام فلانة المسلـمة بتلك الكنيسـة. ووالله لا أنتهى عن أرضـه حتى أكـتسحـها، فأرسل إليـه المرأة فى اثنتين معهـا، وأقسم أنه ما أبصـرهن، ولا سمع بهن، وأعلمه أن الكنيـسة التى أشار بعلمـها، قد بالغ فى هدمهـا، تحقيقـا لقوله، وتضرع إليه فى الأخذ فيه بطوله، فاستحيا منه، وصرف الجيش عنه، وأوصل المرأة إلى نفسه، وألحق توحشها بأنسه، وغير من حالها، وعاد بسواكب نعماه على جدبها وإمحالها، وحملها إلى قـومها، وكحلها بما كان شرد من نومها. انتهى.

ومن ذلك قوله فى المنصور أيضـا ما نصه[2]: فرد نابه لى من تقدمه، وصرفه استـخدمه، فإنه كان أمضـاهم سنانا، وأذكاهم جنانا، وأتمهم جلالا،

---

(١) يعنى يوم مرج راهط.

(٢) نفح الطيب ١/ ٥٠٤.

وأظمهم استقلالا ، فآل أمره إلى ما آل، وأوهم العقول بذلك المآل، فإنه كان آية الله فى اتفاق سعده، وقربه من الملك بعد بعده، بهر برفعة القدر، واستظهر بالأناة وسعة الصدر، وتحرك فلاح نجم الهدو، وتملك فأخفق بأرضه كل عدو، بعد خمول كابد منه غصصا وشرقا، وتعذر مأمول طارد فيه سهرا وفرقا، حتى أنجز له الموعود، وفر نحسه أمام تلك السعود، فقام بتدبير الخلافة، وأقعد من كان له فيها إنافة، وساس الأمور أحسن سياسة، وداس الخطوب أخشن دياسة، فانتظمت له الممالك، واتضحت له المسالك، وانتشر الأمن فى كل طريق، واستشعر اليمن كل فريق، وملك الأندلس بضعا وعشرين حجة، لم تدحض لسعادته حجة، ولم تزخر لمكروه بها حجة، لبست فيها البهاء والإشراق، وتنفست عن مثل أنفاس العراق، وكانت أيامه أحمد أيام، وسهام بأسه أشد سهام، غزا الروم شاتيا وصائفا، ومضى فيما يروم زاخرا وعائفا، فأوغل فى تلك الشعاب، وتغلغل حتى راع ليث الغاب، ومشى تحت ألويته صيد القبائل، واستجرت فى ظلها بيض الظبا وسمر الذوابل، وهو يقتضى الأرواح بغير سوم، وينتضى الصفاح على كل روم، ويتلف من لا ينساق للخلافة وينقاد، ويختطف منهم كل كوكب وقاد، حتى استبد وانفرد، وأنس إليه من الطاعة ما نفر وشرد، وانتظمت له الأندلس بالعدوة، واجتمعت له اجتماع قريش فى دار الندوة، ومع هذا لم يخلع اسم الحجابة، ولم يدع السمع لخليفته والإجابة، ظاهرا يخالفه الباطن، واسما ينافره مواقع الحكم والمواطن، وأذل قبائل الأندلس بإجازة البرابر، وأخمل بهم أولئك الأعلام الأكابر، فإنه قاومهم بأضدادهم، واستكثر من أعدادهم، حتى تغلبوا على الجمهور، وسلبوا منهم الظهور، ووثبوا عليهم الوثوب المشهور، الذى أعاد أكثر الأندلس قفرا يبابا، وملأها وحشا وذئابا، وأعراها

من الأمان، برهة من الزمان، وعلى هذه الهنة فهو وابنه المظفر كان آخر سعد الأندلس، وحد السرور بها والأنس، وغزواته فيها شائعة الأثر، رائعة كالسيف ذى الأثر، وحسبه وافر، ونسبه معافر، ولذلك قال يفخر:

رميت[1] بنفسى هول كل كريهة   وخاطرت والحر الكريم يخاطر
وما صاحبى إلا جنان مشيع   وأسمر خطى وأبيض باتر
وأنى لزجاء الجيوش إلى الوغى   أسود تلاقيها أسود خوادر
فسدت بنفسى أهل كل سيادة   وكاثرت حتى لم أجد من أكاثر
وما شدت بنيانا ولكن زيادة   على ما بنى عبد المليك وعامر
رفعنا المعالى بالعوالى حديثه   وأورثناها فى القديم معافر

وكانت أمه تميمية[2] فحاز الشرف بطرفيه، والتحف بمطرفيه، قال القسطلى:

تلاقت عليه من تميم ويعرب   شموس تلالا فى العلا وبدور
من الحميريين الذين أكفهم   سحائب تهمى بالندى وبحور

وتصرف[3] قبل ولايته فى شتى الولايات، وجاء من التحدث بمنتهى أمره بآيات، حتى صح زجره وجاء بصحبة فجره، تؤثر عنه فى ذلك أخبار، فيها عجب واعتبار، وكان أديبا محسنا، وعالما متفننا، فمن ذلك قوله - يمنى نفسه بملك مصر والحجاز، ويستدعى صدور تلك الأعجاز:

---

(١) نفح الطيب ١/٤٠٦.
(٢) نفح الطيب ١/٤٠٦.
(٣) نفح الطيب ١/٤٠٦.

منع العـــين أن تذوق المنامـــا   حـبهـا أن ترى الصفـا والمقامـا[1]
لى ديـون بالشـــرق عنـد أناس   قـد أحلوا بالمشـعـرين الحـرامـا
إن قـــضـــوا نالوا الأمـــانى وإلا   جـــعلوا دونهـــا رقـــابا وهامـــا
عن قـريـب ترى خـيـول هـشـام   يبلـغ النيل خـطوها والشـــآمـــا

وفى سنة ثمـان وستين وثلاثـمائة[2]، أمر المنـصور بن أبى عامـر ببناء قصـره المعروف بالزاهرة، وذلك عندما اسـتفحل أمـره، واتقد جمـرة وظهر استبداده، وكـثر حساده، وخاف على نفسه فى الدخـول إلى قصر السلطان، وخشى أن يقع فى أشطان، فتـوثق لنفسه، وكشف له ما ستـر عنه فى أمسه، من الاعتـزاز عليه، ورفع الاستناد إليـه، وسما إلى ما سـمت إليه الملوك من اختـراع قصـر ينزل فيـه، ويحله بأهله وذويه، ويضم إليـه رئاستـه، ويتم به تدبيره وسياسـته، ويجمع فيه فتـيانه وغلمانه، فارتاد موضع مديـنته المعروفة بالزاهرة، الموصوفـة بالقصور البـاهرة، وأقامهـا بطرف البلد على نهر قـرطبة الأعظم، ونسق فيها كل اقتدار مـعجز ونظم، وشرع فى بنائها فى هذه السنة المؤرخة، وحشد إليها الصناع والفـعلة، وجلب إليها الآلات الجليلة، وسربلها بهاء يرد العيـون كليلة، وتوسع فى اختطاطها، وتولع بانتشـارها فى البسيطة وانبـساطهـا، وبالغ فى رفع أسوارها، وثابر على تسـوية أنجادها وأغـوارها، فاتسعت هذه المديـنة فى المدة القريبة، وصار بناؤها من الأنبـاء الغريبة، وبنى معظمها فى عامين.

---

(١) نفح الطيب ١/٤٠٦.

(٢) نفح الطيب ١/٥٧٨.

وفى سنة[1] سبعين وثلاثمائة، انتقل المنصور إليها، ونزلها بخاصته وعامته، فتبوأها وشحنها بجميع أسلحته وأمواله وأمتعته، واتخذ فيها الدواوين والأعمال، وعمل فى داخلها الأهراء. وأطلق بساحتها الأرحاء، ثم أقطع ما حولها لوزرائه وكتابه، وقواد وحجابه، فابتنوا بها كبار الدور، وجليلات القصور، واتخذوا خلالها المستغلات المفيدة، والمَنَازِه المشيدة، وقامت بها الأسواق، وكثرت فيها الأرفاق، وتنافس الناس فى النزول بأكنافها، والحلول بأطرافها، للدنو من صاحب الدولة، وتناهى الغلو فى البناء حوله، حتى اتصلت أرباضه بأرباض قرطبة، وكثرت بحوزتها العمارة، واستقرت فى بحبوحتها الإمارة، وأفرد الخليفة من كل شىء إلا من الاسم الخلافى، وصير ذلك هو الرسم العافى، ورتب فيها جلوس وزرائه، ورءوس أمرائه، وندب إليها كل ذى خطة بخطته، ونصب ببابها كرسى شرطته، وأجلس عليها واليا على رسم كرسى الخليفة، وفى صفة تلك الرتبة المنفية.

وكتب إلى الأقطار[2] بالأندلس والعدوة بأن تحمل إلى مدينته تلك أموال الجبايات، ويقصدها أصحاب الولايات، وينتابها طلاب الحوائج، وحذر أن يعوج عنها إلى باب الخليفة عائج، فاقتضيت لديها اللبانات والأوطار، وانحشد الناس إليها من جميع الأقطار، وتم لمحمد بن أبى عامر ما أراد، وانتظم بلبة أمانيه المراد، وعطل قصر الخليفة من جميعه، وصيره بمعزل من سامعه ومطيعه، وسد باب قصره عليه، وجد فى خبر أن لا يصل إليه، وجعل فيه ثقة من صنائعه يضبط القصر، ويبسط فيه النهى والأمر،

(١) نفح الطيب ١/٥٧٩.

(٢) نفح الطيب ١/٥٧٩.

ويشـرف منه على كل داخل، ويمنع مـا يحـذره من الدواخل، ورتب عليـه الحراس والبوابين، والسـمار والمتنابين، يلازمون حراسة من فـيه ليلا ونهارا، ويراقبون حركاتهم سرا وجهارا، قـد حجر على الخليفة كل تدبير، ومنعه من تملك قبيل أو دبير، وأقام الخليفة هشام مـهجور الفناء، محجور الغناء، خفى الذكر، عليل الفكر، مسدود الباب، محجوب الشخص عن الأحباب، لا يراه خاص ولا عـام، ولا يخاف منه بأس ولا يرجى له إنعام، ولا يعـهد منه إلا الاسم السلطانى فـى السكة والدعـوة، وقد نسـخـه ولبس أبهـتـه، وطمس بهـجته، وأغـنى الناس عنه، وأزال أطماعـهم منه، وصيـرهم لا يعرفـونه، وأمرهم أن لا يذكروه، اشتد ملك محمد بن أبى عامر منذ نزل قصر الزاهرة، وتوسع مع الأيام فى تشيـيد بنيتهـا، حتى كملت أحسن كـمال، وجاءته فى نهاية الجـمال، نقاوة بناء وسعة فـناء، واعتدال هواء رق أديمه، وصـقالة جو اعتل نسيمه، ونضـرة بستان، وبهجة للنفوس فيها افتنان، وفـيها يقول صاعد اللغوى(١):

يا أيهـا الملك المنصـور من يمن ... والمبـتنى نسبا غـير الذى انتـسبـا
بغـزوة فى قلوب الشـرك رائـعـة ... بين المنايا تناغى السـمر والقـضبـا
أما ترى العين تجـرى فوق مرمرها ... هوى فيجرى على أحـفافها الطربا
أجـريتهـا فطما الزاهى بجـريتهـا ... كما طموث فـسدت العجم والعربا
تخـال فـيـه جنود المـاء رافلة ... مـستلـئمـات تريك الدرع واليلبـا
تحـفـهـا من فنـون الأيك زاهرة ... قـد أورقت فضـة إذ أورقت ذهبـا

(١) نفح الطيب ١/ ٥٨٠.

بديعــة الملك مـــا ينفك نــاظرها   يتلو على السـمع منها آية عـجبـا
لا يحسن الدهر أن ينشي لهــا مثلا   ولو تعنت فـيــهـا نفـسـه طلبـا

ودخل عليه ابن أبى الحـبـاب[1] فى بعض قصـوره من المنية، المعـروفة بالعامرية، والروض قــد تفتحت أنواره، وتوشحت أنجـاده وأغواره، وتصرف فيها الدهر متواضعا، ووقف بها السعد خاضعا، فقال:

لا يوم كــاليــوم فى ايامك الأول   بالـعــامـــرية ذات الماء والظـلل
هواؤها فى جـميع الدهر مـعتـدل   طيب وإن حل فصل غـير معـتدل
ما إن يبـالى الذى يحتل سـاحتـها   بالسعد أن لا تحل الـشمس بالحمل

وما زالت هذه المدينة[2] رائقة، والـسعود بلبـتهـا متناسـقة، تراوحـها الفتوح وتغـاديها، وتجلب إليها منكسرة أعـاديها، لا تزحف منها راية إلا إلى فتح، ولا يصدر عنها تدبير إلا إلى نجح، إلى أن حـان يومها العصيب وقيض لها من المكروه أوفر نصيب، فتولت فقيـدة، وخلت من بهجتها كل عقيدة - انتهى.

ولست أتيقن أن جميعه كلام الفتح، مع أنى وجدت فى بعض التواريخ نسبته إليه، فأثبت جميعه لشدة مناسبة بعضه لبعض، على أنه لا يبعد جميعه عن نفـسه - والله أعلم، ثم تحـققت أنه كـلام الفتح فى المطمح. وقـد تعلق غرضى بذكر بعض كلام هذا المؤرخ فى شأن المنصـور بن أبى عامر لما فيه من ذكر جامع قرطبة، ونصه:

وكـان المنصـور، آية من آيات فـاطرة، دهاء ومكرا وسـيـاسـة، عـدا

(١) نفح الطيب ١/ ٥٨١.
(٢) نفح الطيب ١/ ٥٨١.

بالمصاحفة على الصقالبـة، حتى قتلهم وأذلهم، ثم عدا بغالب الناصرى على المصاحـفة. حتى قتلهم وأبادهم، ثم عـدا بجعفـر بن الأندلسى على غالب، حتى قتله، ثم عـدا بنفسه على جعـفر وقتله، ثم انفرد بنفـسه، وصار ينادى صروف الدهر هل من مبارز؟ فلما لم يجـده حمل الدهر على حكمه، فانقاد له وسـاعده، فـاستـقام أمره مـنفردا بمملكة لا سلف له فـيهـا، ومن أوضح الدلائل على سعده، أنه لم ينكب قط فى حرب شـهدها، ولا توجهت عليه هزيمـة، ولا انصرف عن مـوطن إلا قـاهرا غالبـا، على كـثرة مـا زاول من الحروب ومـارس من الأعداء. وواجه من الأمم، وإنهـا لخاصة، مـا أحسب شركه فيها أحد من الملوك الإسلامـية، ومن أعظم ما أعين به مع قوة سعده، وتمكن جده، سـعة جوده، وكثرة بذله، فـقد كان فى ذلك أعجـوبة الزمان، وأول من اتكأ على أرائك الملك وارتفق، وانتـشر عليـه لواء السعـد وخفق، حط صاحـبه المصحفـى، وأثار له كامن حقده الخـفى، حتى أصاره للهـموم لبيسا، وفى غيابات السجن حبيسا، فكتب إليه يستعطفه.

هبنى أسـأت فأيـن العفـو والكرم إذ قادنى نحـوك الإذعان والندم[1]

يا خيـر من مدت الأيدى إليـه أما ترثى لشـيخ نعـاه عندك الـقلم

بالغت فى السخط فاصفح صفح مقتدر إن الملوك إذا ما استرحـموا رحموا

فما زاده ذلك إلا حنقـا وحقدا، وما أفادته الأبيات إلا تضـرما ووقدا، فراجـعه بما أيأسه، وأراه مرمـسه، وأطبق عليه مـحبسه، وضـيق تروحه من المحنة وتنفسه:

---

(١) نفح الطيب ١/٤٠٧.

الآن يا جـاهلا زلـت به القـدم   تبـغى التكرم لما فـاتك الكرم[1]
أغـريـت بى ملكا لولا تـثـبـتـه   مـا جـاز لى عنده نـطق ولا كلم
فايأس من العيش إذ قد صرت فى طبق   إن الملوك إذا مـا استنقـموا نقـموا
نفسى إذا سـخطت ليست براضـية   ولو تشـفع فيـك العرب والعـجم

وكان من أخبار المنصور[2] الداخلة فى أبواب البر والقربة، بنيان المسجد الجامع، والـزيادة فيه سنة سـبع وسبـعين وثلاثمـائة، وذلك أنه لما زاد الناس بقرطبـة، وانجلب إليها قـبائل البربر من العدوة وإفـريقية، وتناهى حـالها فى الجلالة، ضاقت الأرباض وغـيرها، وضاق المسجد الجـامع عن حمل الناس، فشرع المنصـور فى الزيادة بشرقيه حيث تمكن الزيادة، لاتصـال الجانب الغربى بقصر الخـلافة، فبدأ ابن أبى عامـر هذه الزيادة على بلاطات، تمتد طولا من أول المسـجد إلى آخـره، وقصـد ابن أبى عـامر فى هـذه الزيادة المبالغـة فى الإتقان، والوثاقة دون الزخرفة، ولم يقصر مع هذا عن سائر الزيادات جودة، مـا عدا زيادة الحكم، وأول مـا عمله ابن أبـى عامـر، تطييب نفـوس أرباب الدور، الذين اشتريت منهم للهدم لهـذه الزيادة، بإنصافهم من الثمن، وصنع فى صـحنه الجب العظيم قدره، الواسع فناؤه، وابـن أبى عامر رتـب إحراق الشـمع بالمسجـد الجـامع، زيادة للزيت، فتطـابق بذلك النوران، وكان عـدد سوارى الجـامع الحاملة لسمائه، واللاصـقة بمبانيـه وقبابه ومناره، بين كبـيرة وصغـيرة، ألف سارية وأربعـمائة سارية وسـبع عشرة سـارية، وعدد ثريات الجامع ما بين كبيرة وصغيرة مـائتان وثمانون ثريا، وعدد الكئوس سبعة آلاف

(١) نفح الطيب ١/٤٠٨، والبيان المغرب ٢/٢٨٧ - ٢٨٨.
(٢) نفح الطيب ١/٤٠٨.

كأس وأربعمائة كأس وخمسة وعـشرون كأسا، وزنة مشاكى، وزنة الرصاص للكئـوس المذكورة عـشرة أرباع أو نحوهـا، وزنة ما يحتـاج إليه من الـكتان للفتائل فى كل شهـر رمضان ثلاثة أرباع القنطار[1]، وجميع ما يـحتاج إليه الجامع من الزيت فى السنة خمسمـائة ربع أو نحوها، يصرف منه فى رمضان خاصة نحو نصف العدد، ومما كـان يختص برمضان المعظم، ثلاثة قناطير من الشمع، وثلاثـة أرباع القنطار من الكتان المُقَـصَّر[2] لإقامة الشـمع المذكور، والكبيرة من الشـمع، التى توقد بجانب الإمام يكون وزنها من خـمسين إلى ستين رطلا، يحترق بعضها بطول الشهـر، ويعم الحرق لجميعها ليلة الختمة، وكان عدد من يخدم الجامع المذكور بقـرطبة فى دولة ابن أبى عامر، ويتصرف فيـه من أئمة ومـقربين، وأمناء ومـؤذنين، وسدنة ومـوقدين، وغـيرهم من المتصرفين، مائة وتسعة وخمسين شـخصا، ويوقد من البخور ليلة الختمة أربع أوراق من العنبر الأشهب، وثمان أوراق من العود الرطب الطيب.

ومن ذلك بنيان قنطرة على نهـر قرطبة الأعظم[3]، ابتدأ بناءها المنصور سنة ثمان وسبعين وثلاثمائة، وفـرغ منها فى النصف من سنة تسع وسبعين، وانتهت النـفقة عليـها إلى مائة ألـف دينار وأربعين ألف دينار، فعـظمت بها المنفـعة، وصـارت صدراً فى مناقـبه الجليلة، وكـانت قطعة أرض لشـيخ من العامـة ولـم يكن للقنطرة عـدول عنها، فأمـر المنصور أمناءه بإرضـائه فيـها. فحضر الشيخ عندهم، فساوموه فى القطعـة، وعرفوه وجه الحاجة إليها، وأن المنصور لا يريد إلا إنصافه فـيها، فرماهم الشيخ بالغرض الأقـصى عنده فيما ظنه ألا تخـرج عنه بأقل من عشـرة دنانير ذهبـا، كانت عنده أقصـى الأمنية

---

(١) هذا الصواب من البيان المغرب، وفى المطبوع: «القناطر».

(٢) هذا المثبت من البيان المغرب، والذى فى المطبوع: «المقطن».

(٣) نفح الطيب ١/٤٠٨، والبيان المغرب ٢/٢٨٨.

وشرطها صحاحا، فاغتنم الأمناء غفلته ونقدوه الثمن، وأشهدوا عليه، ثم أخبروا المنصور بخبره، فضحك من جهالته، وأنف من غبنه، وأمر أن يعطى عشرة أمثال ما سأل، وتدفع له صحاحا - كما قال: فقبض الشيخ مائة دينار ذهبا، فكاد أن يخرج من عقله، وأن يجن عند قبضها من الفرح، وجاء محتفلا فى شكر المنصور، وصارت قصته خبرا سائرا.

ومن ذلك أيضا[١]، بناء قنطرة على نهر إستجة، وهو نهر شنيل، وتجشم لها أعظم مئونة، وسهل الطرق الوعرة والشعاب الصعبة.

ومن ذلك[٢]، أنه خط بيده مصحفا كان يحمله معه فى أسفاره، يدرس فيه ويتبرك به.

ومن قوة رجائه[٣]، أنه اعتنى بجَمْع ما علق بوجهه من الغبار فى غزواته، ومواطن جهاده، فكان الخدم يأخذونه عنه المناديل، فى كل منزل من منازله، حتى اجتمع له منه صرة ضخمة عهد بتصبيره فى حنوطه، وكان يحملها حيثما سار مع أكفانه، توقعا لحلول منيته، وقد كان اتخذ الأكفان من أطيب مكسبه من الضيعة الموروثة عن أبيه وغزل بناته، وكان يسأل الله - تعالى - أن يتوفاه فى طريق الجهاد، فكان ذلك.

وكان متسما[٤] بصحة باطنه، واعترافه بذنبه، وخوفه من ربه، وكثرة جهاده، وإذا ذكر بالله ذكر، وإذا خوف من عقابه ازدجر، ولم يزل متنزها عن

---

(١) نفح الطيب ١/ ٤٠٩، والبيان المغرب ٢/ ٢٨٨.

(٢) نفح الطيب ١/ ٤٠٩، والبيان المغرب ٢/ ٢٨٨.

(٣) نفح الطيب ١/ ٤٠٩، والبيان المغرب ٢/ ٢٨٨.

(٤) نفح الطيب ١/ ٤٠٩، والبيان المغرب ٢/ ٢٨٩.

كل ما يستتر به الملوك سوى الخمر، لكنه أقلع عنها قبل موته بسنين، وكان عدله فى الخاصة العامة واطراحه للهوادة، وبسطه الحق على الأقرب فالأقرب من خاصته وحاشيته، أمرا مضروبا به المثل.

ومن عدله(١) أنه وقف عليه رجل من العامة يوما بمجلسه، فناداه: يا ناصر الحق، إن لى مظلمة عند ذلك الوصيف الذى على رأسك - وأشار إلى الفتى صاحب الدرقة، وكان له فضل محل عند ابن أبى عامر، ثم قال: وقد دعوته إلى الحاكم فلم يأت، فقال المنصور - أوَ عبد الرحمن ابن فطيس بهذا العجز والمهانة، وكنا نظنه أمضى من ذلك؟ - اذكر مظلمتك يا هذا، فذكر الرجل معاملة كانت جارية بينهما، قطعها من غير نصف، فقال المنصور: ما أعظم بليتنا بهذه الحاشية، ثم نظر إلى الصقلبى - وهو قد ذهل عقله، فقال له: ادفع الدرقة إلى فلان، وأنزل صاغرا، وساو خصمك فى مقامه، حتى يرفعك الحق أو يضعك، ففعل ومثل بين يديه، ثم قال لصاحب شرطته الخاص به، خذ بيد هذا الفاسق الظالم. وقدمه مع خصمه إلى صاحب المظالم لينفذ عليه حكمه بأغلظ ما يوجبه الحق من سجن أو غيره، ففعل ذلك، وعاد الرجل إليه شاكرا، فقال له المنصور، قد انتصفت أنت فاذهب لسبيلك، وبقى انتصافى أنا ممن تهاون بمنزلتى، فتناول الصقلى بأنواع من المذلة، وأبعده عن الخدمة.

ومن ذلك(٢)، قصة فتاه الكبير، المعروف بالبرقى مع التاجر المغربى، فإنهما تنازعا فى خصومة توجهت فيها اليمين على الفتى المذكور - وهو

---

(١) نفح الطيب ١/ ٤٠٩، والبيان المغرب ٢/ ٢٨٩.

(٢) نفح الطيب ١/ ٤١٠، والبيان المغرب ٢/ ٢٨٩.

يومئـذ أكبر خـدم المنصور، وإليه أمـر داره وحرمه، فـدافع الحاكم، وظن أن جاهه يـمنع من إحلافـه، فصرخ التـاجر بالمنصـور فى طريقه إلـى الجامع - متظلما من الفـتى، فوكل به فى الوقت من حمله إلى الحاكم، فـأنصفه منه، وسخط عليه المنصور، وقبض نعمته منه ونفاه.

ومن ذلك[1] قصة محـمد فَصَّاد المنصور، وخادمه وأمـينه على نفسه، فإن المنصور احتاجه يوما إلى الفصد، وكان كـثير التعهد له، فأنفذ رسوله إلى محمد، فألفـاه الرسول محبوسا فى سجن القاضى مـحمد بن زرب، لِحَيْفٍ ظهر منه على امرأته، قدر أن سبيله من الخدمة، يحميه من العقوبة، فلما عاد الرسول إلى المنصـور بقصتـه، أمر بإخراجـه من السجن مع رقيب من رقـباء السجن، يلزمـه إلى أن يفرغ من عمله عنده، ثم يعيـده إلى محبسـه، ففعل ذلك على ما رسمه، وذهب الفاصد إلى شكوى ما ناله، فقُطع عليه المنصور، وقال له: يا محـمد إنه القاضى، وهو فى عدله، ولو أخـذنى الحق ما أطقت الامتناع منه، عد إلى محبسك، واعـترف بالحق، فهو الذى يطلقك، فانكسر الحـاجم، وزالت عنه ريح العناية، وبلغت قـصـته للقـاضى، فـصالحـه مع زوجته، وزاد القاضى شدة فى أحكامه.

ومن دهائه[2]، قـال ابن حيـان: إنه كـان جالسـا فى بعض الليـالى، وكانت ليلة شديدة البرد والريح والمطر، فـدعا بأحد الفرسان وقل له: انهض الآن إلى فج طليارش وأقم فـيه، فأول خاطر يخطر عليك، سـقه إلى، قال: فنهض الفارس وبقى فى الفج فى البرد والريح والمطر - واقفا على فرسه، إذا

(١) نفح الطيب ١/ ٤١٠، والبيان المغرب ٢/ ٢٩٠.

(٢) نفح الطيب ١/٤١١، والبيان المغرب ٢/ ٢٩٠.

وقف قـرب الفجـر شـيخ هرم على حـمار له ومـعه آلـة الحطب، فقـال له الفارس: إلى أين تريد يا شيخ؟ فقال: وراء حطب، فـقال الفارس فى نفسه: هذا شيخ مسكين نهـض إلى الجبل يسوق حطبا، فمـا عسى أن يريد المنصور منه؟ قال: فـتركـته فـسار عنى قليلا، ثـم فكرت فى قول المنصـور، وخفت سطوته، فنهضت إلى الشيخ وقلت له: ارجع إلى مـولانا المنصور فقال: وما عسى أن يريد المنصور من شيخ مثلى، سألتك بالله أن تتركنى لطلب معيشتى؟ فقال له الـفارس: لا أفعل، ثم قدم به على المنصـور، ومثله بين يديه - وهو جالس لم ينم ليلته تلك، فقـال المنصور للصقالبة: فتشـوه، ففتش فلم يوجد عنده شيء، فقال: فـتشوا برذعة حمـاره، فوجدوا داخلها كـتابا من نصارى كانوا قد نزعوا إلى المنصور يخدمون عنده إلى أصحابهم من النصارى. ليقبلوا ويضربوا فى إحدى النواحى المعلومة، فلمـا انبلج الصبح، أمر بإخراج أولئك النصارى إلى باب الزاهرة، فضربت أعناقهم، وضربت رقبة الشيخ معهم.

ومن ذلك[1]، قصة الجوهرى التاجر، وذلك أن رجلا جوهريا من تجار المشرق، قصـد المنصور من مدينة عدن بجوهر كثـير، وأحجار نفيسـة، فأخذ المنصور من ذلك مـا استـحسنه، ودفع إلى التاجـر الجوهرى صـرته، وكانت قطعة يمسانية، فأخذ التـاجر فى انصرافه طريق الرملة على شط النهـر، فلما توسطها - واليـوم قائظ وعرقـه منصب - دعته نفـسه إلى التبـرد فى النهر، فوضع ثيابه وتلك الصرة على الشط، فمرت حدأة، فـاختطفت الصرة تحسبها لحما، وصاعدت فى الأفق ذاهبة، فقطعت الأفق الذى تنظر إليه عين الناجر، فقـامت قيامـته، وعلم أنه لا يقـدر أن يستدفع ذلك بحـيلة فأسـر الحزن فى

(١) نفح الطيب ١/ ٤١٢، والبيان المغرب ٢/ ٢٩١.

نفسه، ولحقه لأجل ذلك علة اضطرب فيها، وحضر الدفع إلى التجار، فحضر الرجل لذلك بنفسه، فاستبان للمنصور ما بالرجل من المهانة والكآبة، وفقد ما كان عنده من النشاط وشدة العارضة، فسأله المنصور عن شأنه، فأعلمه بقصته، فقال له: هلا أتيت إلينا بحدثان وقوع الأمر، فكنا نستظهر على الحيلة، فهل هديت لى الناحية التى أخذ الطائر إليها؟ قال: مر مشرقا على سمت هذا الجبل الذى يلى قصرك - يعنى الرملة، فدعا المنصور شرطيه الخاص به، فقال له: جئنى بمشيخة أهل الرملة - الساعة، فمضى وجاء بهم سريعا، فأمرهم بالبحث عَمَّن غير حال الإقلال منهم - سريعا، وانتقل عن الإضاقة دون تدريج، فتناظروا فى ذلك، ثم قالوا: يا مولانا، ما نعلم إلا رجلا من ضعفائنا كان يعمل هو وأولاده بأيديهم، ويتناولون السبق بأقدامهم عجزا عن شراء دابة، فاتباع اليوم دابة، واكتسى هو وولده كسوة متوسطة، فأمر بإحضاره من الغد، وأمر التاجر بالغدو إلى الباب، فحضر الرجل بعينه بين يدى المنصور، فاستنداه - والتاجر حاضر، وقال له: سبب ضاع منا وسقط إليك، ما فعلت به؟ قال: يا مولاى، وضرب بيده إلى حجزة سراويله، فأخرج الصرة بعينها، فصاح التاجر طربا، وكاد يطير فرحا، فقال له المنصور: صف لى حديثها، فقال: بينا أنا أعمل فى جنانى تحت نخلة، إذ سقطت أمامى، فأخذتها وراقنى منظرها، فقلت: إن الطائر اختلسها من قصرك لقرب الجوار، فاحترزت بها ودعتنى فاقتى إلى أخذ عشرة مثاقيل عيونا كانت معها مصرورة، وقلت: أقل ما يكون فى كرم مولاى أن يسمح لى بها، فأعجب المنصور ما كان منه، وقال للتاجر: خذ صرتك وانظرها، واصدقنى عن عددها، ففعل، وقال: وحق رأسك يا مولاى ما ضاع منها شىء، سوى الدنانير التى ذكرها، وقد وهبتها له: فقال له المنصور: نحن أولى بذلك

منك، ولا ننغص عليك فرحك، ولولا جمعه بين الإصرار والإقرار، لكان ثوابه موفورا عليه، ثم أمر للتاجر بعشرة دنانير - عوضا عن دنانيره، وللجنان بعشرة دنانير - ثوابا لتأنيه عن فساد ما وقع بيده وقال: لو بدأنا بالاعتراف قبل البحث، لأوسعناه جزاء، قال: فأخذ التاجر فى الثناء على المنصور، وقد عاوده نشاطه، وقال: والله لأبثن فى الأقطار عظيم ملكك، ولأبيّنَنّ(1) أنك تملك طير عملك، كما تملك إنسها، فلا تعتصم منك، ولا تؤذى جارك، فضحك المنصور وقال: اقصد فى قولك، يغفر الله لك، فعجب الناس من تلطف المنصور فى أمره، وحيلته فى تفريج كربته - انتهى.

ثم حكى(2) هذا المؤرخ من أخبار المنصور جملة، ثم وصف غزوته لمدينة شَنْت يَاقُب قاصية غليسية، وأعظم مشاهد النصارى الكائنة ببلاد الأندلس، وما يتصل بها من الأرض الكبيرة، وكانت كنيستها عندهم - بمنزلة الكعبة عندنا، فَبِها(3) يحلفون، وإليها يحجون من أقصى بلاد رومة وما وراءها، وسزعمون أن القبر المزور فيها قبر ياقوب الحوارى، أحد الاثنى عشر، وكان أخصهم بعيسى - على نبينا وعليه الصلاة والسلام، وهم يسمونه أخاه للزومه إياه، إلى أن قال: وياقب بلسانهم يعقوب، وكان أسقفا ببيت المقدس، فجعل يستقرئ الأرضين، داعيا لمن فيها، حتى انتهى إلى هذه القاصية، ثم عاد إلى أرض الشام، فمات بها وله مائة وعشرون سنة شمسية، فاحتمل أصحابه رمته، فدفنوه بهذه الكنيسة التى كانت أقصى أثره، ولم يطمع أحد من ملوك الإسلام فى قصدها، ولا الوصول إليها، لصعوبة مدخلها، وخشونة مكانها، وبعد شقتها، فخرج المنصور إليها من قرطبة -

---

(1) هذا المثبت من البيان المغرب، والذى فى المطبوع: «ولا بين».

(2) نفح الطيب ١/ ٤١٣، والبيان المغرب ٢/ ٢٩٤.

(3) هذا المثبت من البيان المغرب، والذى فى المطبوع: «فيها».

غازيا بالصائفة يوم السبت لست بقين من جمادى الأخيرة سنة سبع وثمانين وثلاثمائة، وهى غزوته الثامنة والأربعون، ودخل على مدينة قورية فلما وصل إلى مدينة غَلِيسيَّة. وافاه عدد عظيم من القوامس(١)، المتمسكين بالطاعة فى رجالهم، وعلى أتم احتفالهم، فصاروا فى عسكر المسلمين، وركبوا فى المغاورة سبيلهم، وقد كان المنصور تقدم فى إنشاء أسطول كبير فى الموضع المعروف بقصر أبى دانس من ساحل غرب الأندلس، وجهزه برجاله البحريين، وصنوف المترجلين، وحمل الأقوات والأطعمة، والعدد والأسلحة، استظهارا على نفوذ العزيمة، إلى أن خرج بموضع برتقال على نهر دويرة، فدخل فى النهر إلى المكان الذى عمل المنصور على العبور منه، فعقد هنالك من هذا الأسطول جسرا بقرب الحصن الذى هنالك، ووجه المنصور ما كان فيه من الميرة إلى الجند، فتوسعوا فى التزود منه إلى أرض العدو، ثم نهض يريد شَنْت ياقُوب، فقطع أرضين متباعدة الأقطار، وقطع بالعبور عدة أنهار كبار، وخلجان يمدها البحر الأخضر، ثم أفضى العسكر بعد ذلك إلى بسائط جليلة من بلاد فلطارش وما يتصل بها، ثم أفضى إلى جبل شامخ، شديد الوعر، لا مسلك فيه ولا طريق، لم يهتد الأدلاء إلى سواه، فقدم المنصور الفعلة بالحديد لتوسعه شعابه، وتسهيل مسالكه، فقطعه العسكر، وعبروا بعده وادى مِنْيُهْ.

وانبسط(٢) المسلمون بعد ذلك فى بسائط عريضة، وأرضين أريضة، وانتهت مَغِيرتُهم إلى دَيْر قَسْطان، وبسيط بلنبو على البحر المحيط، وفتحوا حصن شَنْت بَلاَيُه وغنموه وعبروا - سباحة - إلى جزيرة من البحر المحيط،

(١) هذا المثبت من البيان المغرب، والذى فى المطبوع: «القوامِيس».

(٢) نفح الطيب ١/ ٤١٥، والبيان المغرب ٢/ ٢٩٥.

لجأ إليهــا خلق عظيم من أهل تلك النواحى، فسبــوا من فيها ممن لجــأ إليها، وانتهى الـعسكر إلى جبل مـراسيــة، المتصل مراكــز جهــاته بالبحـر المحيط، فتخللوا أقطاره، واستخرجوا من كان فيه، وحازوا غنائمه، ثم أجاز المسلمون بعد هذا - خليج لورقى فى معبرين، أرشــد الأدِلاَّءُ إليهما، ثم نهر ايله، ثم أفضوا إلى بســائط واسعة العمارة، كـثيرة الفائدة، ثم انتــهوا إلى موضع من مشاهد ياقب صاحب القبر تلو مشهد قبره - عند النصارى فى الفضل، يقصد نساكــهم له من أقصى بلادهم، ومن بلاد الـقبط والنوبة وغيـرهما، فـغادره المسلمون قاعا، وكان النزول بعـده على مدينة شنت ياقب البائسة، وذلك يوم الأربعاء لليلتــين خلتا من شعـبان فوجدها المسلمـون خالية من أهلها، فـحاز المسلمون غنائمهــا، وهدموا مصانعهــا وأسوارها، وكنيستهــا، وعفوا آثارها، ووكل المنصور بـقبر ياقب من يحـفظه ويدفع الأذى عنه، وكانت مـصانعـها بديعة، محكمــة، فغودرت هشيما كأن لـم تغن بالأمس، وانـتسفت بعد ذلك سائر البســائط، وانتهت الجيوش إلى جزيرة شَنْت مــانكش منقطع هذا الصقع على البحر المحيط، وهى غاية لم يبلغها قــبلهم مسلم، ولا وطئها لغير أهلها قدم، فلم يكن بعدها لــلخيل مجال، ولا وراءها انتقــال، وانكفأ المنصور عن باب شَنْت ياقوب، وقـد بلغ غاية لم يبلغــها مسلم قــبله، فجـعل فى طريقه القصد على عمل برمند بزاردون، ليستقريه عائثا ومفسدا، حتى وقع فى عمل القَوَامِس المعاهدين الذين فى عـسكره، فأمر بالكف عنها، ومر مـجتازا حتى خرج إلى حصن مليـقة من افتتــاحه، فأجاز هنالك القوامس بجـملتهم على أقدارهم، وكساهم وكسا رجــالهم، وصرفهم إلى بلادهم، وكتب بالفتح من مليبقــة، وكان مبلغ ما كساه فى غـزاته هذه لملوك الروم ولمن حسن غناؤه من المسلمين، ألفــين ومائتيــن وخمسا وثـمانين شقــة من صنوف الخز الطرازى،

وإحدى وعـشرين كساء من صـوف البحر، وكسـائين عنبريين، وأحد عـشر سقلطونا، وخمس عشرة مريشـات، وسبعة أنماط ديباج وثوبين ديباج رومى، وفروى فنك،ووافى جميع العسكر - قرطبة غانما، وعظمت النعمة والمنة على المسلمين، ولم يجد بشنت ياقب - إلا شيخـا من الرهبان جالسا على القبر، فسأله عن مقامه، فقال: أؤنس يعقوب، فأمر بالكف عنه.

ثم قال هذا المؤرخ[1] - بعد كلام، وحدث شُـعْلَة قال: قلت للمنصور ليلة طال فيها سـهره: قد أفرط مولانا فى السهر، وبدنه يحـتاج إلى أكثر من هذا النوم - وهو أعلم بما يحركـه عدم النوم من علة العصب، فـقال لى: يا شعلة، الملك لا ينام إذا نامت الرعـية، ولو استوفـيت نومى، لما كان فى دور هذا البلد العظيم عين نائمة.

وكان المنصور[2] يزرع فى كل سنة - ألف مدى من الشـعير - قصـيلا لدوابه الخاصة به، وكان إذا قدم من كل غـزوة من غزواته، لا يحل عن نفسه حتى يدعو صاحب الخـيل، فيعلمه ما مات منها ومـا عاش، وصاحب الأبنية فيعلمه بما وَهَى من أسـواره ومبانيه[3]، وقصوره ودوره، وكان له دخالة فى كل يوم اثنى عشر ألف رطل من اللحم، حاشا الصيد والطير والحيتان، وكان يصنع فى كل عام اثنى عشر ألف ترس عامرية لقصر الزاهرة والزهراء، وابتنى على طريق المبـاهاة والفـخـامة - مـدينة الزاهرة، ذات القـصـور والمتنزهات المخترعة، كمنية السرور وغيرها من مناشئه البديعة، ثم قال هذا المؤرخ - بعد كلام - وعند فـراغه من بناء الزاهرة، غزا غزوة، أبعـد فيها الإيغـال، وغال

(١) نفح الطيب ١/٤١٦، والبيان المغرب ٢/٢٩٨.

(٢) نفح الطيب ١/ ٥٨٤، والبيان المغرب ٢/٢٩٨.

(٣) هذا المثـبت لدى ابـن عـذارى فى البـيـان المغـرب الذى ينقل عنه المـصنف، والذى فى المطبوع: «وصاحب الأبنية لما وهى من أسواره».

فيها من عظماء الروم من غال، وحل من أرضهم ما لم يطرق، وراع منهم ما لم يرع قط ولم يفرق، وصدر صدرا سما به على كل حسناء عقيلة، وجلى به كل صفحة للحسن صقيلة، ودخل قرطبة دخولا لم يعهد، وشهد له فيها يوم لم يشهد، وكان ابن شهيد متخلفا عن هذه الغزوة لنقرس عداه عائده، وحداه منتجعه ورائده، وابن شهيد هذا أحد حجاب الناصر، وله على ابن أبى عامر أيادى محكمة الأواصر، وكان كثيرا ما يتحفه، ويصله ويلطفه، فلما صدر المنصور من غزوته هذه نسى متاحفته، وأغفل ملاطفته، فكتب إليه ابن شهيد:

أنا شيخ والشيخ يهوى الصبايا ... يا لنفس تقيك صرف الرزايا[1]
ورسول الإله أسهم فى الفى ... ء لمن لم يجد فيه المطايا
فاجعلنى - فديت - أشكر معرو ... فك وابعث به عذاب الثنايا

فبعث[2] إليه بعقيلة من عقائل الروم يكنفها ثلاث جوار. كأنهن نجوم سوار، وكتب إليه:

قد بعثنا بها كشمس النهار ... فى ثلاث من المها أبكار
فاجتهد واتئد فإنك شيخ ... خفى الليل عن بياض النهار
صانك الله من كلالك فيها ... فمن العار كلة المسمار

فكتب إليه ابن شهيد[3]:

قد فضضنا ختام ذاك السوار ... واصطبغنا من النجيع الجارى

(١) نفح الطيب ١/ ٥٨٥، والبيان المغرب ٢/ ٣٠٠.
(٢) نفح الطيب ١/ ٥٨٦، والبيان المغرب ٢/ ٣٠٠.
(٣) نفح الطيب ١/ ٥٨٦، والبيان المغرب ٢/ ٣٠٠.

ونعـــــمنا فـى ظل أنـعم لـيل ولهـــونـا بالبـــدر ثـم الدرارى

وقـضى الشيخ مـا قـضى بحسـام ذى مـضـاء عـضب الـظبـا بتـار

فـاصطنعـه فليس يجـزيك كـفـرا واتخــذه سـيــفـا على الكـفـار

انتهى ما انتحيناه من كـلام هذا المؤرخ، وأظن أن بعضه من كلام الفتح كقضية ابن شهيد هذه[1]، فإنها لا تبعد عن مساقه - والله أعلم.

وأخـبار المنصـور بن أبى عامـر، طبـقت الأقطار، وطارت كل مطار، وتعدادها تضيق عنه الأسـفار، خصوصا ما لـه على الكفار، ولذا كتب على قبره[2]:

آثاره تـنبـــيك عن أخـــبـــاره حـــتى كـــأنك بـالعـــيـــان تراه

تالله مـــا يـأتى الزمـــان بمثـله أبدا ولا يحـــمى الثـغـــور سـواه

وقد حكـى صاحب «الزهرات المنثـورة فى الأخبـار المأثورة» كثـيرا من محاسن المنصور بن أبى عامر، فمن ذلك قوله فى الزهرة الثامنة والعشرين ما نصه:

حكى أبو العلى صاعد اللـغوى قال: جمعت خرق الأكـياس، والصرر التى قبضت فيها صلات المنصور محمد بن أبى عامر، فقطعت لكافور الأسود غلامى منها قميصا كالمرقعة، وبكرت به معى إلى قصر المنصور، فاحتلت فى تنشيطه حتى طابت نفسه، فقلت: يا مولانا، لـعبدك حاجة، فقال: اذكرها، قلت: وصول غلامـى كافور إلى هنا، فقال: وعلى هـذه الحال؟! فقلت: لا أقنع بسواه إلا بحضوره بين يديك، فقـال: أدخلوه، فمثل قائما بين يديه فى مرقعته، وهو كـالنخلة إشرافا، فقال: قد حضر - وإنه لباذئ الهـيئة، فمالك

(١) الأخبار التـى سيقت فى الصفـحات السابقة موجـودة بنصها لدى ابن عذارى فـى البيان المغرب كما أشرت إلى ذلك.

(٢) البيان المغرب ٢/ ٣٠١.

أضعته؟ فقلت: يا مولانا، هناك الفائدة، إعلم يا مولاى أنك وهبت لى اليوم ملء جلد كـافور مالا، فـتهلل وقـال: لله درك من شاكـر مستنبـط لغوامض معانى الشكر، وأمر لى بمال واسع وكسوة، وكسا كافوراً أحسن كسوة.

وفى التاسعة والعشرين ما نصه: تقدم إلى الحاجب المنصور بن أبى عامر وانزمـار ابن أبى بكر البـرزالى. أحـد جند المغـاربة - وقـد جلس للعـرض والتمييز - والميدان غاص بالناس، فقال له بكلام يضحك الثكلى: يا مولاى، ما لى ولك، أسكنىّ، فـإنى فى الفحص، فقال: ومـا ذلك يا وانزمار؟ وأين دارك الواسعة الأقطار؟ فقال: أخرجتنى - والله - نعمتك، أعطنى من الضياع ما انصب على منهـا من الأطعمة مـا ملأ بيوتى وأخـرجنى عنها، وأنا بربرى مجوع. حديث العهـد بالبؤس، أترى لى أن أبعد القمح عنى، ليس ذاك من رأيى، فتطلق المنصور، وقال: لله درك من فـذ عَيِىّ، لعلك فى شكر النعمة، أبلغ عندنا، وآخذ بقلوبنا، من كـلام كل أشدق متزيد، وبليغ مـفتن، وأقبل على من حوله من أهل الأندلس، فقال: يا أصحابنا، كذا فلتشكروا الأيادى، وتستديمـوا النعم، لا ما أنتم عليه من الجحد اللازم، والتـشكى المبرح، وأمر له بأفضل المنازل الخالية[1].

وفى الموفية ثلاثين ما نصه، أصبح المنصور بن أبـى عامر صبيحة أحد، وكان يوم راحة الخدمـة الذين أعفوا فيه عن قصـد الخدمة فى مطر وابل غب أيام مثله، فـقال: هذا يوم لا عـهد بمثله، ولا حـيلة للمواطنين لقـصدنا فى مكابدته، فليت شعرى، هل شذ أحد منهم عن التقدير، فأغرب فى البكور، أخرج وتأمـل - يقوله - لحاجـبه - فـخرج وعـاد إليه - ضاحكـا وقال: يا

(١) نفح الطيب ج١ ص ٤١٧.

مـولاى، على البـاب ثلاثة رهط من البـرابرة، أبو الناس بن صـالح، واثنان مـعه، وهم بحـال من البلل، إنما توصـف بالمشاهدة، فـقـال: أوصلهم إلى وعـجل، فدخلوا عليـه فى حـال الملاح بللا ونداوة، فـضحك إليـهم وأدنى مجلسهم وقال: خبرونى كـيف جئتم، وعلى أى حال وصلتم - وقد استكان كل ذى روح فى كنه، ولاذ كل طائر بوكـره، فقال له أبو النـاس بكلامه: يا مولانا، ليس كل التجـار قعد عن سوقه، وإذا عـذر التجار على طلب الربح بالفلوس، فنحن أعذر بإدراكها بالبدر، ومن غير رءوس أموال، وهـم يتناوبون الأسواق على أقدامهم ويذيلون فى قصدها ثيابهم، ونحن نأتيك على خيلك، ونذيل على صهواتها ملابسك، ونجعل الفضل فى قصدك مضمونا، إذا جعله أؤلئك طمعا ورجاء، فترى لنا أن نجلس عن سـوقنا هذه؟ فضحك محمد بن أبى عامـر، ودعا بالكـسى والصلات، فـرفعت لهم وانصـرفوا - مـسرورين بغدوتهم[1].

وفى الزهرة الرابعة والأربعين ما نصه: كـان بقرطبة على عهد الحاجب المنصور محـمد بن أبى عامر فتى من أهل الأدب قـد رثت حاله فى الطلب، فتـعلق بكتاب العـمل، واختلف إلى الخزانة مـدة حتى قلد بعض الأعـمال، فاسـتهلك كـثيـرا من المال، فلما ضم إلى الحـساب، أبرز علـيه ثلاث آلاف دينار، فرجع خبـره إلى المنصور، فأمر بإحضـاره، فلما مثل بين يديه. ولزم الإقرار بمـا برز عليه، قـال له: يا فاسق، مـا الذى جرأك على مـال السلطان تنتهبه؟ قال قضاء غلب الرأى وفـقر أفسد الأمانة، قال: والله لأجعلنك نكالا لغيـرك، ليحضـر كبل وحـداد، فأحضـرا، فكبل الفتى وقـال: احملوه إلى السجن، وأمر الضاغط بامتحانه، والشدة عليه، فلما قام، أنشأ يقول:

---

(١) نفح الطيب ١/٤١٧.

أواه أواه وكـــــــم ذا أرى   أكـــثـــر مـن تذكــــار أواه

مـــا لامــرئ حـــول ولا قــوة   الحــــــول والـقـــــــوة لله

فقال المنصور: ردوه، فلمـا رد، قال: أتمثلت أم قلت؟ قال: بل قلت: فقال: حلوا عنه كبله، فلما حل عنه، أنشأ يقول:

أمـــا ترى عــفــو أبى عـــامــر   لابد أن تـتـــبـــــعــــه - مـنه

كـــذلك الله إذا مـــا عــفـــا   عن عـــبـــده أدخله - الجـنة

قال: فأمر بإطلاقه، وسوغه ذلك المال، وأبرأه من التبعة فيه[١].

وفى الخامسة والأربعين ما نصه: عرض على المنصور بن أبى عامر اسم أحد خدامه فـى جملة من طال سجنه، وكان شديد الحقـد عليه، فوقع على اسمـه بأن لا سـبيل إلى إطلاقـه، حتى يلحق بأمـه الهاوية، وعـرف الرجل بتوقيعه، فاغتم وأجهـد نفسه فى الدعاء والمناجاة، وأرق المنصور بن أبى عامر من أثر ذلك، واسـتدعى النوم، فلم يقدر عليـه، وكان يأتيه عـند تنويمه آت كريه الشـخص عنيف الأخذ، يأمره بإطلاق الرجل، ويتـوعده على حبـسه، فاسـتدفـع شأنه مـرارا، إلى أن علم أنه نذير من ربه، فانـقاد لأمـره، ودعا بالدواة فى مـرقده، فكتب بإطلاقه، وقـال فى كتـابه: هذا طليق الله - على رغم أنف ابن أبى عامر، وتحدث الناس زمانا بما كان منه[٢].

وفى الثـامنة والأربعين مـا نصه: انـتهت هيـبة المنصـور بن أبى عامـر وضبطه للجند، واستخدام ذكـور الرجال، وقوام الملك - إلى غاية لم يصلها

(١) نفح الطيب ٤١٨/١.

(٢) نفح الطيب ٤١٩/١.

ملك قبله، فكانت مواقفهم فى الميدان على احتفاله مثلا فى الإطراق، حتى إن الخيل لتتمثل إطراق فرسانها، فلا تكثر الصهيل والحمحمة، ولقد وقعت عينه على بارقة سيف قد سله بعض الجند بأقصى الميدان لهزل أو جد، بحيث ظن أن لحظ المنصور لا يناله، فقال: على بشاهر السيف، فمثل بين يديه لوقته، فقال: ما حملك على أن شهرت سيفك فى مكان لا يشهر فيه إل عن إذن؟ فقال: إنى أشرت به على صاحبى - مغمدا، فذلق من غمده، فقال: إن مثل هذا لا يسوغ بالدعوى، وأمر به فضربت عنقه بسيفه، وطيف برأسه، ونودى بذنبه[1].

انتهى ما تعلق به الغرض من أخبار المنصور، وأنشدنى بعض الكتاب من أهل قسمطينة - المحروسة بالله - لبعض الأقدمين قوله:

حدثنا عرف نسيم الصبا عن بان نجد عن ربى حاجر
عن سمرات الحى عن عالج عن سر ذلك المبسم العاطر
قالوا سمعنا طائرا بالحمى ينشد بيت ابن أبى عامر
ما أقبح السلوان من عاشق وما ألذ الوصل من هاجر!

وأظنه ابن أبى عامر الذكور، وأنه قال ذلك البيت، فوطأ له هذا الشاعر بالثلاثة الأبيات - والله أعلم.

ثم بعد مدة رأيت فى عدة مصنفات رواية البيت هكذا:

(ينشد بيتا لبنى عامر) - فالله أعلم.

(١) نفح الطيب ١/ ٤١٩.

ورأيت فى كتاب الزهرات المنثورة المذكورة آنفـا، من غير أخبار ابن أبى عامر.. فى الزهرة الرابعـة والستين ما نصه: لما قبض على الوزيـر أبى جعفر ابن عبد الملك بن سعيـد العنسى، وثقف بمالقة، دخل إليه ابن عمه، ووصل إلى الاجتماع به - ريثـما استؤذن السيد أبو سعيد ابن الخليـفة عبد المؤمن فى أمره، قال: فـدمعت عيناى حين رأيتـه مكبولا، فقال: أعلى تبـكى - بعدما بلغت من الدنيا أطايب لذتها: فأكلت صدور الدجاج، وشربت فى الزجاج، ولبست الديباج، وتمتعت بالسرارى والأزواج، واسـتعملت من الشمع السراج الوهاج، وركبـت كل هملاج، وهأنا فى يد الحـجاج، منتظر مـحنة الحلاج، قادم علـى غافر لا يحـتاج، إلى اعـتذار ولا احـتجـاج، قال: فقـلت: أفلا يؤسف على من ينطـق بمثل هذا الكلام، ثم يفـقد، وقـمت عنه فكان آخـر العهد به. انتهى.

ولنعد إلى ما كنا فيه من سرد بعض كلام الفتح فنقول: قال فى الأوراق التى رأيت من المطمح - بعد ترجمـة المعتصم بن صمادح، وتحليـته إياه بعين ماله فى القلائد، ما نصه[(١)]: ابنه عز الدولة أبو مروان عبد الله - رحمه الله، فتى الراح، المعـاقر لدنانها، المهتـصر لأغصان الفـتوة وأفنانها، المهجـر لفلاة الظباء والآرام، المشهر فى بـاب الصبابة والغرام[(٢)]، نشأ فى حجـر أبيه نديم قهـوة، ومديم صبـوة، وخديم شهـوة، لا يريم كأسا، ولا يروم إلا اقـتضى انتكاسا، ما شـهد قتلا ولا قتـالا، ولا تقلد صارما إلا مخـتالا، قد أمن منه جنان الجبـان، وعدت له غصون البـان، وما زال مرتضعـا لأخلاف البطالة، مقـتطعا ما شـاء من إطالة، متوغـلا فى شعاب الفُـتَّاك، متـغلغلا فى طريق الانتهاك - إلى أن وجهه أبوه إلى أمير المسلمين - سفيرا عندما بدت له وجوه

---

(١) نفح الطيب ٧/ ٤٠.

(٢) هذا الصواب من نفح الطيب، والذى فى المطبوع: «الغرم».

الفتنة تسفر، ومعاهد الهدنة تقفر، مع أكامل أصحبهم نقصانه، وذوى أديان جعلهم خلصانة، يسمعون بوادر بذاذته، وينظرون مناكر لذاذته، فآلت سفرته إلى الاعتقال، وقصرت نخوته ما بين قيد وعقال، فجاء كالمهر لا يعرف لجاما، وصار حبيس قوم لا يألونه استعجاما، وحين شالت نعامته، وسالت عليه ظلامته، كتب إلى أبيه:

أبعد السنا والمعالى خمول ... وبعد ركوب المذاكى كبول

ومن بعد ما كنت حرا عزيزا ... أنا اليوم عبد أسير ذليل

حللت رسولا بغرناطة ... فحل بها فِيَّ خطب جليل

وثقفت إذ جئتها مرسلا ... وقلبى كان يعز الرسول

فقدت ألمرية أكرم بها ... فما للوصل إليها سبيل(١)

فراجعه أبوه بقطعة، منها:

عزيز على ونوحى دليل ... على ما أقاسى ودمعى يسيل

وقطعت البيض أغمادها ... وشقت بنود وناحت طبول

لئن كنت يعقوب فى حزنه ... ويوسف أنت فصير جميل(٢)

ولم يزل يتحيل فى تخلصه، وأخذه من يد مقتنصه، فَسُرِق - وحراسه منه بمكان السلك من النحر، وطرق به على ثَبَج البحر، فوافى ألمرية، وقد أخذ البحث عليه آفاق البرية، فهنئ المعتصم بخلاصه، وبقى مستقراً

(١) نفح الطيب ٧/ ٤١.

(٢) نفح الطيب ٧/ ٤١.

بعراصه، إلى أن أخلوها، ومضوا لمطية ما نووها، فنجا أخوه إلى حيث ذكرنا من بلاد الناصر، ولجأ هو إلى أحد المرابطين لأذِمّة كانت بينهما وأواصر، وأقام معه سمير لهوه - وأمير سهوه - إلى أن انقرض أمده، وطواه سروره لأكمده، فلم ير إلا خالعا لعذاره، طالعا من ثياب اغترارة، غير مكترث باتضاعه، ولا منحرف عن ارتشاف الغى وارتضاعه، وبدا منه فى هذه الحال ندى كاثر به السحاب، وظاهر بسببه الأصحاب، وتخدم الأوطار، وتقدم لذوى الرتب فيها والأخطار، تقدما حَسّن من ذكره[1]، وأولعا الألسن بشكره، فارتفع عنه الكدح، وشفع له فى الذم ذلك المدح، وكان نظمه بديع الوصف، رفيع الرصف، وقد أثبت له ما يشهد بإجادته وإحسانه، شهادة الروض بجود نيسانه[2].

أخبرنى[3] ابن القطان أنه ساير الأمير يحيى بن أبى بكر إلى طليطلة فى جيوش فاضت سيلا، وخاضت المطايا قتامها ليلا، وكان ملكا لم يعقد على مثله لواء، ولم يحتو على شبهه حواء، جمال محيا، وكمال عليا، وحسن شيم، وبعد همم، أغنى العفاة، وأحيا الرفاة، وألغى الأجواد، وأنسى كعب ابن مامة وابن أبى دُؤد، فلما شارف طليطلة وكشفها، واشتف بلالتها وارتشفها، وضرب بكنفها مضاربه، وأجال بساحتها زنجه وأعاربه، سقط أحد ألويته عن يد حامله، وانكسر عند عامله، فطائفة تفاءلت، وطائفة تطيرت، وفرقة ابتهجت، وأخرى تغيرت، فقال:

(١) فى المطبوع: «والأخطار، حسنا من ذكره» والمثبت رواية نفح الطيب.
(٢) نفح الطيب ٧/ ٤١.
(٣) نفح الطيب ٧/ ٤٢.

لم ينكسر عود اللواء لطيرة يخشى عليك بها وأن تتأولا
لكن تحقق أنه يندق فى نحر العدو لدى الوغى فتعجلا[1]

وأخبرنى[2] أخوه رفيع الدولة أن ابن اللبانة، كتب إليه - والخلع قد نضا لبوسه، وقصر بوسه، وكدر صفاءه، وغدر وفاءه، وطوى ميدان جوده، وأذوى أفنان وجوده:

يا ذا الذى هز أمداحى بحيلته وعزه أن يهز المجد والكرما
واديك لا زرع فيه اليوم تبذله فخذ عليه لأيام المنى سلما

فدعته دواعى الندى، وأولعته بالجدا فى ذلك المدى، فتحيل فى بر طبعه، وكتب معه:

المجد يخجل من نقد يك فى زمن ثناه عن واجب البر الذى علما
فدونك النزر من مصف مودته حتى يوفيك أيام المنى سلما[3]

ابنه الثانى رفيع الدولة أبو يحيى بن المعتصم[4] من بيت إمارة. وإلى السعد طوافه بها واعتماره، عمرت أنديته، ونشرت به رايات العز وألويته، إلى أن خوى كوكبهم، وهوى مرقبهم، فتفرقوا أيادى سبا، وفرقوا من وقع الأسنة والظبى، وفارقوا أرضا كأرض غسان، ووافقوا أياما كيوم أهل اليمامة مع حسان، بعد ما خامرت النفوس مكارمهم مخامرة الرحيق، وأمهم الناس من كل مكان سحيق، وانتجعوا انتجاع الأنواء، واستطعموا فى المحل اللأواء، وصالوا بالدهر وسطوا، وبين النهى والأمر فيه خطوا، ورفيع الدولة هذا فخر

(١) نفح الطيب ٧/ ٤٢.
(٢) نفح الطيب ٧/ ٤٢.
(٣) نفح الطيب ٧/ ٤٢.
(٤) نفح الطيب ٧/ ٤٢.

ذلك الصباح، وضوء ذلك المصباح، وغصن تلك الدوحة، ونسيم تلك النفحة، لم يتمهن - والدهر قد بذله، ولا ترك الانتصار - والأمر قد خذله، فالتحف بالصون وارتدى، وراح على الانقباض واغتدى، فما تلقاه إلا سالكا جددا، ولا تراه إلا لابسا سؤددا، وله أدب كالروض المجود - إذا أزهر، ونظم كزهر التهائم والنجود، بل كالصبح إذا أسفر، أوقفه على النسيب وصرفه إلى المحبوبة والحبيب، فمن ذلك قوله[1]:

مالى وللبدر لم يسمع بزورته ... لعله ترك الإجمال أو جهرا
إن كان ذاك لذنب ما شعرت به ... فأكرم الناس من يعفو إذا قدرا

وقوله أيضا[2]:

يا عابد الرحمن كم ليلة ... أرقتنى وجدا ولم تشعر
إذ كنت كالغصن ثنته الصبا ... وصحن ذاك الخد لم يشعر

وقوله أيضا[3]:

وأهيف لا يلوى على عتب عاتب ... ويقضى علينا بالظنون الكواذب
يحكم فينا أمره فنطيعه ... ونحسب منه الحكم ضربة لازب

وقوله أيضا[4]:

وعلقته حلو الشمائل ما جنًا ... خنث الكلام مرنح الأعطاف
ما زلت أنصفه وأوجب حقه ... لكنه يأبى من الإنصاف

---

(١) نفح الطيب ٧/ ٤٣.
(٢) نفح الطيب ٧/ ٤٤.
(٣) نفح الطيب ٧/ ٤٤.
(٤) نفح الطيب ٧/ ٤٤.

وقوله أيضا:

حبيب متى ينأى عن القلب شخصه يكاد فؤادى أن يطير من البين
ويسكن ما بين الضلوع إذا بدا كأن على قلبى تمائم من عين[1]

وقوله أيضا:

أفدى أبا عمرو وإن كان جانيا على ذنوبا لا تعدد بالعتب
فما كان ذاك الود إلا كبارق أضاء لعينى ثم أظلم للقلب[2]

وله - وقد بلغه موتى، وتحقق عنده فوتى:

مثنى الوزارة قد أودى فما فعلت تلك المحابر والأقلام والطرس
ما كنت أحسب يوما قبل ميتته أن البلاغة والآداب تختلس[3]

واستأذن ليلة على أحد الأمراء - وأنا عنده فى أسنى موضع، وأبهى مطلع، وجوانب جنده بين يدى محتله، وسحائب رفده على منهله، وكان أجمل من مقل، وأكمل من من المهد إلى سرير الملك قد نقل[4].

انتهى ما ألفيته فى المطمح من هذا الموضع، وفى موضع آخر ما نصه:

أبو عامر ابن عقال، كان له ببنى قاسم تعلق، وفى سماء دولتهم تألق، فلما خوت نجومهم، وعفت رسومهم، انحط عن ذلك الخصوص، وسقط سقوط الطائر المقصوص، وتصرف بين وجود وعدم، وتحرف قاعدا حينا

---

(١) نفح الطيب ٧/ ٤٤.
(٢) نفح الطيب ٧/ ٤٤.
(٣) نفح الطيب ٧/ ٤٥.
(٤) نفح الطيب ٧/ ٤٥.

وحينا على قدم، وفى خلال حاليه، وأثناء انتحاله، لم يدع حظه من الحبيب، ولا ثنى لحظة عن الغزال الربيب، ولم يزل يطير ويقع، والدهر يخرق حاله ويرقع، إلى أن أرقاه الأمير إبراهيم بن يوسف بن تاشفين - رحمه الله - أعلى ربوة، وزاده أبهى حظوة: فأدرك عنده رتبة أعلام التحبير والإنشا، وترك الدهر قلق الحشا، وتسنم منزلة لا يتسمنها إلا من تطهر من درنه، وجمح إحسانه فى ميدان حرنه، والحظوظ أقسام لا تسام، والدنيا إنارة وإعتام[1].

ولو لم يعل إلا ذو محل   تعالى الجيش وانحط القتام[2]

وقد أثبت عنه بعض ما ألفيته، والذى أخذته مباين لما أبقيته، فمن ذلك:

يا ويح أجسام الأنا   م لما تطيق من الأذى
خلقت لتقوى بالغذا   ء وسقمها ذاك الغذا
وتنال أيام السلا   مة بالحياة تلذذا
فإذا انقضى زمن الصبا   ورمى المشيب فأنفذا
وجد السقام إلى المفا   صل والجوانح منفذا
ويقول مهما يعط شيـ   ـئا ناولونى غير ذا[3]

---

(١) نفح الطيب ٧/ ٤٦.

(٢) نفح الطيب ٧/ ٤٧.

(٣) نفح الطيب ٧/ ٤٧.

وحذا فى هذه القصيدة حذو الصابى فى قوله:

وجع المفاصل وهو أيـ ـسرما لقيت من الأذى
ردى الذى استحسنته والناس من حظى كذا
والعمر مثل الكاس ير سب فى أواخرها القذى[1]

وله يتعذر من زيارة اعتمدها، ومواصلة اعتقدها: فعاقته حوادث لوته. وعدته عن ذلك وثنته:

بينما كنت راجيا للقائه والتشفى بالبشر من تلقائه
وترقيت فى سماء نزاعى قمر الأنس طالعا من سمائه
إذ دهانى اعتراض خطب ثنانى عن غمام يشفى الغليل بمائه
فتدهلت وانزويت حياء منه والعذر واضح لسنائه[2]

وله فصل كتب به عن الأمير إبراهيم يصف إجازة أمير المسلمين البحر سنة خمس وخمسمائة - وفى الساعة الثانية من يوم الجمعة كان جوازه - أيده الله - من مرسى جزيرة طريف على بحر ساكن قد ذل بعد استصعابه، وسهل بعد أن رأى الشامخ من هضابه، وصار حيه ميتا، وهذره صمتا، وجباله لا ترى فيها عوجا ولا أمتا، وضعف تعاطيه، وعقد السلم بين موجه وشاطيه، فعبر آمنا من لهواته، متملكا لصهواته، على جواد يقطع الخرق سبحا، ويكاد يسبق البرق لمحا، لم يحمل لجاما ولا سراجا، ولا عهد غير اللجة الخضراء مرجا، عنانه فى رجله، وهدب العين يحكى بعض شكله، فلله هو من

(١) نفح الطيب ٧/ ٤٧.
(٢) نفح الطيب ٧/ ٤٨.

جواد، له جسم وليس له فؤاد، يخرق الهواء ولا يرهبه، ويركض الماء ولا يشربه[1].

أبو القاسم[2] المنيشى أحد أنشاء حضرة إشبيلية المقلين، الناهضين بأعباء الضرائر المستقلين، لم يعشو لكل ضوء وينتجع مصاب كل نوء، فيوما يخصب، ويوما يجدب، وآونة يفرح. وأخرى ينتدب - إلى أن صدقت مخائله، فرمقت بخوته ونخائله، وأتى من العجب، بمنسدل الحجب، ومن الأشر، لم يأت من بشر، وما تصرف إلا فى أنذل الأعمال، ولا تعرف إلى بأخون العمال، لم يفرع ربوة ظهور، ولم يقرع باب رجل مشهور، وله أدب ولسن، ومذهب فيهما يستحسن، لكنه نكب عن المقطع الجزل، وذهب مذهب الهزل، إلا فى النادر فربما جد، ثم أخلق منه ما استجد، وعاد إلى ديدنه، عودة أبى عباد إلى واواته ومدنه، وأخذ فى ذلك الغرض وليس شرط كتابى بذاءه، ولا أن يقف حذاءه، وقد أثبت له ما هو عندى نافق، ولغرض كتابى موافق، فمن ذلك قوله[3]:

يا روضة باتت الأنداء تخدمها ... أتى النسيم وهذا أول السحر
إن كان قدك غصنا فالثراء به ... هى الكمائم قد زرت على الزهر
إربأ بخديك عن ورد وعن زهر ... وأغن بقرطيك عن شمس وعن قمر
يا قاتل الله لحظى كم شقيت به ... من حيث كان نعيم الناس بالنظر

(١) نفح الطيب ٧/ ٤٨.
(٢) نفح الطيب ٧/ ٥٣.
(٣) نفح الطيب ٧/ ٥٤.

وله من رثاء فى والدتى[1] - رحمة الله عليها:

يا ناصحى غير مفتات ولى شجن		على النصائح والنصاح مفتات
لا أستجيب - ولو ناديت من كثب		قد وقذتنى تعلات وعلات
إن كان رأيك فى برى وتكرمتى		بحيث قد ظهرت منه علامات
لا ترضى لى غير شجو لا أفارقه		فذاك أختاره والناس أشتات

ومنها[2]:

ياذا الوزارة من مثنى وواحدة		لله ما اصطنعت منك الوزارات
لله منك أبا نصر أخو جلد		إذا ألمت ملمات مهمات
أستودع الله نورا ضمه كفن		كما توارى بدور التم هالات
قضت وليت شبابى كان موضعها		هيهات لو قضيت تلك اللبانات
مضت ولما يقم من دونها أحد		هلا وقد أعذرت فيها المروءات

وله يصف زرزورا[3]:

أمنبر ذاك أم قضيب		بفرعه مصقع خطيب
يختال فى بردتى شباب		لم يتوضح بها مشيب
كأنما ضمخت عليه		أبراده مسكة وطيب
أخرس لكنه فصيح		أبله لكنه لبيب

(١) نفح الطيب ٧/ ٥٤.
(٢) نفح الطيب ٧/ ٥٤.
(٣) نفح الطيب ٧/ ٥٥.

جـــــهم عـلى أنـه وســـــيم صـــــــعب عـلـى أنه أريـب

أبو الحسن البرقى[1] بلنسى الدار، نفيسى المقدار، ما سمعت له بشرف، ولا أعلمت له بسلف، ولا اطلعت منه علـى غير سـرف، ورد إشبيلـية سنة تسع وتسعين، واتصل بابن زهر، فناهيك من حظ فى أكنافه جال، ومن لحظ فيما أراده أجال، ومن أمل استوفـر، ومن وجه جاه له أسفر، سلك به ساحة الرغائب، وتملك بسببه إباحة الحاضر والغائب، وقال فما نبذت مقالته، وأقال فمـا قيـدت إقالتـه، وكان حلو المجـالسة، مـجلو المؤانسة، ذا شنـب وافر، ومذهب فى المسـاهمة سافـر، إلا أنه كان كلفا بالـفتيان، مـعنى بهم فى كل الأحيان، ونيف على السبعين - وهو برداء الصبـوة مرتد، وبعترها مقتد، مع أدب زهرته ترف، وكـأنه بحر والألبـا ب منه تغتـرف، وقد أبت له بعـض ما وجدت له فى الغلمان، وأنشدت له فى ذلك الزمان، فمن ذلك قوله[2]:

إن ذكـرت العـقـيق هاجك شـوق رب شـــوق يهـيـــجـه الادكـــار

يا خـليلى حـــــدثـانى عن الـركـ ـب سـحـيـرا أأنجـدوا أم أغـاروا

شـــــــغلـونا عـن الوداع وولـوا مـا عليـهـم لو ودعـوا ثم سـاروا

أنا أهــواهم عـلى كـل حـــــــال عـــدلـوا فى هواهم أم جـــــاروا

وعلق بإشبيلية فتى يعـرف بابن المكر، ومات من حبه طريحا بين أيدى الوساوس والفكر، لا يمشى إلا صـبا، ولا يفشى إلا غراما وحـبا، وما زال يقاسى لوعته، مقاساة يناجى بها صرعته، حتى اكتسى خده بالعذار، وامحت عنه مثل بهجة آذار، فسلا من كلفه، وتصدى ذلك لمواصلته بصلفة، فقال[3] :

(١) نفح الطيب ٧/ ٥٥.

(٢) نفح الطيب ٧/ ٥٦.

(٣) نفح الطيب ٧/ ٥٦.

الآن لما صـــوحت وجناته ... شـوكا وأضحت سلوة العشاق
واستوحشت منك المحاسن واكتست ... أنوار وجـهك واهن الأخـلاق
أمسيت تبذل فى الوصال تصنعا ... خلق اللئيم وشيمة المذاق
هلا وصلت إذ الشمائل قهوة ... وإذا المحيا روضة الأحداق
يا كم أطلت غرام قلب موجع ... كم قـد ألب إليك بالأشواق
مـا كنت إلا البدر ليلة تمه ... حـتى قضت لك ليلة بمحاق
لاح العـذرا فقلت وجـد نازح ... إن ابن داية مـؤذن بفـراق

وله فيه - مناقضا - لذلك الغرض، معارضا للوعة سلوه الذى كان عرض(١):

يلومـون فى ظبى تزايد حسنه ... بخطين خطا لوعتى وغراميا
وقد كنت أهوى خده وهو عاطل ... فكيف وقد أضحى لعينى حاليا

وله أيضا فى مثله(٢):

أجيل الطرف فى خد نضير ... يـردد ناظرى نظرى إليـه
إذا رمدت بحمرته جفونى ... شفاها منه إثمد عارضيه

أبو الحسن على بن جودى(٣). برز فى الفهم، وأحرز منه أوفر سهم، وواخى بنفس فى المعارف زكية، وعانى العلوم بقريحة ذكية، وله أدب واسع مداه، يانع كالروض بلله نداه، ونظم أرق من دمع العانى، ولطيف المعانى،

---

(١) نفح الطيب ٧/ ٥٦.
(٢) نفح الطيب ٧/ ٥٧.
(٣) نفح الطيب ٧/ ٥٧.

وأعبق من نفس الخمائل، فى أكف الصبا والشمائل، ونثر كالزهر المطول، أو السلك المحلول، إلا أنه سها فأسرف، وزها بما لا يعرف، وتصدى إلى الدين بالافتراء، ولم يراقب الله فى ذلك الاجتراء، واشتهرت عنه فى ذلك أقوال سدد إلى الملة نصالها، وأبدى بها ضلالها، فعظمت به المحنة، وكمنت له فى كل نفس إِحْنَة، وما زال يتدرج فيها وينتقل، حتى عثر وما كاد يستقل، فمر لا يلوى على تلك النواحى، وفر لا ينثنى إلا إلى لوائم ولواحى، وما زال يركب الأهوال ويخوضها، ويذلل النفس بها ويروضها، حتى أسمحت ببعض الإسماح، وكفت عن ذلك الجماح، فاستقر عند أبى مالك فآواه، ومهد له مثواه، وجعله فى جملة من اختص من المبطلين، واستخلص من المعطلين، فكثيرا ما يصطفيهم، ولا يدرى أيدخرهم أم يقتنيهم، وقد أثبت له ما يبهر سامعا، ويظهر برقا لامعا، فمن ذلك قوله(١):

أحن إلى ريح الشمال فإنها ... تذكرنا نجدا وما ذكرنا نجدا
تمر على ربع أقام به الهوى ... وبدل من أهليه جائمة ربدا
فيا ليت شعرى هلا تقضى لبانة ... فأرتشف اللميا واعتنق القدا
خليلى لا والله ما أحمل الهوى ... وإن كنت فى غير الهوى رجلا جلدا

وقوله أيضا(٢):

سل الركب عن نجد فإن تحية ... لساكن نجد قد تحملها الركب
وإلا فما بال المطى على الوجى ... خفافا وما للريح مرجعها رطب

---

(١) نفح الطيب ٧/ ٥٧.
(٢) نفح الطيب ٧/ ٥٨.

ومن قوله أيضا(١):

إذا ارتحلت غربية فاعرضا لها	فبالغرب من نهوى له البلد الغربا
لقد ساءنا أنا بعيد وأننَّا	بأرضين شتى لا مزارا ولا قربى
يفجعنا إما بعاد مبرح	وإما أمور باعثات لنا كربا
ظعنا على حكم الليالى وخطبها	فيا ليت لم ندر الليالى ولا الخطبا
وكنت أرجى الدهر بعد الذى مضى	ديارا وقربا والأصادق والصحبا
أحقا يسير الركب لم ترتحل بنا	إليك ولم تحد الحداة لنا ركبا

وقوله أيضا(٢):

سقى دارك اللائى ببطن محصب	مشاكيل من وفد الغمام المرنح
ألم تعلمى يا فتنة القلب أننى	تطارحت من حبى لكم كل مطرحى
إذا نعبت غربان دار وجدتنى	وشوقى مقيم بين ناء ونزح

وله أيضا(٣):

ألا خبر وللبلوى(٤) ضروب	وفيك لكل مشتاق حبيبُ
حباك الله بالنعمى فنونا	وجر لكم مع النعمى خطوب
متى تقضى بخسفتك الليالى	وتعصف فيكم ريح هبوب
فإنكم تجرون المنايا	وتعمر من مجانيكم قلوب

(١) نفح الطيب ٧/ ٥٨.
(٢) نفح الطيب ٧/ ٥٩.
(٣) نفح الطيب ٧/ ٥٩.
(٤) فى المطبوع: «ألا يا خبر» والمثبت رواية نفح الطيب.

انتهى ما وجـدت فى هذه الأوراق من مطمح الأنفس، وقد كنت على شك فى ذلك، فحين كتبتها تحققت أنها من كلام الفتح بلا ريب، ولم أرد - علم الله - بجلبـها هزلا جرى أثناءها، ولكن الكلام جـر إليه واتصل بعـضه ببعض، وأما نظم الفتح فلم يكن فى طبقة نثره، بل كان منحطا عنه، ولذلك قال ابن الخطيب وغير واحد إن شعره وسط.

قال فى الإحاطة: ومن شعره قوله - وثبت فى قلائده يخاطب أبا يحيى ابن الحاج[1]:

أَكَعْبَة عَلْيَاءٍ وهضبة سؤدد[2] - انتهى.

وهذه الأبيـات ذكرها فى القـلائد - فى ترجمـة ذى الوزارتين ابن أبى الخـصال، ولنورد تلك التـرجمـة بجمـلتهـا تماما للفـائدة، ونصهـا[3]: ذو الوزارتين الكاتب أبو عـبـد الله بن أبى الخصـال - أعزه الله - هو وإن كـان خامل المنشأ نازله. لم ينزله المجد منازلة، ولا فرع للعَلاَءِ هضابا، ولا ارتشف للسناء رضابا، فقد تميز بنفسه، وتحيز من جنسه، وظهر بذاته، وفخر بأدواته، والذى ألحفه بالمجـد، وأوقفه بالمكان النجد، ذكاء طبع عليـه طبعه، ونجم فى تربة النباهة غربه ونبعه، وتعلق بأبى يحـيى بن محمد بن الحاج - وهو خامل الذكر، عاطـل الفكر، فملك قياد مـأموله، وهب من مرقد خـموله، وقدح استعماله إِيّاه زناد ذكائه، وأبدى شعاع ذكـائه، ولم يزل عاثرا معه ومستقلا، ومثريا حينا وحينا مقـلا - إلى أن تورطوا فى تلك الفتنة التى ألقحوا حائلها،

(١) تحرف فى المطبوع إلى: «الحجاج» وصوابه من قلائد العقيان.

(٢) قلائد العقيان، ص ٥٣٠.

(٣) قلائد العقيان، ص ٥١٨.

وما لمحوا مخايلها، وطمعوا أن يغتالوا من أمير المسلمين، وناصر الدين - ملكا معصوما، وأبرموا من كيدهم ما غدا بيد القدر مفصوما، وفى أثناء بغيهم، وخلال جرمهم الوبيل وسعيهم، كانت ترد عليهم من قبله - أيده الله - كتب تحل ما ربطوه، وتروعهم مما تأبطوه، فلم يكن لهم بد من إدنائه، لحسن مراجعته عنهم وغنائه، فورد عليهم ليلة كتاب راعهم، وأنساهم جلادهم وقراعهم، وهم بمجلس أنس فصحوا من حمياه، ومحوا منه عبق الأنس ورياه: فاستدعاه فى ذلك الحين للمراجعة عن فصوله، والمعارضة لفروعه وأصوله، فأبان عن الغرض، وخلص جوهره من كل عرض، وأبدع فى إحكامه، وبرع فى قضاياه وأحكامه، فحمل أبا يحيى بن محمد استحسان ما كتبه، إن خططه للحين ولقبه، والمدام لرأيه الفائل مالكه، وبعقله فى طرق الخبال سالكه، فلم يعمل فيها فكرا، ولم يتأمل أعرفا أتى أم نكرا، فجرت عليه لقبا، وأعلته من الاشتهار مرقبا، وصار مرتسما فى العلية، متسما بتلك الحلبة، وما زالت الدول تستدنيه نائبا، وتنهيه دانيا، وما أجعله مجنيا عليه ولا جانيا، فما رفع شومه، ولا محو وشومه، وقد أثبت له ما تجتليه، فتستحيله، وتلمحه، فتستملحه، فمن ذلك قوله فى مغن زار، بعدما أغب وشط منه المزار[1].

وافى وقد عظمت على ذنوبه ... فى غيبه قبحت بها آثاره[2]

فمحا إساءته بها إحسانه ... واستغفرت لذنوبه أوتاره

وكتبتُ إليه[3] عندما وصل أمير المسلمين، وناصر الدين إلى إشبيلية، صادرا من غزوة طَلَبِيرة سنة ثلاث وخمسمائة ووصل فى جملته، ونزل

(١) قلائد العقيان، ص ٥٢٠.

(٢) قلائد العقيان، ص ٥٢١.

(٣) هذا الصواب من قلائد العقيان، ص ٥٢١ والذى فى المطبوع: «وكتب إلى».

بمحلته، واتفق لى شغل توالى واتـصل، إلى أن رحل أمير المؤمنين - أيده الله - وانفصل، فسألت عنه، فأعلمت أنه سار معه، ومـا فارق مجتمعه، فكتبت إليه - مستدعـيا من كلامه ما أثبته فى الديوان، وأنبته فيـه زهر بستان، فوافاه رسولى من البلد على مرحلة، فى ليلة من ضـياء البدر ممحلة، فكتب إلى - مراجعا - الحذر - أعزك الله - يؤتى من الثقة، والحبيب يُؤْذَى من المَقَة، وقد كنت أرضى من ودك - وهـو الصـبح - بلمـحـة، وأقنع مـن ثنائك - وهو المسك - بنفحة، فما زلت تعرضنى للامـتحان، وتطالبنى بالبرهان، وتأخذنى بالبيان، وأنا بنفـسى أعلم، وعلى مقدارى أحوط وأحزم، والمعـيدى يسمع به لا أن يرى، وإن وردت أخباره تترى، فشخصه مقتحم مزدرى، ولا سيما من لا يجلى ناطقـا، ولا يبرز سابقـا، فتـركه والظنون ترجـمه، والقـال والقيل يقسمه، والأوهام تحلـه وتحرمه، وتحييه وتختـرمه، أولى به من كشف القناع، والتخلف عن منزلة الامـتناع، وفى الوقت من فرسان، هذا الشـأن، وأذمار، هذا المضـمار، وقطان هـذه المنازل، وهداة تلك المجاهل، مـن تحسـد فقـره الكواكب، ويتـرجل إليه منهـا الراكب، فأمـا الأزاهر فملقـاة فى رباها، ولو خلت عن المسك حباها، وصيغت من الـشمس حلاها، فهى من الوجد تنظر بكل عين شكرا لا نكرا، وإذا كـانت أنفاس هؤلاء الأفراد مبثـوثة، وبدائعهم منثوثة، وخواطـرهم على محاسن الكلام مبعـوثة، فما غادرتم مـتردما، ولا استبقت لمتأخـر متقدما، فعندها يقف الاختيـار، وبها يقع الاختبار، وأنا أنزه ديوانه النزيه، وتوجيهه الوجيه، عن سقط من المتاع، قليل الإمتاع، ثقيل روح السرد، مـهلك صر البرد، إلا أن يعـوذ به جماله، ويحـرس بنقصه كـماله، وهبه - أعزه الله - قد استسـهل استلحاقه، وطامن له أخلاقه، أترانى أعطى

الكاشحين فى إثباته يدا، وأترك عقلى لهم سدى، وما إخالك ترضاها لى مع الود خطة خسف، ومهواة حتف، لا يستقل غبينها، ولا يبل ظعينها.

وله فصل[1] منها: فلم نحل بطائل، وصرنا تحت قول القائل:

ترك الزيـــارة وهي ممكـنة وأتاك من مصر على جمل

الزيارة هاهنا - أعزك الله - مـثل لا لفظ محتمل، لأنى أوجـبها، ولا أستـوجبهـا، وأفرضها، ولا أفـترضهـا، والتأويل على كل حال، لا يتـعدى الجميل مذهبا، ولا يتخذ ليل الشك مركبا، وأنت المفتتح للصلة، المولى للمنة المشتملة، وإن رسولك وافى بكتابك الخطير - والشمس واجبة سقوط منازع، وحياة الذى يقـضى حشاشة نازع، والبيت قد غص ببـانيه، وضاق لفظه عن معـانيه، فاختلـست أحرفى هذه اختلاس مـسارق، والتمـاح بارق، والخاطر مخاطر، والشغل مساهم مشاطر، يصدر فكرى إليه، ويخلع فقرى عليه، إلا صبابه، لا ترد صـبابة، ورسيســا، لا يشفى نسيسا، فـدونك واهى الدعائم، واهن العزائم، يتـبرأ تابعه من مـتبعــه، ويفر سامعــه من مسمــعه، ولولا أن الجواب فـرض يجرح معطله، ويخرج عن مـلة التصافى مبطله، لاعـتذرت، واقتـصرت، ولكنى أوثر حـقك - وإن أبقى على دركا، وبوأنى دركـا، وقد حملت فلانا ما سمح به الوقت، وإن اشتبه على القصد والسمت، وحاضرت بما يسرت إلى ذكره، على شريطة كتمــانه وستره - انقيادا إلى أمرك، وتصديا إلى عقوقك ببرك.

---

(١) قلائد العقيان، ص ٥٢٣.

وله أيضا[1]: ليست الأذناب كالأعراف، والأنذال كالأشراف، ولا كل أشراف بأشراف، فثم من يصم - ماولى، ويعمى عن الصبح - وقد جلى، إن ذكر نسى، وإن عذل فكأنما أغرى، وكثيرا ما يمتد شططه، فتحذف نقطه، ويهجر نمطه، وإن سامحناه فى الضبط، وأمتعناه بالنقط، نبذ الوفاء، فحذفنا الفاء، وجفى الكريم، فألغينا[2] الميم، وله بعد ما بقى، ما ألقى، إن أشرف فعلى الخطير العظيم، وإن اطلع ففى سواء الجحيم، ورب طويل النجاد، غريق فى الاتهام والإنجاد، ولايته أمان، وعمله جنان، وخلقه رضوان، تود النجوم أن ينظمها فى كتاب، أو ينسقها نسق حساب، قد ارتقى بخطته باذخ السناء، وأخذ بضبعها رافعا إلى السماء، فهناك، وأنت ذاك، طاب الجنا، ودنت المنى، وأيقن الشرف أنه فى حرم وحمى، أقسم بالمبتسم البارد، والحبيب الوارد، قسما تبقى على الشيب حدته، وتقر على المشيب جدته، ذكرى من ذلك العهد مدت بسببه، ومنت إلى القلب بنسبه، ليحتون على الكرام، وليجترؤن على الأنام، وليأخذن فوق أيديها، وليكفن من تعديها، ما لها فتحت أثلاتهم، وتسمهم بغير سماتهم، وتصفهم بصفاتهم، وتعلهم بعلاتهم، فأين أنت من الذنب، وسنام قد استؤصل بالجب، وكيف ارتياحك بعد خَمْرٍ إنْ دارت، ولمكرمة بالشمس أشرقت وأنارت، لا جرم أنك منها على ذكر، وبمدرجة حمد وشكر، وما هو إلا الشريف الأوحد، ولا ينكر فضله ولا يجحد، أبو بكر - أعزه الله - وناهيك ثناء، وحسبك علاء وسناء، فتى دهى فى ضيعته هناك بدواه، ورمى بخطوب غير ريوث ولا سواه، ورأيك - أصاب الله برأيك، وجبر الأولياء بسعيك، فى تحصيل مراعاته، وترفيهه ومحاشاته، ولولا عذر منع، لكان على أفقك النير قد طلع، ولكنه

(١) قلائد العقيان، ص ٥٢٥.

(٢) هذا الصواب من قلائد العقيان، وبهامشه: «فتصبح الكرى وهو السهاد»، والذى فى المطبوع: «فألقينا»..

استناب فلانا وحسبه أن يؤدى كتابا، ويقتضى جوابا، ويتصرف على حكمك جيئة وذهابا - إن شاء الله.

وله يعتذر من استبطاء المكاتبة[1]:

ألم تعلموا - والقلب رهن لديكم يخبركم عنى بمضمره بعدى

ولو قلبتنى الحادثات مكانكم لأنهبتها وفرى وأوطأتها خدى

ألم تعلموا أنى وأهلى وواحدى فداء ولا أرضى بتفدية وحدى

ولما نكب[2] الوزير أبو محمد بن القاسم النكبة التى أنبأت بتعذر الأوطار، لذوى الأخطار، وأعلنت بكساد الفضائل والمعالى، واستئثار الوضيع على الماجد العالى، لأنه كان طود كمال، وبحر جمال، وناظم خلال، وعالم جلال، وحين ثل الدهر عرشه، وأحل سواه فرشه، خاطبه كل زعيم مسليا عن نكبته، وانتقاله من رتبته، فكتب إليه هو فى جملة من كتب، وإن كان نازلا عن تلك الرتب، برقعة مستبدعة، وهى، مثلك - ثبت الله فؤادك، وخفف عن كاهل المكارم ما أدهى بك وآدك، يلقى دهره غير مكترث، وينازله بصبر غير منتكث، ويبسم عند قطوبه، ويفل شباة خطوبه، فما هى إلا غمرة ثم تنجلى وخطرة يليها من الصنع الجميل ما يلى، لا جرم أن الحر، حيث كان حر وأن الدر - برغم من جهله - در، وهل كنت إلا حساما انتضاه، قدر أمضاه، وساعد ارتضاه، فإن أغمده، فقد قضى ما عليه، وإن

(١) قلائد العقيان، ص ٥٢٧.

(٢) قلائد العقيان، ص ٥٢٧.

جرده، فذلك إليه، أما أنه ما سلم حـده، ولبس جوهر الفرند خده، لا يعدم طبنا يشترطه، ويمينا يخترطه.

هذه[1] الصمصـامة، تقوم على ذكرها القـيامة، طبقت البـلاد أخباره، وقامت مقامه فى كل أفق آثاره، فـأما حامله فنسى منسى، وعدم منفى، كلا لقد فنيت الحقائق، وأنبهت تلك العلائق، فلم يصحبه غير غرار، ومتن عار، كلاهمـا بالغ ما بلغ، ووالع مـعه فى الدماء مـا ولغ، وما الحـسن إلا المجرد العريان، ومـا الصبح إلا الطلق الإِضْحَـيان، وما النُّور إلا مـا صادم الظلام، ولا النَّور إلا ما فارق الأكمام، وما ذهب ذاهب، أجزل منه العوض واهب:

لا تأس للمـال إن غـالته غائلة ففى حياتك من فقد اللهى عوض

وممن[2] قضى حق المساهمة فى هذا الحال التى التـوى عرضها، وتأخر للأعذار القـاطعة فـرضها، أسف تردد، وارتماض تجـدد، وذنوب على الأيام تحصى وتعدد، وحُـبَا اللئام منها تحل وتعـقد، فيعلم الله - عز وجـهه - لقد استوفيت فيك هذه الأيام، ونهت فيك حتى المزن عن الابتسام.

قال أبو نصر[3]: وفى أيام مقامى بالعدوة، اتفقت بينى وبين أبى يحيى بن محمد بن الحاج - سقى الله مصرعه، وأورده منهل العفو ومشرعه - مودة استحكم تواخـيها، وشدت أواخيـها، وغدونا بها حليفى صـفاء وإخلاص، وأليفى إخاء واختصاص، والزمان مساعـد، وصرفه متباعد، والشباب خضل يانع، والدهر مبـيح ما هو اليوم مانع، والدنيـا سرور وإيناس، والأرض ظباء

(١) قلائد العقيان، ص ٥٢٨.

(٢) قلائد العقيان، ص ٥٢٩.

(٣) قلائد العقيان، ص ٥٢٩.

وكناس، فوقع بيني وبينه في بعض الأيام تنازع أدى بنا إلى الانفصال، وتعطل تلك البُكَر والآصال، ثم نمى إلى عنه قول ضاق به ذرعي، واجتث منه أصلي وفرعي، فكلما صدني عن الرحلة صممت ونكثت، من عرى التلوى ما كنت أبرمت، وبعد انفصالي علمت أن ذلك القول غدا زورا، ووشى به من غض أن يرانا زائرا ومزورا، فانقشعت تلك المخيلة، وتحركت لوعته الدخيلة، وأكدت تجديد ذلك العهد الرائق، وكف أيدى تلك العوائق، فكتبت إليه[1]:

أكعبة علياء وهضبة سؤدد ... وروضة مجد بالمفاخر تمطر
هنيئا للملك زان أفقك نوره ... وفي صفحتيه من مضائك أسطر
وإني لخفاق الجناحين كلما ... سرى لك ذكر أو نسيم معطر
وقد كان واش هاجنا لتهاجر ... فبت وأحشائي جوى تتفطر
فهل لك في ود ذوى لك ظاهرا ... وباطنه يندى صفاء ويقطر؟
ولست بعلق بيع بخسا وإنني ... لأرفع أعلاق الزمان وأخطر

فأمره بمراجعتي فكتبَ عنه بقطعة منها[2]:

ثنيت أبا نصر عناني وربما ... ثنت عزمة الشهم المصمم أسطر
ونالت هوى ما لم تكن لتناله ... سيوف مواض أو قنا متأطر
وما أنا إلا من عرفت وإنما ... بطرت ودادي والمودة تبطر
نظرت بعين لو نظرت بغيرها ... أصبت وجفن الرأى وسنان أشطر

(١) قلائد العقيان، ص ٥٣٠.

(٢) قلائد العقيان، ص ٥٣٠.

وقــدمنا بذلت الود والحب فطرة   ومــا الـود إلا مــا يخص يـفطر

وكتب إلى الـوزير المشرف، أبى بكر بن أحـمد بن رحيم يهنـئه بولاية خطة الإشـراف بحـضرة إشـبيليـة وذواتهـا فى شـوال سنة خمس عـشـرة وخمسمائة[1]:

إذا مـا شـرف الإشـراف قـومـا   فــإن بنى رحــيم شــرفــوه

ومن يعــرف به لهم قــديمــا   وإن رغــمـت أنوف عــرفــوه

كــفــاة للملـوك على سـبـيل   ودين نصــيحــة مـا حــرفـوه

أبو بـكر له ولـهم كــفـــيل   بكــل كــفــاية إذ صــرفــوه

ومــا الإشــراف إلا عــبـد قن   لهم فـمـتى تـولى استـصـرفـوه

هذه[2] - أعزك الله - بديهة البـشرى، وعجالة كعـجالة القرى، وبريد إلى أمم تلك القرى، فإنى لها بالإقبال ضمـين، وعلى ألية ويمين؛ لتحوطنها أقلامك، وليحمدن فـيها مقامك، لتعرفن بالغرر والحـجول أيامك، فحالفك السعد، ولا عدمك الملك الجعد، وأبل وأخـلف مثلها جددا - بعد، وما حق من بشر باعتلائك، وسرى بأنبـائك إلى أوليائك - أن يؤخر مراده، أو يضيع عمله واعتـقاده، وإن الحاج أبا عبد الله بنْ سـعدان آمِلَكَ الداعى لك - أبقاه الله - أخبرنى بهذه المسرة والديمـة الثرة، ولقد هممت على هذا البرد، بخلع البـرد، وحل العقـد، وفض النقد، فـدافعنى انقـباضـا، وأعلمنى أن له فى علمك - أبقاك الله - أغراضا، تكون على ذلك أثمانا وأعواضا، وأرانى عقدا

(١) قلائد العقيان، ص ٥٣١.

(٢) قلائد العقيان، ص ٥٣١.

يشهد بعـدمه، وصحة مـا استحثـه فى مقدمه، وأنه ليس له سـوى غرس قد صار عليه كلا، بل اسـتدار فى ساقيه كبلا، والـتوى فى عنقه غلا، وآض له غُلاً لاَ مُغلاّ، ولك الفضل أن يفتتح نظرك - وفـقه الله - بالتخفيف بمثله عن الضعـفاء، ومن لا قدرة له على الأداء، وحـمل الأعباء، فـإن ذلك ذكر فى العاجل، وأجر فى الآجل - انتهى. لفظ القلائد.

وقد قدمنا عن صاحب الصلة أن بطالة الفتح، أخلدت به عن مرتبة ذى الوزارتين، الشاعـر المجيد الكـاتب أبى عبد الله بن أبى الخـصال - رحم الله الجميع، وابن أبى الخصـال المذكور، هو: محمد بن أبى الخصـال مسعود بن طيب بن فرج بن خلصة الغـافقى، أوليته من قرية بشقـورة، تسمى فرغليط، وبها نشأ، ومنها تردد إلى الحـاضرة فى طلب العلم، ثم سكن قرطبة، يكنى أبا عبد الله، ويلقب ذا الوزارتين، وقيـل: إن خلصة هو المكنى أبا الخصال - قاله أبو بكر بن خير وغيره، والأول قـول أبى القاسم بن حبيش، وكان ينزل فى اجتـيازه عند تـردده إلى الحاضرة علـى أبى الحسن بن مـالك اليعـمرى، القاضى بأبذة[1]، وقد أخذ عنه يسيرا، وخـرج معه - وهو فتى السن - إلى حديقة لـه معروشة، فقطـف من أعلاها عنقود عنب أسود بعـصى أهبطه بها على ترفق، فقال القاضى - محركا له، ومختبرا بديهته:

انظر إليه فى العصى

ثم قال: اجز يا محمد، فقال - مجيبا لفوره -

كرأس زنجى عصى[2]

---

(١) هذا الصـواب من مـعـجم الصـدفى ونفح الطيب، والـذى فى المطبـوع: «أبدة» بالدال المهملة.

(٢) المعجم فى أصـحاب الصدفى ص ١٤٤ - ١٤٥ (ط. الثـقافة الدينية ٢٠٠٠م، مـصورة عن طبعة أوروبا).

فلحظه القاضى أبو الحسن بعين أخـرى، وحكم له بما اقتضاه علمه من مزية كبـرى، سمع ذو الوزارتين من أبى الحسين بن سراج، وأبى مـحمد بن عتاب، وأبـى بحر الأسدى، وأبى بكر بن غالب بن عطيـة، وأبى الحسن بن الباذش، وأخذ هو عنه - أيـضا فتدبجا، وأبى بكر بن سـائق الصقلى، ولقى بألمرية أبا على الصدفى، فقرأ عليه صحيح مسلم، وجامع الترمذى، ومصنف أبى داود، وأكثر صحيح البخارى، وكتاب عبد الغنى مشتبه النسبة، وأجاز ما يحمله، وكتب إليه أبو عمـران بن أبى تليد، وأبو على الغسانى، وابن أخت غانم، وأبـو عبد الله مـحمـد بن على المازرى - مع جـماعة مـن المشرقيـين وغيرهـم، وشـارك القاضى أبا الفضل عياضـا فى كثير من شيـوخه ممن تقدم ذكره وغيـره، وعنى بالحديث فأتقنه، وإليـه انتهت البلاغة، وعليـه قصرت، وبموته فقدت، وصفة بهذا أبو القاسم بن حبيش وغيره.

وقال فيه ابن بشكوال[1]: معجـزة وقته[2]، وجمال جمـاعته، وكان متفننا فى العلوم، مستبحرا فـى الأدب واللغة، عالما بالأخبار ومعانى الحديث والأثر، والسير والأشعار، أحد رجال الكمال.

قال ابن الأبار: سمـعت شيخنا أبا الربيع[3] يقول: سمـعت أبا الحسين عبد الرحمن بن أبى عامر الأشعرى يقـول: سمعت الفقيه أبا مروان بن مسرة يقـول: لم يطلق اسم كـاتب بالأندلس على رجل قـبل أبى عبـد الله بن أبى الخصال. قـال: وحكى لنا شيخنا أبو الحسين بـن سراج، أن خاله أبا بكر بن

(١) الصلة لابن بشكوال، ص ٥٥٧.

(٢) فى الصلة: «مَفْخَرَة».

(٣) نقله صاحب المعجم (ط. أوروبا)، ص ١٤٦.

خـير، وأبا القـاسم بن بشكوال، وأبا القـاسم غـالب - المعروف بالشـراط، قصدوا ذات يوم قبر أبى عبد الله بن أبى الخصال، وقد وعدوا أحد تلاميذهم أن يقرأ هنالك عليـهم قصيدته اليـتيمة، التى وسـمها[1] بـ «معراج المناقب، ومنهاج الحسب الثاقب» قـال: وكنت ممن صحبهم لأخذها عنهم، فسـمعتهم يترحمون عليه، ويقولون عند انتـهائهم إليه - السلام عليك يا زين الإسلام، ومع كـماله لم يحظ من أمـراء عصـره بآمـاله، وهى عادة الأيام العـادية فى أمـثاله، توارى مما بهـر، وخفى أضـعاف مـا ظهر، وسـار أخوه أبو مـروان بالكتابة عنهم أشهر.

والذى قعد بأبى[2] عبـد الله هو قيام ابن الحـاج أمير قـرطبة عَلَى ابن تاشفين، وثورته التى نكـب عنها ونجا، ولكن كيف منها؟! وكـان هو حينئذ أوثق حاشيتـه وأسبابه، وألصق وزرائه وكتابه، مع أن اختـصاصه لم يكن إلا بابنه أبى يحيى أبى بكر بن أبى عبد الله، حتى أوسمه بذى الوزارتين، فجرت عليه تخصيصا بعنايته، ومكافأة لكفايته.

فكم جلا[3] من تلك الخطوب الجلائل، وأبلى باليراع والرسائل، مكان ذات الأغمـاد والحمـائل، ولما استـقل ابن الحاج، وولـى ما ولى من أعـمال المغرب، عاد ابن أبى الخـصال لصحبته هنالك هو وأبو بكر بن عـبد العزيز، وطائفـة انضوت من حـرمتـه إلى الحـصن الحصـين، والحرز الحـريز، وذلك لشفوف هذا الأميـر على أترابه، وخفوف ذاته الراجحة فى حـقوق أصحابه،

(١) فى المطبوع: «رسمها» تحريف.

(٢) المعجم (مصورة أوروبا) ص ١٤٦.

(٣) المعجم (مصورة أوروبا) ص ١٤٦.

ثم إنهم انتقلوا بانتقاله إلى سرقسطة أم الثغر (الشرقى)[1] حين حلها. ذابا عن أرجائها، ومجاهدا لأعدائها، حلول البر التقى.

وإذ حمت[2] شهادته قافلا من غزاته فى التاريخ المعلوم[3]، كسد ما نفق فى أيامه من بضائع العلوم، وناصع المنثور والمنظوم، فلزم أبو عبد الله داره خائفا من تلك الأحقاد القديمة وراضيا بالإياب إليها من الغنيمة، وفى أكثر عمره ارتد على العقب مأموله، وامتد بطول مدة ابن تاشفين خموله، وإن كان لا يسمى خاملا، من شهد للحلم حاملا، وعهد بالعلم عاملا، وحسبك بما له من التواليف الدينية، إلى أن ختمت منيته بالفتنة الحمدينية، فاستشهد - رحمه الله تعالى، ودفن يوم الأحد الثالث عشر لذى الحجة سنة أربعين وخمسمائة، وكان دفنه ضحى بمقبرة ابن عباس، قال ابن حبيش: استشهد فى الحادثة الكائنة بقرطبة يوم السبت الثانى عشر من ذى الحجة، ومولده سنة خمس، وقيل، ثلاث وستين وأربعمائة.

قال بعض من عرف به: والظاهر فى مقتله[4] أنه اقتحمت عليه داره - إذ دخل المصامدة قرطبة عنوة فى الحرب الواقعة بين ابن حمدين وابن غانية - وأول انقراض سلطان الملثمين بالأندلس.

قال ابن الأبار: وكان شيخنا[5] الأديب الحافل، أبو الحسن على بن محمد بن حريق يذكر أنه كان واقفا بباب داره، فمر به بعض المصامدة وقد ارتكبوا من الجرم، واستحلوا من المنكر، ما حمله على زجرهم، والإغلاظ

---

(١) ما بين الحاصرتين من المعجم.

(٢) المعجم ص ١٤٧.

(٣) يعنى به سنة ٥٠٩.

(٤) المعجم، ص ١٤٧ (ط. أوروبا).

(٥) المعجم لابن الأبار ص ١٤٧ (ط. أوروبا).

لهم، ثقة بمكانته، وعمـلا بمقتضى ديانته، فاجترأ أحـدهم عليه، واستدار من خلفه - وهو مـشغول بما بين يديه، وما لبث عـدو الله أن ذبحه، فخر لـفيه وفجع الإسلام فيه، - فالله أعلم.

قال: وقد أطرفنا أبو عبد الله بن الصفـار الضرير شيخنا، من قتل قاتله بقصـة عجيـبة وكان - رحمـه الله تعالى - صاحب غـرائب مفيـدة، وفوائد غريبة، فحكى أن مفيت نفسـه الطاهرة، وسماه "تيفوت" ما زال بذلك يكثر الافتـخار، ويظهر لمن يحـزنه أمره - الاستبـشار، حتى عـرف بقاتل ابن أبى الخصال - سِـمَةً غدت إليـه، وأهدت حينه إليه، قال: وكـان لابن غنية على فقد غنائه أسف زائد: هو بمجدهم شـاهد، ولمحمدهم سائد، وهذا الآثم قد أركبـه البحر إليهم سـيل الفتنة، واعتـقد أنه بميورقة جـان للمنحة، وناج من المحنة، فربما جفوه إذا رأوه، ومقتوه متى لحظوه، واتفق أن عاينه يوما إسحاق ابن محـمد - وتيفوت البـائس قد ذهب فتاؤه، وكـتب بنفوذ قضاء الله فـيه فناؤه، فدعا به، واستدهى منه وصف عـدائه، فما فرغ من ذلك حتى التفت إسحاق إلى جلسائه، وقد غضب واستشاط، وزوى الله تعالى عنه الاسترسال والانبساط، وقال: ينبغى لمن قتل ابن أبى الخصال أن يقتل، ويحق لمن لم يرع حقه أن يعـاجل ولا يهمل، ثم أمر فأجهز علـيه، وجر برجله من بين يديه، هذا أو معناه ما أسمعناه، وإنهـا لآية فى الأخذ بثأره، وعناية من عالم إعلانه وأسراره، علم بها أنه تقبل أعماله، ورحم جلاله وجماله[1].

---

(١) المعـجم لابن الزبار ص ١٤٧ - ١٤٨ (ط. أوروبا) وإلى هنا ينتـهى كـلام ابن الأبار فى المعجم.

ومن شعره - رحمه الله:

يا حبذا ليلة لنا سلفت أغرت بقلبى الهوى وما عرفت

دارت بظلمائها المدام فكم نرجسة من بنفس قطفت

ثم انطوى دهرها ومن أسف إن صرفت لوعتى وما انصرفت

وله فى وصف نار مضرمة فى فحم:

أما ترى النار وهى راقصة تنفض أردانها من الطرب

تضحك من ابنوسها عجبا إذ حولت عينه إلى ذهب

وله فى مطيب ورد مفصل بترنجان:

وورد جنى طالعتنا خدوده ببشر ونشر يبعثان على السكر

وحف ترنجان بها فكأنها خدود العذارى فى مقانعها الخضر

وشعره كثير أوعب ذكره[1] - ابن الأبار فى معجم أصحاب الصدفى، وذكره ابن بشكوال، وابن الزبير فى الصلة - وليس من شرطه، وابن بسام فى الذخيرة، ولابن أبى الخصال - رحمه الله - عدة قصائد نبوية، منها قصيدته الشهيرة المسماة بـ «معراج المناقب» ومنها عدة قصائد عارض بها بعض قصائد حسان بن ثابت - رضى الله تعالى عنه.

وقد رأيت أن أذكر تأليفا للإمام ابن حبيش، اشتمل على تخميسها فيكون فيه المطلوب وزيادة، وقد ألفيته بخط مؤلفه بل أحد تلامذته، وهذا نص ما كتب على ظهره - بعد أن سماه بـ «العقيلة الحالية، والوسيلة العالية» فى تخميس القصيدة المسماة بـ «معراج المناقب، ومنهاج الحسب الثاقب» -

(١) فى هامش المطبوع: «لم يذكر ولا بيتا من شعر ابن أبى الخصال، ولعل مراد المؤلف أن ابن الأبار استوعب الكلام عن ابن أبى الخصال، كما سبق.

فى معجزات رسول الله - ﷺ، ونسبه الشريف، ومناقب أصحابه الكرام - ﷺ تسليما، ورضى عنهم أجمعين - من نظم الفقيه الأبرع، البليغ المصقع، الكاتب المتفنن، العارف المتسنن، أبى عبد الله محمد بن مسعود بن طيب بن فرج بن خلصة أبى الخصال الغافقى - رحمة الله عليه، خمست ليتوسل فيها إلى الله العظيم، بمدح نبيه الرءوف الرحيم، ورسوله الأواه الحليم، وبتحلية أهل بيته الكريم، وأصحابه أولى السبق والتقديم، وأزواجه الطاهرات أمهات المؤمنين ذوات البر والتكريم - صلى الله عليه ثم عليهم أفضل الصلاة، وسلم أشرف التسليم، وأعقلنا من حبه وحبهم حرمة تحرم بنا من التنعيم إلى جنات النعيم، وأذمة تنفعنا بالتصميم على الود الصميم وإيمانا تحجم عن نوره نار الجحيم، وأمانا يتلقانا يوم الفزع الأكبر بالسلام والتسليم، ويهدينا بكرمه المعين هداية العلية للصراط المستقيم، ويؤوينا إلى حرمه الأمين، أوآية الفتنة إلى الكهف والرقيم(١)، ويميزنا بعناية سيد البشر وشفيع المحشر، تمييز الأغر من البهيم، ويخصنا من شفاعته المشفعة، ومجاورته المرفعة، بالقسم الوجيه، والوجه القسيم، ويسكننا بين كرام أكرمتهم عبادة ونسك، ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَامُهُ مِسْكٌ ... ﴿٢٦﴾﴾ [المطففين]، ﴿وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾﴾ [المطففين]، ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء]تأليف الفقيه أبى عبد الله محمد بن الحسن بن يوسف بن الحسن بن حبيش اللخمي المرسى - رضى الله عنه - انتهى ما على ظهر الكتاب، وهذا أوان سرده بكماله - إن شاء الله تعالى.

---

(١) يشير إلى قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾﴾ [الكهف].

قال الشيخ ابن حبيش - رحمه الله:

جلت عن ذكاء الحسن غيم التنقب
لتثنى غربى عن ثنايا التغرب
بأحور ساج أو بألعس أشنب
إليك فهمى والفوائد بيثرب
وإن عاقبنى عن مطلع الوحى مغربى

وكتب بالطرة ما نصه الرواية إليك - بفتح الكاف، ولكن المخمس أراد الاستفتاح بيسير من الغزل، فقاده ذلك إلى كسر هذه الكاف، ولم يبدل من هذه القصيدة فى هذا التخميس تحريك ولا تسكين إلا فتحة هذه الكاف. انتهى.

قال ابن حبيش المخمس رحمه الله ورضى عنه:

صحبت الليالى فانجلى لى سرها ... متى تخدع المشتاق - لا در درها
فيذهب أحلاها ويبقى أمرها ... أعلل بالآمال نفسا أغرها
بتقديم غاياتى وتأخير مذهبى

أجل مرادى لو تساعد أسعدى ... حنين ركابى نحو حاد مغرد
ولا حاجز دون الحجاز لمقصدى ... ودينى على الأيام زورة أحمد
فهل ينقضى دينى ويقرب مطلبى

متى تسعد المشتاق بالقرب رحلة ... تقابل فيها للمدينة قبلة
وهل تشترى بالروح فى الترب قبلة ... وهل بقيت من مركب العمر فضلة
تبلغنى أم لا بلاغ لمركبى

وهل يشتفى من مكة أهل غيبة وهل وقفة فى باب أبناء شيبة
أرجى الرضى فيه بتعفير شيبة وهل أردن فضل الرسول بطيبة
فيا برد أحشائى ويا طيب مشربى

مغان تجير المذنبين بجاهها غدت جنة إن لم تكنها تضاهها
جرى ضرب بالمسك بين رداها ألا ليت زادى شربة من مياهها
وهل مثلها ريا لغلة مذنب

فليت الصبا ركب بروحى سائر لأرض ثواها ناصر ومهاجر
وليت ثراها إثمد لى عاطر ويا ليتنى فيها إلى الله صائر
بقلب عن الإيمان غير مقلب

لقد فاز من أمضى القضاء اعتزامه فطنب فى دار الرسول خيامه
وطيب محياه بها وحمامه وإن امرءا وارى البقيع عظامه
لفى زمرة تلقى بأهل ومرحب

أجل بلاد الله مبدا ومحضرا بها اختار للمختار قبرا ومنبرا
فمن مات فيها بالشهادة بشرا وفى ذمة من خير من وطئ الثرى
ومن يعتلقه حبله لا يعذب

تناسمنى للشوق أعطر نسمة وتشرق لى بالشرق أنوار رحمة
فأقضى بهم أحيا بهمة ومالى لا أشرى الجنان بعزمة
يهون عليها كل طام وسبسب

عنانـى بيـســرى والقناة بـأيمن وعـضبى أنيـسى والتنوفة مـوطنى

فـمالى إذا أمـضـيت عـزمى يثنى ومـــاذا الذى يثنـى عنانى وإنـنى

لجـواب آفـــاق كـثيـر التــقلب

أيفنى كـذا عمـرى وأمـرى غمـة وما الغدر - والأعذار فى الحب تهمة

أروع فـإن الصب بالشـوق بهـمـة أفـقـــر فـفي كــفى لله نعـــمـة

وبين فـقد فارقت قـبل - بنى أبى

تعطشت والحجاج من زمزم ارتوت ونالت-على رغم النوى-كل ما نوت

فمالى لا أطوى من البـيد ما طوت وقد مرنت نفسى على البعد وانطوت

على مثل حـد السمـهرى المذرب

أوامـر سلطان الهوى كم أطعـتهـا وحملت نفسى فـرقة ما استطعـتها

فكم واجبـات للتقى قـد أضعتـها وكم غـربة فى غيـر حق قطعـتهـا

فـهــــلا لذات الله كـان تغـــربى

إذا أحـسن التـأويل بى مـتجـاوز فـأيســـر عـيب فى أنى عـــاجـز

أذو الصدق هـالته السـرى والمفاوز وكم فـاز دونى بالذى رمت فـائز؟

وأخطانـى مـــا ناله مـــن تقـــرب

أحب وفـــود الله لو كنت وافـــدا أو دعـهم جـمعـا وأرجع واحـدا

أحـرض من يسرى وأخلد حـائدا أراه وأهوى فـعـله البـر قـــاعـدا

فـيـا قـــعـدى البـر قم فـــتلبب

لنفسى بتأميل البقاء اعتذارها وهبها تبقى والرجاء اغترارها
فأين إلى قصد الحبيب بدارها أمانى قد أفنى الشباب انتظارها
وكيف بما أعيا الشباب لأ شيب

خبأت لدهرى صولة ابن مكدم فألوت بحملى غربة ابن محلم
وللوخط فى فودى فتك ابن ملجم وقد كنت أسرى فى الظلام بأدهم
فقد صرت أغدو فى الصباح بأشهب

بمغترب التغريب طال توطنى وفى بلد التبليد ضاع تفطنى
ولا منقذ من بحر يغطنى فمن لى وأنى لى بريح تحطنى
إلى ذروة البيت الكريم المطنب

إلى المصطفى للبعث من خير محتد إلى المعتلى للقرب أرفع مصعد
إلى الشافع المنجى من النار فى غد إلى الهاشمى الأبطحى محمد
إلى خاتم الرسل المكين المقرب

إلى المقتدى حتى المعاد بهديه إلى المرتقى لله مرقى نجيه
إلى صاحب الحوض المغيث بسقيه إلى صفوة الله الأمين لوحيه
أبى القاسم الهادى إلى خير مشعب

إلى من له الإعجاز يعجز عده إلى من رآه البدر فانشق خده
إلى من سرافيل وجبريل جنده إلى ابن الذبيحين الذى صيغ مجده
ولما تصغ شمس ولا بدر غيهب

إلى من تدانى قاب قـوسين إذ سرى إلى سامع النـجوى بلا واسط يرى
إلى المجتـبى فى الغيب أكبر أكـبرا إلى المنتقى من عهد آدم فى الذرى
يردد فى سـر الصـــريح المهـذب
إلى مغرق الإسهـاب فى بحر نعته إلى من تهـدى كـل هاد بسـمـتـه
إلى من تمنى الـرسل إدراك وقـتـه إلى من تولى الله تـطهـيـر بيـتـه
وعصـمتـه من كل عيص مـؤتب
إلى خـير مـبعوث إلـى خيـر أمة حـبتـه يد التمـكين أوفر قـسمـة
وحفته فى الأصلاب ألطاف عصمة فجاء برىء العرض من كل وصمة
فما شـئت من أم حصان ومن أب
كفـاه من الرحمن مـدحا مصـرحا بشرح "ألم نشرح" وإيـضاح "والضحى"
فقد أفحم القرآن من قـال مفصحا كروض الربى كالشمس فى رونق الضحى
كناشئ مـاء المزن قـبل التـصـوب
غـــفـــرنـا به للدهـر كل إســاءة جـلا غيـهب الدنيـا بأبهى إضـاءة
كـســا أوجـه الأيام كـل وضـاءة عليـه من الـرحـمن عـين كـلاءة
تجنبـــــه إلمام كـل مـــــجـنب
تقـدس بدءا من شـعــوب جليلة إلى منتـهـاهـا من أعـز فـصـيلة
فـمـا مـر إلا فى طريـق فـضـيلة إذا أعـرضت أعـراقـه عن قـبـيلة
فـمـا أعرضت إلا لأمـر مـغـيب
ولا طبعت إلا علـى البأس والندى ولا رضيت إلا إلى الخلد مـصعدا
ولا عـمـرت إلا رباطا ومسـجـدا ولا عبرت إلا على مـسلك الهدى
ولا عـــثـرت إلا علـى كل طيب

فينمى حباه الله أنمى صلاته لكل سرى ساد بين سراته
بعالى معاليه وسامى سماته فمن مثل عبد الله خير لذاته
وآمنة فى خير ضنء ومنصب

كريمة وهب واهبا كل بدرة نمت فى كمام المجد أبهج زهرة
ولاحت بأفق السعد أشرق زهرة إذا اتصلت جاءتك أفلاذ زهرة
كأسد الشرى من كل أشوس أغلب

فلله بدر قد جلا كل حالك لإنجابه أنجى به كل هالك
فما مثل ذاك النور هاد لسالك ولا خال إلا دون سعد بن مالك
ولو كان فى عليا معد ويعرب

سجايا يا رسول الله نفسى لها الفدا عراب لأحباب عذاب على العدى
فما السحب إن أهدى وما الشهب إن هدى ومن ذا له جد كشيبة ذى الندى
وساقى الحجيج بين شرق ومغرب

مليك البرايا غير أن لم يبايعوا فأهلا بمرضى الفعال المتابع
وسهلا بمسموع المقال مطاوع سؤدد البطحاء غير مدافع
وحرمة ما بين الصفا والمحصب

رئيس قريش عند سلم وغزوة بظل لواء أو بمجلس ندوة
يفض لجيش الحبش أوثق عروة أبو الحارث السامى إلى كل ذروة
يقصر عن إدراكها كل كوكب

رأوا بركـــات فى كـــراه ونبـهـــه وبدلهم عـــشـــر الورود برفـهـــه
وجـاد به دهـر بخـيل بشـبـــهـه ونافـــره حـرب فكـب لوجـهـــه
وقد كـان لولا جوده فـوق مرقب

أضاف لكسب الحـمد مـيراث جلة وأضـفى من الأمـداح أسـبغ حلة
ولما نوى صـــهـــرا بأشــرف حلة أتيـحت له خـيـر الفـواطم والتى
أتيح لهـا فى المجد خـير مـركب

فـمـا على كـل من الحق أوجـبت بما من أبى خـيـر الـبـرية أنجـبت
لســـيـــد آل الله طرا تقـــربت عقـيلة مخزوم وعـمران فاحـتبت
على خـير مولـود وأكرم محـتب

لقد مهدت خـيرا على مهدها ربى رضـيـــة أخـلاق سنيـــة مـذهب
ســرية أعـــراق عليـــة مـنصب وطيـــبـة حـــمت لأطهـــر طيب
مطيـــبـــة زفـت لكفـء مطـيب

تميـم دار الأمن أهل خـــيـــانة فـقـد صـرفـوا عن عـــزها بإهانة
ودان بنـو حـــام لحـــامى ديـانة به وبمـا فى بـرده من أمـــانـة
حمى الله ذاك البـيت من كل مرهب

غرابيب عافت بقعـة النسك بعقهم أتوا حرما أضحى به القتل شرعهم
فـرد عليهم صـانع الخلق صنعـهم وأهلك بالطير الأبابيل[1] جمعهم
فـيا لـهم من عارض غـيـر خلب

---

(١) يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾﴾ [الفيل].

مبادئ إعجاز تلتها نهاية بمولود ذاك العام عمت عناية
فللدار والجيران عنه رعاية وفيما رآه شيبة الحمد آية
تلوح لعين الناظر المتعجب

وفى أمره فى الحلم بالسقى مسرعا وفى سلسل من مبرك العود أنبعا
وفى نذرة ذبح ابنه متبرعا وفى ضربه عنه القداح مروعا
ومن يرم بين العين والأنف يرهب

وقد نال منه أن ينال حبيبه فأقبل يدعو والفضاء يجيبه
لفرعك زهر يملأ الأرض طيبه وما زال يرمى والسهام تصيبه
إلى أن وقته الكوم من نسل أرجب

أعاد ثلاثا ضربها متعوذا فلما استقر الأمر قال: انحروا إذا
وأبقاه حكما فى الديات منفذا وكانوا أناسا كلما أمهم أذى
تكشف عن صنع من الله معجب

إذا غضبوا فالله للقوم يغضب ومهما رضوا فالمزن يهمى ويسكب
هناك صفا عذب وأزهر معشب وعاش بنو الحاجات منهم وأخصبوا
وإن أصبحوا فى مربع غير مخصب

لهم نبأ أسماعنا تستعيده لذيذ يشور الشهد منه شهده
وكيف على الأيام يبقى جديده وعمرو المعالى هاشم وثريده
بمكة يدعو كل أغبر مجدب

إذا ندف الصنبــر كل سـبـيـخـة وصمت لعصف الهوج كل مـصيخة
دعـا الجفلى من غلمـة ومشـيخـة لمشتى جـفـان كالجـوابى منيـخـة

ملئن عـــبـيطات السنـام المرعب

فلـولاه مـــا لاذ العناة بمـنقـــذ ولا عـاذ سكـان الصـفـا بمـعـوذ
ولا سـددوا فى الرحلـتـين لمنفـذ هو السـيد المتـبـوع والقمـر الذى

على صفحتيه فى الرضى ماء مذهب

ولمـا دنـا لـلـديـن إطـلاع بـدره ونقب عـمـرو عن حظيـة عـمـره
لتـختـار للمختـار من حى نصـره بنى الله للإسـلام عـــزا بصـهـره

إلى منتـهى الأحـيا من آل يثـرب

درى أن سيـبدى الغيب مـه سريرة فـرام على ذاك الظـهـور ظهـيـرة
ومن صـفـوة الإيثار صـافى أثيـرة وخص بسلمى بنت عـمرو ذخيرة

على كل بـكر من قـــريش وثيب

تيـــمن خطبـا إذ تـيـامن خطـبـة وأسس بين النضـر والأوس قـربة
وطنب فـى أعلى المدينـة قـبـــة فـأثبت للإسـلام فـيـها مـحـبـة

وقـاد من الأنصـار كـل مـحـبب

إلى وده انقـادوا قرومـا مصـاعبـا أدرهم عـام المحـــول سـحـــائبـا
وأطلعــهم ليل الحـروب كـواكـبـا وكـتـب منهم لـلرسـول كـتـائبـا

علـيـــهم مـن الماذى كل مكـتب

فمن متقاض بالقواضى ديونه　　وبان على متن الحصان حصونه

ومستعذب طوع النبى منونه　　يفدونه يوم الوغى ويقونه

بأنفس صدق بأسها لم يكذب

سطت بذئاب الكفر شدات أسدهم　　وكم بذلوا الأرواح صونا لمجدهم

فما نصر المختار إلا بجندهم　　وما دوخ الكفار إلا بحدهم

سنان طرير أو سنان محرب

بنو النضر أسمى حلة حيث حلت　　بدور تجلت فى سماء التجلة

رياض معال أثمرت وأظلت　　وعبد مناف دوحة الشرف التى

تفرع منها كل أروع محرب

تسمية آمال النوالى بكنزها　　وتأوى ملوك الأرض منه لحرزها

وتعنو نواصيهم له خوف جزها　　مطاع قريش والكفيل بعزها

ومانعها من كل ضيم ومنهب

ولما اقتفى من أشرف الصهر سنة　　وقد آن أن يستشعر الخلق منة

تزحزح عن نار وتسكن جنة　　تخير من سر العواتك مزنة

لهاشمه جادت بأمرع صيب

بأروع مطعام لدى كل لزبة　　وأليس مقدام على كل سربة

وأبلج بسام إلى كل كربة　　وما كان ذاك الطود إلا لهضبة

ذوائبها فوق السماك المذأب

صفات كـروض الحزن - والمزن همع		يلذ له مـجنى ويـذكـو تضـوع
هم ما هم قـد راق مرأى ومـسمع		وزيد ومن زيد قـصى مـجـمع
سمـعت ويلغنا وحسبك فاذهب

إليـه خـبيئـات المكارم أبرزت		وبالمدح فـيـه حلة الفـخـر طرزت
شريف كم اعتزت بطون له اعتزت		به اجمـتعت أحياء فـهر وأحرزت
تراث أبيـهـا دون كل مـذبذب

أعـاد المجلى فى العدى كـسكيتـه		بما قـاده من ورده وكـمـيتـه
فطعـامعهـم لم يثن ليْتًا لليتـه		وأصـبـح ملك الله فى آل بيـتـه
فـهم حوله من سادنين وحـجب

لقد حفظت فـيهم حقوق مـضاعة		ومن بيـتهم ردت عليـهم بضاعـة
وعن إرث إسماعيـل دبت قضاعة		ومـا أسلمـته عن تـراض خزاعـة
ولكن كـمـا عض الهناء بأجـرب

تألف مـا ألفى من الأرض شاغـرا		وأطفـأ من كـيد الأعـاجم واغـرا
وبالعضب صلتا ألـقم الليث فاغرا		وقد رد سـابورا عن البيت صـاغرا
بخطبـة فصل أبعـدت كل مقـرب

وإذ جاش جيش الفـرس من كل جلهة		محا جـمعهم محو الدليل لشـبهة
وعـفـر منهم رعـبه كـل جبـهـة		وردهم من كـل أوب ووجـهـة
عـبـاد يد لا يلوون نحـو المثـوب

تحلت قـريش منه أبهى فـضـيلة ورتب حـول البـيت كـل قـبـيلة

كـما حف تقـصار بـجيـد عقـيلة وأيد من حـبى بـخـيـر حلـيلة

نماهـا حليل فـى ذؤابة يشـجب

حوى الكعـبة العليـا فأعلى كعـبه وحـفتـه أقـمار المحـيط وشـبهـه

فـمـا بوركت إلا حـصـان تربه وحسب التى جـاءت بزيد وحسـبه

بفخر لهـا منه على الدهر محسب

خـئـولـتـه تنمى لصـيـد أكـابر فمن أين لا يسـتل عضب المفـاخر

ويحـتل ربع المجـد أشرف عـامـر وفاطمـة من بيت عمرو بن عـامر

ومـاء السـمـاء الطاهر المتـصـبب

لمحتـدها من يعرب الشـرف العلى ففى الأزد زاد الركب فى كل مجهل

ومن سـيل سيل مـحا كل جـدول ومـا سـببت إلا لمجـد مـؤثل

توطده والله خـيـر مـسـبب

فـتى يملأ الشـيـزى ويروى سنانه بنى شـرفـا قـاد السـمـاك عنانه

بجـود عناه أو بـجـد أعـانه ومـا مـات إذ خلى عليـه مكانه

كـلاب ومن يشـهده لم يتـغـيب

فـمن أوجـه نضـرية ذات نضـرة ومن شـيـم غـر إلى شـيـم غـرة

تلاقى الـسنا من أسـرة وأسـرة ولاذت قـريش من كلاب بن مـرة

بجـذل حكاك أو بعـذق مـرجب

فـمـا القطر إلا قـطرة من بحـوره   ومـا الصبح إلا لمحـة من سفـوره
يفـيض السنا فى شـهـبـه وبدوره   أبو الصـرحـاء الغـر حـيث بنوره
صـريحـة أبناء الشـوير بن ثعلب

تتـــوج تـاجى رفـــعـــة ومـكانة   وأســـبغ بردى عـفـــة وصـيـــانة
فـــقـضت به الآمـــال كل لبـــانة   لهنـد ومن هند كـــخـــيـــر كـنانة
نجيـبة عصـر جهزت نـحو منجب

تجلى لـعـــين الـزين أبهج قـــرة   وراق بـسلـك المـلـك أنفس درة
وزان مـحـيـــا الحى أشـرف غـرة   ومـرة ذو نفس لدى الحـرب مـرة
وفى السلم نفس الصرخدى المذرب

تقابـل فى الأمجاد من كـل جانب   وســـادته ســـروا باهرا للـكواكب
خـئولة فـهر فـى عمـومة غـالب   لوحـشية الـبيضـاء بنت مـحارب
فـسـيـمـتـه فى أصله المتـشـعب

نمتـه كـــرام زينوا البـأس بـاللهى   يفـيضـون إيمـانا ينيـرون أوجهـا
سمـوا كالدرارى والمعاند كـالسهى   وكعب عقـيد الجود والحلم والنهى
وذو الحكم الغـــر المبـشـر بـالنبى

مـشـهـــر علـيـاه وكـاتم عـــرفـه   وواصف هدى يهـتـدون بوصـفـه
يســـود بواديـه يقـــود بزحـــفـــه   خطـيب لـؤى واللـواء بكـفـــــه
لخطـبـــة ناد أو لخطة مـــقـنب

قضى فى اللهى بذلا وفى العرض منعة أجل بنى فهر جلالا ورفعة
وأقوم من فى فترة الوحى شرعة وأول من سمى العروبة جمعة
وصدر أما بعد يلحى ويطبى

فيا طبقات اللحد كيف علوته وما طمعت زهر النجوم بفوته
وقبل الظبا فل الجيوش بصوته وأرخ آل الله دهرا بموته
سنين سدى أتعبن كف المحسب

وعادات عرب أن تحافظ عهدها بتاريخها من موت من جل عندها
وقد أرخت من موت كعب وعدها بخمس مآت ثم عشرين بعدها
مكملة واستنطق الكتب تعرب

له عفر الأمجاد خد ضراعة فتلقاه عدنان بسمع وطاعة
وترضيه قحطان بجهد استطاعة لماوية الغراء خير قضاعة
لكعب فتى القين بن جسر بن تغلب

مفرق وفر جامع للمحامد غدا خطوة تاجا لهام الفراقد
بغر المساعي والجدود الأماجد وأضحى لؤى غالبا كل ماجد
ومن غالب ينميه للمجد يغلب

فناهيك من غض المحاسن أبلج ومن فاتح للمرتجى كل مرتج
أقر له بالرق كل متوج وجاءت به وحشية بنت مدلج
هماما متى يستقدح المجد يثقب

يتمم زيا للهيـاج متى ابتدى   يعمم فيها بالردى كل مرتد
بمسرودة زغف وماض مهند   وألقى عليه غالب كل سؤدد
يقصر عن أوصافه كل مسهب

بهم صحت الأزمان بعد زمانة   وهدئت الدنيا لأهدى ديانة
ترقوا بأعلى الرسل أعلى مكانة   وما منهم إلا مؤدى أمانة
يصان لها صون الضمير المحجب

لهم بأغر الخلق عز وحرمة   تجلى بهم جلى وتفرج أزمة
وكلهم حامى الحقيقة بهمة   وحامل نور حظه منه عصمة
وتقديسه من كل عاب ومجدب

خلال جلال مبدآت معادة   نماها علاء باهر ومجادة
وغالبهم قد غلبته سيادة   له من هذيل فى الصميم ولادة
تزاحم أعراف النجوم بمنكب

نزاع العدى منه بأروع أحوذى   على السمت من أسلافه الصيد يحتذى
وزاد سموا آخذا كل مأخذ   بليلى لغنم وابنة الحارث الذى
له الفيلق الجأواء من كل موكب

مضت أعصر - والقوم عصرة أهلها   رأوا بركات الوحى قبل محلها
صلاح بها الإصلاح للأرض كلها   وفهر أبو الأحياء جامع شملها
وكاسبها من فخره خير مكسب

أووا منه فى أزم الزمان وأزله ... إلى متبع فرض السماح بنفله
يسيد نداه ما يفيد بنصله ... تقرش فامتازت قريش بفضله

وسد فسدوا خلة المتأوب

أحان العدى رعبا وما سل منصلا ... وشعشع للأخلاق أريا وسلسلا
وقلد للتقريش عقدا مفصلا ... وغادره اسما فى الكتاب منزلا

يمر به فى آية كل[1] معرب

مذاكيه فى الأقطار داست ودوخت ... وفى كل روع كم أغاثت وأصرخت
بدا غزة فى جبهة الدهر شمرخت ... وجندلة بنت المضاضى شدخت

به كل ذمر للعلى متوثب

يروع سرب الشمس إن هز نصله ... وتهفو الدرارى حين يرسل نبله
أطل على المجر اللهام فطله ... فأصبحت الأعناق خاضعة له

كما استسلمت كدر البغاث لأشهب

تشابك عزا بالنجوم الشوابك ... وقالت علاه ما السماك بسامك
صوارمه للفتك فى كل فاتك ... ومالك المربى على كل مالك

فتى النضر حابته السيادة بل حبى

غمام سفوح بالحياة وبالردى ... به الرى للعافين والصعق للعدى
نوال لمن رجا نكال لمن عدا ... هو الليث فى الهيجاء والغيث فى الندى

وبدر الدياجى حين يسرى ويحتبى

(١) يشير إلى قوله تعالى: ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ①﴾ [قريش].

معرف عرف حسب ذى الحاج حجه   وقبلة آمال إليها التوجه

حودى الطود والضرغام والبحر سرجه   تردى بفضفاض على المجد نسجه

ولبس عليه فليجر ويسحب

سيادته أعفت من المن منها   وأيامه أبدت بحسناه حسنها

وآماله نالت بيمناه يمنها   وفخرا لهند بنت عدوان إنها

به أم وبل طبق الأرض معشب

فيا لكريم فى الكرام مردد   صدور القنا يلقى كصدر مهند

وحمر الظبا يهوى كخد مورد   وللنضر ما للنضر من كل مشهد

هو الشمس صعد فى سناها وصوب

تباح عطاياه ويحمى ذماره   ويخشى معاديه ويأمن جاره

فللحكم ناديه وللعز داره   ليالى أذكت فحمة الليل ناره

فما تستر الظلماء مقلة جندب

مقنى القنا من كل أغلب أضبط   فكم شاحط من خوفها متشحط

وكم ريع منه القاسطون بمقسط   وقيد إليه كل ملك مسلط

يقال له أقبل ذليلا أو اذهب

درى كل ملك أن سيد خندف   سيثقفهم بالجود أو بالمثقف

فدانوا بتأميل له وتخوف   فيزحف فى أغلاله كل مترف

ويرسف فى أقتاده كل مصعب

مليك كفته جرده عن أسرة ضحوك إلى الآمال جم المسرة
عبوس لدى الأمثال جهم الأسرة نهيض الفتاة الطابخية برة

وأى معال بيته لم يهذب

كذا يعتلى عال ويفخر فاخر سما أول للعرب واعتز آخر
ففاضت هبات واستفاضت مفاخر وأعرض بحر من كنانه زاخر

يقاد إلى أمواجه كل مذنب

سحاب الحبا طود الحبى ضيغم الوغى طغى سيفه فيمن تجبر أو طغى
وحكم فى الباغين أضعاف ما ابتغى وخير حكما فى الصهيل أو الرغى

أو البيت أوعز على الدهر مصحف

وأشعر فى العقب السنى احتجازه لملك تطيع الأرض فيه حجازه
وقيل تخير ما تروم نجازه فلم يقتصر واختار كلا فحازه

إلى غاية العز المديد المعقب

فنون احتفاء ضمها منه أوحد بأربعها حياه جد مجدد
ليمهد سعد للرسالة مسعد له البيت محجوجا وعز مخلد

وأجرد يعبوب إلى جنب أصهب

فمن حملت فى النسل منه أمانة تكفل تقديس بها وصيانة
فقد حق أنجاد له وإعانة ومن ولدته بنت عمرو عوانة

فما الدهر من أدنى مداه بأرحب

طغـــاه ملوك غنمـــه لا غنيـــمـة وأغـلالهم بيض الظبـا لا رمـيمـة
فشت أيـمة فى متـرفيـهم وعيـمة وخـارم آناف الـعـتـاة خــزيمـة
فـعـاذوا بأخـلاق الذليل المغـرب

قـــســـيم تراء ذو ثراء مــقـــسم عـــدا كل ظلام جـــلا كل مـظلم
برأفـــــة عـــلام وسطوة مـــعلم عظيم لسلمى بنت سـود بن أسلم
لكل قـضـاعـى كـريم مـعـصب

لهم سلف سـمر العـوالى وسامـر وحـاضـر كـبـر للـتكبـر حـاظر
يجـار به خـاش ويخـشـاه جـائر ومـدركة ذو النجح واليـمن عامـر
وخـير مـسمـى فى العلى وملقب

له النسبـة العظمى كما شـاء سروه تلاقى بهـا طهر الـغـمـام وصفـوه
وللفـــخـــر منهـــا ضـــؤه وعلوه تراءى مـطلا إذ تقـــمع صـنوه
فـفـــار بقـدح طائر لم يـخـيب

عـموم ثناء لا يخـاف مخـصـصـا وأتلع فـخـر رد كـيـوان أوقـصـا
تواضعـه أن يواطئ البدر أخمـصا لام الجـبال الشم والـقطر والحصـا
لخندف أن تستركب الأرض تركب

فـلا غـرو أن قـادت لهم كل أمـة سـيوف انتـقـام فى أيامن رحـمـة
فهم سـحب إِمحال وأقمـار ظلمة وإلياس مـأوى الناس فى كل أزمة
ومـر بهم فى كل خوف ومـرهب

مــبــصــرهــم أمــر المآب وقــد أبوا   وملهــمهم أن يسنيــروا وقد خــبوا
ومذكــرهم ما قد تناسوه إذ صــبوا .   وزاجرهم إذ بــدلوا الدين واستــبوا
فــأضحــوا بلا هاد ولا مــتحــوب

تخــولهم بالوعظ صــبــحــا وهدأة   وفى الســمع وقر لا يحــسون نبــأة
زمــان نفى الجهــال للحــشر نشــأة   وحــين دعوا بعــلا ضلالا وجــرأة
على ربهم واستــعتبوا كل مــعتب

تمرس بالأعــــداء جــذل حكــاكــه   وأشــرع لــلأوثان رمح ســمـــاكــه
وقــد قــام من ملك الورى بملاكــه   وجــاءهم بالركن بعـــد هلاكـــه
وقد كان فى صدع من الأرض نكب

ســـبــاه ألوا بــأس شــديد وقـــوة   فــألهـــمــه نســيــا بــأغــمض هوة
ليــحــفظ أمــر الــناس حــفظ أبوة   ومـــا هو إلا مـــعــجـــز لنبـــوة
ويشــرى وعقــبى للبشــير المعــقب

أقــام حــقــوقــا لــلمــقــام المطهــر   وأشــعر للتــقديس فى كل مــشعــر
ووفق فى مــرمى ومســعى ومنحــر   وحج وأهدى البــدن أول مــشــعــر
لهـــا وفــروض الحج لم تتـــرتب

خصال بها قد حازت العرب خصلها   تجــالســه سمح الخــلائق ســهلهــا
وتصــغى له عــذب المقالة جــزلهــا   وكم حكمة لم تســمع الأذن مثلها
له إن تلح فى ناظــر العــين تكتب

تبـحبح مرقـى يبهر الـنجم سمـته   كـمـا بهرت نظـمى حلاه ونعـتـه
وعن قنص يـغنيـه نـهب يشتـــه   إلى قنص تـنمـيـه سـوداء بـنتـه
كـلا طرفـيـه من مــعـد لمنسب
عمائر لو لم يـعمروا الأرض عطلت   سقوها نوالا فاض أو مـهجا غلت
فلولا انهمال السيب والسيف أمحلت   وفى مــضـر تاه الكلام وأقــبلت
مـآثر سـدت كل وجـه ومـذهب
تضايقت الغـبراء عن فرط وسعـها   وأخملت الخضـراء فى عظم ربعها
لصـيـد صناديد تسـود بطبـعـهـا   وجشن وكـاثرن النجوم بجـمعـهـا
بأكـثـر منهـا فـى العـديد وأثقب
تعـجـبت حـتى لا تعـجب مـثله   لصنوين قـد حـازا التـسـاوى كله
فلمـا بدا سـبق يـريغـان خـصله   هنالك آتـى الله من شـاء فــضله
وقـيل لهـذا سـر وللآخـر اركب
إخـــاؤهمـا أخـــيـــتـان تفـــاوتا   وخـولف بالذاتيـن حـين تسـاوتا
وقيل لـدى الإنصاف شتـان تا وتا   وكـان شـقـيقـى نبعـة فـتـفـاوتا
لعلم وحـكم مـاله من مــعـقب
إن اشـتبـهـا فى مـأثرات رفـيعـة   فمـا محلة فى الروض مثل مـريعة
ولا دجلة فى الفيـض مثل وقيـعة   وذلك أمـــر الله يابن ربيـــعـــة
وتأسيســه للوحى فاطف أو ارسب

همـا مـا همـــا لا فـعل إلا تكرم ولا كف إلا وهى تـشـقى وتـنعم
سـوى أن ذا غـفل وذلـك مـعلم ومـا منهـمـا إلا حـنيف ومـسلم
على بهج إسـماعـيل غيـر منكب

فـأربعهم قـد عـدل المجد قـسمـه كما عدل التـربيع فى الطيع جسمه
وكل ذكى صـادق الصدق رجـمه وقد سلم الأفـعى نبجـران حكمه
إليـهم ولم ينـظر إلى مـتـعـقب

ولما اسـتـقـروا فى مكـين قـراره تطوف الجوارى حـولهم فى جواره
بنصـر قـراه فـى مـقـارى نضـاره رأى فطـنا أبدت لنـا عن نجـــاره
وكـان لنبع فـــاسـتـحـال لأثأب

فراستـهم قد صح فى الكتب نقلها يبـين بهـا عـقـد الأمـور وحلهـا
كـأن لسـان الغـيب عنـهم يملهـا وتلك عـلامـات النـبـوة كلهـا
تشـيـر إلى مـنظورها المتـرقب

فـيا مـادحهم أطنبـوا إن وصفـتم فما غاب عنكم فـوق ما قد عرفتم
أتت سنن سـبـاقـة إن قـطفـتـهم وقـال رسول الله مـهمـا اختلفـتم
ولم تعلموا قـصد السـبيل الملحب

وأقـصد إشـكال وأشكل مـقصـد وســد علـيكم كل بـاب يســدد
ولم يبق إقـليـد ســوى أن تقلدوا ففى مـضر جرثومة الحق فـاعمدوا
إلى مـــضـر تلفـــوه لم يتـنقب

ربيع ندى يغنى بأول رودة فمن ذا يجاريه بجود وجودة
وبدأة نعماه لها ألف عودة وسودة علك أمه من كسوة
وعدنان ينميها لأقرب أقرب
يرون الندى كالفرض حانت وقوته فلا معتب إلا ذراهم بيوته
ولا سبع إلا ظباهم تقوته وما سيد إلا نزار يفوته
ومن فاته بدر الدجى لم يؤنب
تمضر ترد غمر العطاء وعده تنزر ترد زهر الثناء ووره
فإن نزارا ما ارتضى النزر رفده قريع معد والذى سد فقده
متى يأتهم شعب من الدهر يرأب
مجلل وجه الأرض من نسل جلة فطرف وصمصام وسرد وآلة
ومترعها من أنجم وأهلة أبو أبحر الدنيا وأطوادها التى
بها ثبتت طرا فلم تتقلب
يذيلون إن عنت لحرب لبانة نفوسا عن الفحشاء فيها صيانة
تخف إلى الداعى وثم ركانة ولم يكفه حتى أعانت معانة
بكل عتيق جرهمى مهذب
لقد بسمت دنيا طويل عبوسها بذى عزة يضفو عليه لبوسها
له انقاد آبيها وذل شموسها وجاء معد والسماء شموسها
وأقمارهم فى ذيلة المتسحب

قطار سـقى حزن البـلاد ووعـثهـا ثوى مذحوى كـسب المعالى وإرثها
بأفـلاك عز دائـب السعـد حـثهـا وبين يـديه الأنجم الزهر بـثـهـا
على الأرض حتى لا مـساغ لأجنبى
حـمى عربه فـالعـجم لم يأمنوهم وصـال بكفـار العـدى مـؤمنوهم
له الأرض إلا جـيـرة أسـكنوهم تقـسـمـهـا أبناؤه وبـنوهم
فلا فضل عن رمح وأجرد سلهب
وخطـارة تخـــدى بأروع بـاسم ومطنـوية بين النـجـوم العـواتم
ومنشـورة فوق الجـيوش الخـضارم وزوراء مـــرنان وأبيض صـــارم
وزغف دلاص كـالغـــدير المثـوب
ولما ارتموا كـالموج من بحـر درهم وقد ضاق عن أقـمارهم وسع جوهم
بنوا بالعـوالى ما ارتضـوا لعلوهم ولولا انفِـســاح فى بلاد عـدوهم
لضاقت خطاهم عن مراح وملعب
تضـــمن سـرا مـن سليل مطهــر فلقى صـونا فى مغـيب ومحـضر
وأجـبـر من ناواه مـن مـتـجـبـر وقـدما تخـفى الله من بخت نصـر
به والورى من هـالك ومـعـــذب
قضى الله فـى سكنى المفار مـفازه فـأضـفى عليـه جـاهه واعـتـزازه
وحلى بـإفـرند المـضـاء جـــوازه وجنبـــه أرض البـــوار وحـــازه
إلى مـعـقل من حـرزه مـتـأشب

حـبـاه من الإجمـال أجـزل حظه   وخلصــه من مـغلظ القـلب فظه
ونجــاه حـتى مـن تسـمـع لفظه   وحل بأرمــينيــة تحت حــفظه
لدى ملك عن جـانبـيـه مـذنب

يشـيـد له ركـنى عـلاه ومـجـده   ويقـضـى به حـقى أبيــه وجـده
ولله ســر فـيــه أن حـان يبـده   فلمـا تجلـى الروع أسـرى بعـبـده
إلى حــرم أمن لأبنائه اجـتـبى

أووا لمقـام مــا أعـز مـقـيــمـه   يجـلـون منه ركـنه وحطيــمــه
وللشـمل عقـد يحـفظون نظيمـه   وقـد كـان رد الله عنهـم كليـمـه
ليـالى يدعــو دعـوة المتـغـضب

ثووا مــأمنا إن صــاونوه يصـنهم   ومهــما اسـتعـانوا الله فيـه يعنهم
إلى أن فـشـا حب التـغلب عنهم   وجـاء بنو يعـقـوب يشكون منهم
ينادونـه هذا قـتــيل وذا ســبى

رجـوا سلب الأمـر الذى بيـديهم   وقـالوا لموسى سـر بجـيش إليـهم
وإلا دعـــاء فـــهـو أدهى لـديهم   قـال له: لا تدع مـوسـى عليـهم
فـمنهم نبـى أصطفـيـه وأجـتـبى

هو المرتضى فى الأنبـياء وحـسبـه   ســتــرفع قــرباه ويشـفع قــربه
وفى بعـثـه هم تابعـوه وصحـبـه   أحــبــهم فـيــه رضى وأحــبـه
كـذلك من يحبـبه يكرم ويحـبب

أفـــضلــهم لما بلوت غـــيــــوبهم   لتـفضـيل من ألفت فـيـه قلوبهم
وأنزع من شـــرب الصـفـاء ذنوبهم   وأغفـر إن يستـغفـرونى - ذنوبهم
ومـهمـا دعـا داع أجـبه وأقـرب
رآهم كـليم الله مـــثل الأيمـــة   تضـاعف حـسناهم لرعى الأذمـة
ويوهب عـاص للمـطيع المسـمت   فقـال: إذن فاجعلـهم - ربى أمتى
فـمن ترضـه يارب يرض ويرغب
أفض بهــم ممن طغى كـل عـــروة   وأعتـد كلا فيك صحـبى وإخوتى
يشــدون أزرى أو يشيدون دعـوتى   فقــال هم فى آخر الدهر صـفوتى
يفضـون أعدائى ويسـتنصرون بى
خـلال مـعـد مـالهـا من مـعـدد   فكم من تقى نفس إلى عز مـحتد
ومن بشر وهاب إلى هدى مـرشد   دعـــائم إيمـــان وأركـان ســـؤدد
مضت بعلاها مـهدد بنت جلحب
خـــواتم أنســـاب كـــدرة خـــاتم   تقضت وفـضل القوم غـير مـقاوم
وكم بعـدها من مـعلم مـتـعـالم   ومـصـعـد عـدنان إلى جـذم آدم
بأبين من قـصـد الصبـاح وألحب
مناسب تشـريف عدمنا شـبيـهها   إذا نبـهوا ى شـأو مجـد نبيـهها
مـلاحقـها فـيه يبـارى وجيـهها   ونهى رسـول الله صـد وجـوهها
وكـان لنا فى نظمـها شـد ملهب

نهى فـانتهيـنا واستراحـت عواذل فـلا نقلة عـمـا انتـقـى عنه ناقل
بمحكم ذاك الحـكم أسكت قـائل والأَفَّـأُد بـن الهـمـيسع مـائل
ونبت بن قـيـذار سـلالة أشـجب

حديث من الأنساب ما كان مفترى تجـمع فى ناديـه مـفـتـرق الورى
فحلوا حمى رحب الذرى سامى الذرى وواجـه إعراق الثـرى كل من يرى
وأسـمع إسـماعـيل دعـوة مكثب

بدورا تسـام للتـسـامـى تبـادروا مـتى يتـأخـر سـيـد سـاد آخـر
تقـضـوا وكل بـالقـضـاء مـؤازر وقـــام خلـيل الله يـتلـوه آزر
أغـر صـبـاحـى لادهم عـيـهب

وكل عــجـاب عـند آزر يلتــقى مفـجر صـفو وهـو أكدر مـشرق
ومطلـع إشـراق ولـيس بمشـرق إلى الناحر بن الشارغ الغمر يرتقى
وللراغ ثم القـاسم الشـامخ الأبى

تولوا وكل سـابق الفـخـر باذخ تألقـهـم فـى دهمـة الدهر شـادخ
ومـبـناهم فى ذروة العـز شـامخ ويعـبـر ينمـيه إلى المجـد شـالخ
إلى الرافـد الوهاب بـرك وطيب

فكم مـصعب قـادوه طوع جنابهم وكم حملوا من مـرسل فى إهابهم
فقد جاوزوا الجـوزاء عند انتسابهم لسـام أبى السامـين طرا سمـا بهم
لنـوح للمـكان الـعلى لمـثـــوب

أثيب علـى عـقل وفـضـل مكمل بتكـثـيـر نسل فـى بقـاء مطول
فـبـورك فـيـه من أغـر مـحـجل لإدريس ثـم الرائد بن مـهلـهل
لقـيـنن ثم الـطاهر المتطيب
لقد فض عن سر العلى كل خاتم وأحصى علومـا أرشدت كل عالم
لرغم العـدى مـادونه من مـراغم إلى هبـة الرحـمن شـيت بن آدم
أبى البـشـر إلا على لطين لأثلب
لمبـدئـنا عـدنا وذل قـيـادنا فكيف افـتخرنا - والـتراب ولادنا
به عن قـريب لحـفنا ووسـادنا فـمـنه خلقن ثم فـيـه مـعـادنا
ومنه إلى عـدن فـسـدد وقـرب
على فطرة نحـيـا ونبعث فى غـد وبالسنة الـغـراء نهـدى فنهـتـدى
برئنا إلـيـهـا من غـوى ومـلحـد فنحن عـلى دين النبى مـحـمـد
شـفـيع إلى استنقـاذنا مـتـأهب
إذا هال يوم الحـشـر واربد فجـره تجلى رسـول الله يشـرق بـشـره
ونشـر لواء الحـمـد يـعـبق نشـره على مـوعـد من ربه سـيـسـره
ببشـراه فى اليوم العـبوس المقطب
لدار السـلام اقـتـادنا بسـلامـة إمـام لـرسل الله أى إمـامـة
يشـرفـه الرحـمن يوم قـيـامـة ويبـعـثـه فـيـه مـقـام كـرامـة
وبشـرى لأمن الخـائف المترقب

شفاعة فوز توسع الكفر تعسه يقوم بها من شاد للدين أسه
وشرف نوع العالمين وجنسه وكل نبى لا يحدث نفسه
بها فهو منها فى تفاد ومهرب

بما خصه ينسى عموم البريئة برى طاعة هجر العصاة المسيئة
فيسلمهم طرا لحكم المشيئة إذا أمه جمع يقول خطيئتى
ونفسى نفسى ذاك فجنب

سوى المرتقى منهم لأرفع رتبة عليه صلاة الله قدر محبتى
يبوئهم أكتاف قربى وقربة فيأتونه من بعد بأس وكربة
وقد ذهلت أم الصبى عن الصبى

ينادون يا أعلى النبيئين جانبا أتى كل عاص نحو فضلك راغبا
عسى الله ينجى من أوى لك هاربا فيسجد إعظاما ويضرع دائبا
إلى أن ينادى اشفع تشفع وتحبب

فيقضى لنا من رحمة الله فى غد بتسع وتسعين اختباها لموعد
ويشمل أهل الحشر جاه محمد وتلفظ نار الله كل موحد
مردى بغشيان الكبائر ملهب

فيخرج أقوام من النار خفت قد اصطرخوا حتى أهينوا وأصمتوا
فهم حمم لكن على الذكر ثبتوا فيلقون فى نهر الحياة لينبتوا
نبات البزور فى حميل مجلب

فيأتى من الله البشير مبيضا　　لما اسود من أبشارهم ومعوضا

من اللهب الوقاد روضا مروضا　　ويلحقهم فضل الشفاعة بالرضى

كلوا واشربوا من خير أكل ومشرب

فكل امرئ من خالص العقد بحته　　يرجى لدى هول المعاد وبغته

مفازا بتشفيع النبى لوقته　　سوى أن قوما جعجعوا بابن بنته

وحفوا به من قاتل ومؤلب

فقد كفروا فضل الرسول ومنه　　وضاع لديهم ما تلاه وسنه

أحين كساهم أمنه روعوا ابنه　　وذادوه عن ماء الغفرات وأنه

لنهب العوافى من أسود وربرب

لدى الطف يا ويل لكل مطفف　　مصاب متى تسمع به الشمس تكسف

غدا بغيهم من سبط أحمد يشتفى　　وأنحوا على أوداجه كل مرهف

طرير وحزوا رأسه للتوثب

ولو قام يدعو واستغاث قديمه　　إذا لثناهم ذو الفقار هشيمه

ولكنه فى الخلد رام نعيمه　　كأنهم لما أباحوا حريمه

أباحوا حريم الديلمى المحرب

دهانا بشر معتد كل معتد　　وفجع خير الخلق فى خير سيد

وأهدى دجى شكل لأنور ملحد　　فيا ربنا ماذا جزاء محمد

وواتره فى أهله كالمكذب

لقـوا فى جـحـيـم رجـزه ونكاله　　كـمـــا أثكلوا الهـادى بنـيـه وآله
وسـبطا غـدا ريحـانة فى الدنى له　　وقـــاتله قـــد فـات عن أن تـناله
شـفـاعتـه أو أن يقـال له أقـرب

أثارت لهم ثارات عـتـبة ضـغنهم　　وقلب تذكـــار القلـيب مـجـنهم
فمن لم يباشر طعنهم يخش لعنهم　　برئـنـا إلى الرحـــمن منهـم وأنهم
لأجـهل جـهـال وأخـيب خـيب

بنفسى رسول شـرف الرسل أجمعا　　لتـذكـاره ذنبـا نفـوسـا وأدمـعـا
ومـهمـا عثـرنا قال إحـسانه لعـا　　وإنا لنرضـيـــه وأصـحـابه مـعـا
ونأخـذ بالإجمـاع دون التشـعب

نرتب صحب المصطفى طوع وفـقه　　ونحـمل مسكوتا على حكم نطـقه
ونرعى لذى سبق مـزية سـبـقـه　　ونعطى أبا بـكر عـتـيـقـا بحـقـه
ونجـرى إلى حـفظ الـنظام المرتب

عـتيق بن عـثـمان مـعم ومخـول　　لأوفـر أقـسـام السعـود مـخـول
بتـــفــضـــيله نص أتى ومـــؤول　　ومـا قـــبل ثانيـــه من الناس أول
ولا مثل ثانى اثنين(1) مدحة مطنب

تنـحب تيـم رهطه وفــــرقــــه　　وأنجـبـه مـحض العـلاء عـريقـه
وسـدد خـيـر الأنبـيـاء طـريقـه　　ومن ينتـقص صـديقـه ورفـيـقـه
وصاحبه فى الغار يشرق ويشجب

---

(1) يشير إلى قـوله تعالى: ﴿...ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا...﴾ (٤٠) [التوبة].

ويحبط من الخيرات مـا كان عاملا ويخـبط بليـل لا يرى النجم آفـلا
ويدرج نفـاقـا بين جنبيـه قـاتلا ويخرج من الإيمـان إن كان داخلا
وإن يأت يسـتعـتب فليس بمعـتب

لقد حار فى الإسلام خـصل سباقه فـرباه سـقـطا عـالما بـائتـلاقـه
وأحـيـاه حين ارتـد أهل شقـاقـه مـؤلف شمل الدين بـعد افـتراقـه
وكـاشف خطب الردة المتـعـصب

معـادى الورى يبغى لأحـمد خلة ومـفنى القنا حـتـى تخلل شـملة
ولابس صـــديقـيـــة الله حلة . وقـاتل قـوم فـرقـوا الدين ضلة
وقـالوا صـلاة لا زكــاة فـذبذب

فلو لم يقدهم - والجفون غضيضة إلى الصفح قدتهم صـفاح عريضة
شـفى ملة الإسـلام وهى مريضـة فـقـال الصـلاة والزكـاة فـريضـة
وليـست صلاة من زكـاة بأوجب

أللشـرع تبـديـل ومـا بعـد المدى بتـفريـقهم للدين أمـهـوا له المدى
أجاهدهم جهدى فهم أعظم العدى ومالهم - عندى - سوى سنة الهدى
أو السـيف فليدن أمـر أو ليعـزب

كـسـا العـرب - لما آمنت برد أمنه فـزارتـه من سـهل المزار وحــزنه
لخــوف يمـــانيـــة وتأمـــيـل منه وكـانت لسـيف الله فيـهـا بيـمنه
حروب شـفت من كل غل ونيرب

إمامته الصغرى أشارت وحسبه إلى صحة الكبرى فبودر نصبه
وفى قول "يأبى الله" زاد التنبه إمام ينام المسلمون وجنبه
على حسك السعدان يجفو ويتنبى

رحيم السجايا يوسع الشرك نقمة سنا عدله لم يبق للظلم ظلمة
وشاد بنا الإسلام حكما وحكمة إلى أن جلاها كربة مدلهمة
بعارض موت للمنايا به حبى

تملك دنيا لم يعرها تلفتا وساس البرايا ماضيا متثبتا
وجمع وحى الله فى الصحف مثبتا ومهد للإسلام حيا وميتا
فأعظم به من حول الرأى قلب

بحسناه سار الناس أرفق سيرهم ولكن عناه بعده خوف ضيرهم
فأوصى إلى الوافى بتسكين طيرهم وعلق أبصار العباد بخيرهم
وأمضاهم فى الله هبة مضرب

بأوقر فى ناد وأسبق فى مدى وأصعب فى بأس وأسهل فى ندى
وأرحم فى صحب وأبطش فى عدى وأربطهم جأشا وأطولهم يدا
وأثقلم وطئا على كل مشغب

حسام عدى حاسمى عمر من عدا نجيب نفيل نافلى سلب العدا
سلالة خطاب خطيب من انتدى أبى حفص الفاروق عز به الهدى
وجاهر أهل الكفر لم يتهيب

رعى ملة رد الممالك ملكها وهامت به الدنيا فلم يعد فكرها
وزاد إلى عدل الخلافة نسكها وعز فبز الفرس والروم ملكها
ومن يعتصم بالله يغلب ويسلب
جبابرة الأملاك طرا له عنت فقسم أسلاب القصور التى ابتنت
وقصم أصلاب الجنود التى اقتنت ودوخ آفاق البلاد فأذعنت
وألقت إليه كل مسرى ومسرب
فكم نقد الأبطال نقد زيوفه وجهز رأيا مغنيا عن ألوفه
وبيض وجه الدين حمر زيوفه وأفنت حماة السرخ بيض سيوفه
فلم يبق إلا كل ألعس أشنب
فمن فضة فى المعدمين يفيضها وذاهب أذهاب بأجر يعيضها
أفيئت عليه صفر دنيا وبيضها وفضت كنوز القوم يعشى وميضها
بزرق وحمر فى نضار مشبب
فكسرى كسير تستباح سروحه وقيصر مقصور تهد صروحه
محاهم تقى تاق للخلد روحه فلما اقتضت وعد الرسول فتوحه
وقضى وأمضى كل هم ومأرب
وفى الدين والدنيا حنته إرادة وللملأ الأعلى دعته وفادة
وحنت له عدن وحانت سعادة أتته - ولم يوجف عليها - شهادة
وإن تنأه يعنق إليها وينصب

تلقى حبيبيه بنفس تطهرت وجاور فى دار زكت وتعطرت

وأبقى عهودا للإمامة قررت وخيرها فى ستة فتخيرت

مبوأ صدق بابن أروى المحبب

بذى مهجة عند النبى زكية وذى رتبة عند الإله علية

وذى سيرة عند الأنام رضية بعثمان ذى النورين بعل رقية

إلى أم كلثوم فأثل وأشب

رعى الله منه زاكى الخيم بره مواصلة الأرحام ترفع قدره

وتثنية الأصهار تجمع فخره وكان رسول الله يحمد صهره

وصهر أبى العاصى الرضى بعل زينب

هلال كمال والمعالى سماؤه هزبر صيال بالدعاء احتماؤه

غمام نوال بالنضار انهماؤه صريح لأقداح النضار انتماؤه

إلى كل نفاح المكاسر صلب

زكا من أبى عمرو حضور وغيبة وفاز مزجيه وللعذل خيبة

له بالندى حب وبالنسك هيبة تلاقى عليه عبد شمس وشيبة

وإن يلق مزنا وافد الريح يسكب

وبويع عنه بيعة نال رشدها بأكرم كف أكرم الخلق مدها

لذلك أصفته البرية ودها إذا ما تلقته الملائك ردها

حياء مردى بالحياء مجلبب

تقدم بالإسلام أكثر صحبه ونال الرضى فى هجرتيه لربه
وأنفق فى الحسنى كرائم كسبه. وجهز جيش العسر - منفردا به
وقال لخليل الله سيرى وأهذب

أطاق خطوبا ما ادعى الهضب طوقها بنفس إلى الفردوس عجل سوقها
فأبدت له الولدان والحور شوقها وفى مسجد التقوى المؤسس فوقها
مناقب وافت إذن كل منقب

توقى يمين الصدق يوم حكومة بألف مئات وافتدى من خصومة
ونال من العلياء كل مرومة وسقى عباد الله من بير رومة
بأنجع من ماء الغوادى وأعذب

أذال مصون الصين بالخيل تلتقى وفى جمع إفريقية بالتفرق
فمزق شمل الكفر كل ممزق وكم أثر باد وفتح مشرق
وآخر فى أقصى البلاد مغرب

تنازع قوم فى تلاوة أحرف فألزم صحب المصطفى كتب مصحف
ورد له القراء دون توقف وذاد عن القرآن كل محرف
على الله فى آياته متكذب

رعى الدين رعى الهزبرى المنجذ على حذو خليه من البر يحتذى
وسل كل حبر من بخارى وترمذ إلى أن أتاه صادق الموعد الذى
تقدم يوم القف بعد تجنب

فلما انقضى نسك به وعبادة تشوقت الحسنى له وزيادة
وقيل غدا صمه تفطرك سادة وأفضت به نحو الجنان شهادة
ممحصة وافت به حش كوكب

نهى عن قتال - والقلوب كليمة وصحب الهدى بالذنب عنه رغيمة
وصابر فى بلواه - وهى أليمة وسيقت إلى الرحمن نفس كريمة
على الحق فرى جلدها عض أكلب

هناك تحرى القوم فى الفضل نده فسد مكانا ذو المكانة عنده
وأغنته شورى أن يجدد عهده وبويع خير الناس لاشك بعده
ولو جوبوا فى الأرض كل مجوب

أبو الحسن المرضى من خير معشر لفاطمة الغراء بنت غضنفر
صفى وصهر وابن عم موقر على أبو السبطين صاحب خيبر
وعمرو بن ود والوليد ومرحب

بغر المزايا مفرد دون شركة عفيف له فى الحرب أهول فتكة
سطا حاسرا والبأس أحصن شكة أقام على الأفلاذ أفلاذ مكة
ببطشة بدر كل نوح ومندب

عدا عن قليب الصفو صف عديها وجلاهم أن يرتعوا فى حليها
ورواهم بالطعن قبل رويها فكم منطو من سرهم فى طويها
وقد كان كالجذع الطويل الشذب

على فـضله تثنى الخناصـر أولا وتثنى الطلى عجبـا به حين يجتلى

بدا حالى الأسمـاء أو سامى الحلى لعـبـد مناف ذى الزعـامـة والعلى

أبى طالب أعـجب به ثم أعـجب

تبنى رسـول الله فـيـمـا رويتـه فـأنس مـحـيـاه وأوحش مـوته

سما صيتـه فى العرب وامتد صوته مطل عـلى أبيـات مكة بيـتـه

ومـقـتـبس من نوره كل أخـشب

لكهف قـريش حـتف كل مـعـاند لمعـقلهـا الواقى لهـا فى الشـدائد

لسـيـدها الملـقى له بالمقـالد لحـامى رسـول الله مـن كل كـائد

ومـانعـه الفـادى لـه المتـعـصب

يروع العـدا حـتى بـطارق طيـفـه ويعطى مـناه من مناه وخـيـفـه

ولم يأل نصـحا للغـفارى ضـيفـه ليـالى لا يأوى إلى غـيـر سيـفـه

ولا ناصـر يعـدى ولا متـحـزب

وإذ جـاء غـاو للنبـوءة كـائد وقى ربهـا ثم ابـن عم مـعـاضـد

عـشيـة يجـفـوه شـقـيق ووالد وإذ جل قـريـاه رجـال أباعـد

يطوف منهـم بين صل وعـقـرب

أقام فروض الخمس وهـو ابن خمسة وزاد لهـدى انبيـه تطهـيـر عرسـه

فـصف لى رحـمـاه وشـدة بأسـه له بـأبيـه الحق ثم بنـفـسـه

علينا - وعـقـد الدين لم يتـأرب

أفـــاءت له دثر الخـــلال ظبـــاته فـأفنتـه فى أدنى الزمـان هـبـاته
فـقـد قـبلت عند الركـوع زكـاته وقـد سبـقت أهل الصلاة صـلاته
بسـبع فكم فـــضل هناك مـوجب

وآخــاه أعلى من تعـــمم وارتدى وشـرفـه بالبـر فى كل مـنتـدى
وأحِفى له البشرى وأضفى له الجدا وخص من الزهراء فـاطمة الهـدى
بأزكى نـســاء العــالميـن وأطيب

جرى والصحاب الغر في شأو سؤدد فشاركـهم فى مجدهم شركـة اليد
وسـوغ مجـدا حـازه حـوز مفـرد وفضل بـالسبطين سـبطى محـمد
ولا سبط فى الدنيا فـشرق وغرب

فــأهلا بأدنى صـــاحب وأمـتـــه تنكب عن وعـر السـبـيل وأمـتـه
وسار على هدى الـرسول وسمـته ومنزلـه منه على قــرب بيــتــه
كهارون من موسـى فقرب وقرب

فكم كربـة جلى عن الدين عضـبه ولا مـشـــهـد إلا يشـاهـد قـربه
ومن كنت مـولاه كفـته وحـسبـه وعـــهـــد إليـــه أنه لا يحـــبـــه
سوى مؤمن فاحكم على المبغض الغبى

إخـــاء رسـول الله أثـل مـجـــده فـمن ثم يســتــملى تقـاه وزهده
إمام هدى فـى العدل أنفل جـهده وسيـان ترب الأرض والتبـر عنده
وقدر عـديم فى الحـقوق ومـترب

إذا جنت الظلماء طار هجوعه وقطعها قرآنه وركوعه
وأضواء من زهر النجوم دموعه ولما تولى الأمر زاد خشوعه
وطلق دنياه وقال لها اغرب

أبعد ابن عم للإمامة غاية وقد عم إجماع وخصت رواية
أما تنجلى عن أهل شك عماية وفى قتل عمار بصفين آية
وفى نابحات الركب ليلا بحوأب

ندين بحب للجماعة جامح ونبدع مدحا فى قواف بدائع
سوابقهم تكفى فحد عن منازع وكل إلى صفح من الله واسع
وجنات عدن فاطرح قول مجلب

سلوا المستحلين الذين أحلهم حرورية ذات الحرور أحلهم
تلقاه فيهم صادق الوعد قبلهم وإن قتال المارقين وقتلهم
لأعظم برهان وأكبر موهب

كفاه نقابا واستمعها مناقبا إشارته للفود ينعت خاضبا
وإنشاده بيت الزبيرى - عاتبا وأخباره عن ذى الشدية غائبا
بخبء فلما قتلوا ظهر الخبى

إذا رامت الأقوال حصرا لفعله فقد عالجت من عالج عد رمله
ولم تقض بعض الحق بالمدح كله وما تبلغ الأوصاف غاية فضله
ولكن كل الصيد فى جوف قرهب

دهتنا فـأهوال المـعـاد مـعـادة　　خـبـيـئـة خب من مـراد مـرادة
تولى فـأحـزان العـبـاد عـبـادة　　إمـام سـعيـد صـبـحـته شـهـادة
بضـربة أشـقى العـالمين وأخـيب
ضـيـاء لميـراث النبـوءة قد خـبـا　　فـأظلمت الآفـاق شـرقا ومـغـربا
سكيـنة أرض أذهبت يـوم أذهبـا　　فأعزز على الإسلام ما هبت الصبا
بشـيـب كريم من شـواه مخـضب
إلى مـجده عـجـبا بـأبدع مدحـة　　ومن رشـده فـزنا بأوسع منـحـة
وعن فـقـده أبنا بأفـجـع ترحـة　　وفى منتهى الشـورى الزبير وطلحة
وسـعـد تناهى كل فـخـر ومنقب
أكـابر أعـلام على الـعلم نقـبـوا　　قضى الله أن حبـوا لديه وإن حبوا
قـد انتخـبوا للـسابقـات وأنجبـوا　　فذا ابـن عبيـد الله طلحة مـوجب
وهذان مـفـديـان بالأم والأب
فمنهـم مجاب الأدعـيات برحـمة　　وأسـمح مـعطاء وأشـجع بهـمـة
فلم لا نقضى العمـر فى رعى حرمة　　وذا صنو صـديق وذاك ابن عـمـة
وذلك خـال من يشـابـكه ينجب
حلا صـفوة الأبرار أصـفى تحبـبى　　هواهم من الدارين ذخرى ومكسبى
وبالمدح فـيـهم نحـو ربى تقـربى　　وفضل ابن عوف والأمير الرضى أبى
عـبيـدة فـضل من يغـالبـه يغلب

بإنفـــاق ذا يفنى تلـيـــد وطارف   وذا زاهد لم تسـتـــمله الزخـارف
فـحسـبى وصفـا أن تحيـر واصف   وعاشـر أهل الطود والطود راجف
عـريق هدى فى الجاهليـة مشـقف

تسـامى عن الدنـيـا الدنيـة همـة   ولا مـشهـد إلا سطا فـيـه بهمـة
وإن غاب عذرا يعط أجـرا وقسمة   ويأتى أبـوه فى القـــيـامـــة أمـــة
وقد كان فى الدنيا كـعنقاء مغرب

هم عـشرة حازوا الكـمال ضريـبة   وحلوا بفـردوس قصـورا رحـيبـة
وواحـــدهم مـــا زال يلقى كـتيبـة   وكل لفـــهـر أو قـصى صليـــبـة
يقـــــارع منهم كـل نبع بأصـلب

مـــــفلـل هندى منيل هـنيـــــدة   حـلاه كسلسال بصـفـو شـهيـدة
فكيف لنا عن حـبهم بعض حـيدة   وأين بنا عـن حـمزة وعـبـــيـدة
ليـوم كـفـاح قـاتم اللون أكـهب

فكم قـد أباحـا من نفوس مـنيعـة   بمشـرعـــة تحـمى أجل شـــريعـة
وقـاطعـــه سلت لأهل قطيـــعـة   هما بطشـا فى الحرب بابنى ربيـعة
فـعـادا نهـابا بـين ناب ومـخلب

همـا هضبـتـا ثهلان أرسى وقـاره   فذا ملجـأ الخاشى وذا مـستـجاره
فـمن قـل حـامـيـــة وقل غـراره   فـــذا أســـد الله المـنيع ذمــــاره
مـتى يلقـه ليث الخـفـيـة ينشب

همـا أوحداها فـى مسـاع نبيهـة فـذا خيـر بذال لنفس نزيهـة
وكـعب إياد فى أيـاد بدهيـة وذا بهـمـة لا يثنى عن كـريهـة
متى يدع يومـا للردى يتـوثب

وللأب صنـو مـا أبر وأمـجـدا عمـيد قـريش مسـتغـاثا ومجـتدا
ومن ورثت أعـقابـه الملك سرمـدا وذو الصوت والصيت البعيدين فى الندى
وفى الحرب مهمى يطعن القرن يضرب

يعـانق أعطاف القنى دون أبـهـة ويعـرض سمـعـا عن تسمع بهـة
وينده ذا حـرب ويحـبـو بندهة أبو الفضل مأوى الفضل من كل وجهة
ومفضى سماء الفخر من كل مسكب

أنيس رسول الله - والسـمر أشرعت يفـرق عـنه مـا هوازن جـمـعت
ويثبت فردا والـضراغم صـرعت دعـا فى حنين دعـوة فـتـقطعت
بنو قـيلة من مـحـضر ومـخـبب

سـقى حرمـيهـا والحفـاظ يهجـه فـذا بدعـاء للسـمـاء عـروجـه
وذا بزلال تعـتـفـيـه حـجـيـجـه مـقبل طعـن الحى أوفت حدوجـه
فناهيك من سبط المفـاصل شوذب

مـضـوا بمواض للنفـوس مـفتـيـة وأرواح صدق فى الوغى مستـميتة
فـفى الله قد فـازوا بأشرف مـيتـة وفى ذى الجناحـين الشـهيـد بمؤتة
فضائل مهـمى يحسب الرمل تحسب

صفى لخير الخلق أحفى معاشر ومشبهه من بين صيد أكابر
بخلق بهاء أو بخلق مآثر أفض عباد الله قلبا لكافر
وأرأفهم بالمؤمن المترهب

عمومة خير الخلق قدوة وأقمار أم الفضل للفضل صفوة
وستتها ما مثلهم قط إِخْوَةَ وللحبر عبد الله والبحر دعوة
علت وانثنت مقبولة لم تحجب

جمال لدى النادى ثمال لدى الندى روى هادى الأحكام أو حكم الهدى
وفاق شيوخنا - والصبا بعد مرتدى وفقه فى التأويل والدين فاغتدى
إماما متى يقرع به الخصم يكبب

بنو هاشم سادات دهر بهم حسن فلولاهم لم تبق دنيا ولم تكن
إذا الحرب جاشت فالحصون لهم حصن ومولاهم زيد الكتائب منهم انـ[1]
ـتماء وإن تنسب قضاعة ينسب

تفرس قبل العبث صدق علامة فآثر ملكا من نبى كرامة
على رفعة فى قومه وزعامة أبو الحب فى حجر النبى أسامة
فاحبب بهذا ثم هذا وأحبب

مدحت رسول الله من شغف به وأحببت أهليه بفضلة حبه
وأجللت أبرارا تساموا بقربه ومن ذا الذى يحصى فضائل صحبه
وإن يستمد البحر ينزف وينضب

(١) فى هامش المطبوع: «حرصا على الوزن والقافية فى الشطر الرابع من هذا التخميس وحتى يستقيم الوزن فى الشطر الخامس. آثرنا تقسيم كلمة (انتماء) فجاءت هكذا».

وفت لرسـول الله صفـقـة كفـهـم   فهم معـه فى الخلد فى نعم طرفهم
كما معه خاضوا الردى يوم زحفهم   هم صفـوة جاء الكتاب بوصـفهم

فـمـا بعـده فـضل من المتـأدب

فواخـجلى لولا عمـيم ارتياحـهم   فضحت سهى نظمى بشمس التماحهم
وأغرقت أوشـالى ببحر سمـاحهم   بلى إن فى أوصافـهم وامتـداحهم

رضى الله فازهد فى المديح أو ارغب

فكم فى مـعـد من مـعـد ذخـائر   وفى يعرب من معـرب عن مفاخر
صحـابة خيـر الخلق خيـر معـاشر   وكم فيـهم من مستـميت مهـاجر

سـريـع إلى أقـرانـه مـتلـبب

وناشئ سـرو فـى سـراوة أبطح   وداعى نزار صـالح السـر مـصلح
وذى يمن سـمح الخـلائق مسـمح   وندب من الأنصـار غـمـر ممدح

مـحـيـا مـبكى بالقـلوب مندب

بخـزرجه أو أوسـه - وهما همـا   أعـز الهدى لـمـا حمـاه حـماهمـا
فكم أنجـبـا ممن يشـيـد عـلاهمـا   كسـعد أبى قـيس وقيس كـلاهما

يمـانى صلاء كـاليمـانى المشطب

يقـود المذاكى سـابـغـات ظلالهـا   وقـد قد من خـد العـزيز جلالهـا
وصـاغ بتـيـجـان الملوك نعـالهـا   تحـامت قريش بأسـه إذ سـما لهـا

بأرعن فى قـتـل الكمـاة مـدرب

بتكـريمـه دان الأكـارم أجـمع وغـيرتـه فى الله تحـمى وتمنع
ونار قـراه بالكبـاء تضـوع وقال رسول الله – برا به – اسمعوا
لسيـدكم فى مـحـفل متلجب

من المستحقين الرضى عند ربهم برائق جـدواهم ورائع حـربهم
تخيـره الهـادى نقيـبا لحزبهم من الخزرجيين الذين سمت بهم
خـئولتـه في كل مـجـد منصب

حوى الشرف السعدان فـاسمع مقاله أرى مـرتع السعـدان لا نبت طاله
فللسـاعـدى العـز يضفى ظلاله ولابن مـعـاذ سيـد الأوس مـاله
حـديث لعـمر الله غـيـر مكذب

فـحبى من طـلق المحيا وسيمـه مـلائك عـدن هزة لقـدومـه
أقلت سـريرا سـار فـوق نجـومـه مناديله قـد أنبـأت عن نعـيمـه
وكم شـاهد ينبـيك عن مـتغـيب

قضى من جـهاد الشـرك كل لبانة وحكم فى طـاغـين أهل خـيـانة
فـوافـق حكم الله وفق إعـانة وأبدى اهتزاز العـرش عن ذى مكانة
يقـال له أنعم وأرض غيـر مشـرب

تحـمل عبء الحـق دون شكيـة وجـاد بمـال ثم نفس زكـيـة
فـعـين التى تبـكيـه غـيـر بكيـة من الأوس فى جـرثومـة مـالكيـة
درائيـة فـادرأ بهـا النـاس تغلب

ومنهم سـماك خـام عنه المصـالت وتواب صدق فى السـلاسل قانت
وذو المنطلق الحكمى ينميـه صامت وعن لنـا قـبل المعـاذيـن ثابت
وحـارثـة سـهل بـكل ورحب

شـجـانى فـراق لـلأحـبـة باغت فجـسمى به خـاف وروحى خافت
فنيت وودى فى ذوى النصـر ثابت مـيامن منـهم أخطب الناس ثابت
وكان متى يستأسد الخطب يخطب

رآهم تـوقـوا كـل إثم وحـوبة فـزادهم تقـوى وتجـديـد توبة
وشد عـهودا فـى حضـور وغيـبة وقـام وقـد حل الرسـول بطيـبـة
بأسـيـر قـول فى البـلاد وأذهب

وقـال خلعنا اللات خـلع لبـوسنا سنشـرب فيك الموت ملء كئـوسنا
ونعـرض عن أقـمارنا وشـمـوسنا وقـال مـتى نمنعك منع نفـوسنا
وأمـوالنا مـاذا لنـا من تثـوب

حلت عندنا فـيك الوغى وهى مرة فـمـاذا تـوفى أمـة بـك برة
إذا حـان للخلـق الذى باد - كـرة فـقـال خلود فى الجنان ونـضـرة
فقال رضينا فادع من شئت واندب

وحنظلة بشـراه فى فـوز سـهـمـه لقد طهـرت بالسفح طاهر جسـمه
مـلائكـة نعم الأسـاة لكـلمـه وحـارثة قـال الرسـول لأمـه
ببدر وقـد قالت لعـبرتهـا اسكب

رويدك من فـرط الأسى والتـأسف أيبكى لمحـبـور بقـصر مـزخـرف
ومـتكىء فيـه على خـضر رفـرف أفـيــقى أفـيـقى إن حــارثة لفى
نعـيم جنان للحـسـيفـة مـذهب
لهم قدم للصـدق بالشهب تحتذى وسل بمعــاذ أو أخـيــه مـعــوذ
هما جـدلا عمرو العـدا دون منقذ ومنهم مــعــاذ أعلم الـناس بالذى
أحل لـهم وبـالحـــــرام المجـنب
خـدود ظبــاهـم زينتـهــا أسـالة وعنـد قناهم لـلقلـوب رســـالة
وأنفــسهم فـوق الصـفـاح مسالة وعند مـعــاذ بن الجـمـوح بسـالة
وشــدة بأس كـالهـــزبر المغـضب
رأى قلبـــه روض الجنان منعـــمـا فخــاض له نهر الصوارم خضـرما
نضى لبســـه لما أتى الله مـحـرمـا عـشـيـة ألقـى درعـه مـتـقـدمـا
إلى الموت لم يـنكل ولم يتـــذأب
مـسامـيح لم يسـمح زمـان بمثلهم إلى نـقـــبـــاء بالمنـاقب حلـهم
فـمنهم أبو أيـوب مـدره حـفلهم ومنــهم أبى اقـــرأ الـناس كلـهم
وآتاهم لـفظا ونطقــــا بأصــوب
نجـار من النجــار فى بيت سـؤدد وتهنئـة بالعلم فى خـيـر مـشهـد
وسعــاه من شاد السماء فـقد هدى وزادته إخـــبـاتا قـــراءة أحـمــد
عليــه فـأى الدمع لم يتــســرب

ولا قـيـل إلا هاب أبناء قـيلة حمـوا عند خوف آثروا عند عـيلة

لهم حكـم أزرت بمولى سـخـيلة ولابن حـضـيـر آية ذات لـيلة

وقـد غشـيتـه ظلمة ذات هيـدب

تهـجـد بالقـرآن ليل سـهـاده فأبـصر مثل الـسحب فـوق سواده

بهـا سـرج كـالنـجم عند اتقـاده وخـاف على يحيى مـجال جـواده

ولا ضير فيها فاتهد واتل واعجب

وذو الرأى كاد الكفـر فى قلب عفت وذو العـين ردتهـا أجل يد شـفت

وذو السيف أعطاه الجـريد فأرهفت وذو النور عـباد بن بشر تكـشفت

دجـاه بنور من عـصـاه مـشـغب

أمـاجـد سـادوا كـابرا إثر كـابر إذا خطبـوا فـالشـهـب أدنى منابر

سل الوحى عنهم تلف أخبـر خابر وسـاجل بـعـبـد الله ثم بـجـابر

ونط بهما من شئت تفضح وتتعب

نجيـبين فى العـليا أطالا وأعـرضا بكفيهـما صمصامـة النصر تنتضى

لقد سلكا نـهجا من البـر مرتضى فـذاك أظلتـه مـلائكـة الرضى

بـكل جـناح بـارد الـظل أهـدب

أب طاهـر وابن تقـيل سلبـه كلا الفاضلين استوجبا الفضل كله

فـذاك شـهـيـد - كـرم الله نزله وهذا رسـول الله مـسـتـغـفـر له

متى يطلب الغـفران يرض ويطلب

لهم خلق إقدام وخلق سجاحة وألسن إفصاح وأيدى سماحة

فكم من صباح أخلجوا بصباحة وحسبك فى الهيجاء بابن رواحة

وعند القوافى رائع النظم مستبى

مفيد سيوب عن سيوف مفيتة ورابط جأش فى كماة هبيتة

وناطق شعر فى حروب صموتة وثالث آساد الشرى يوم مؤتة

ولا خطو إلا فوق أزرق قعضبى

بشأويه من قول وفعل حوى المدى جرىء على الأبطال مثنى وموحدا

ومبتدع للنظم إن راح أو غدا فلله من حلو الشمائل إن حدا

ركابا أكلتها التنائف تطرب

سخى يعيد الأسخياء فداءه كمى يعد المشرفى رداءه

محب يلبى كل روح نداءه لذلك ما استدعى الرسول حداءه

وقال له حرك بنا العيس تنهب

ونعم ابن جحش مشبه الخال رفعة أشم العلى إذ نال فى الله جدعة

ومن أهل بيت بادروا الحق سرعة وإن جليبيبا وقد حس سبعة

لمسعر حرب فليبك ويندب

بنفسى شهيد شاهد الحق صنعه تعجل رضوان إلى الخلد رفعه

عروسا بحور تحسب الدم ردعه تولى رسول الله فى اللحد وضعه

على ساعديه أى نعش ومركب

حـلا كـجنى نـحل بماء غـمـامـة نسينا ابن سعـدى عندها وابن مامة
فيـا روضها ضاحك بـثغر كمـامة وأهلا وسـهلا بعـد بابن حـمامـة

بلال الملقى فى الإلـه المعــــذب

بسـابـق حـبش سـائق لـهم غـدا بحـافظ أوقـاف الـفـروق تعـبـدا
بمن تذرف العـينان مـهمـا تشهـدا بأبيض ما تحت الضلوع من الهدى

متى يطلع فى ظلـمة الليل تنجب

وأســمــر مـا للطعن ســدد لدنه وأزرق مـا فــوق المعــاطف سنه
وأحمـر ما فى الروع كـسر جـفنه وأخـضـر مـا تحت القـبـاء كـأنه

حـسام مـتى ينفح به القرن يتـبب

أضـاعتـه كفـار أبى الله حـفظهم وحضوا عليه فاغتدى الخسر حظهم
فسبحان من أعمى عن الرشد لحظهم يســومونه شـركا فـيجلب غـيظهم

بتـوحــيـده لله من كل مـسجلب

بتـرجـيعـه ذابت نفـوس الخـلائق فكم سـاق للتـوحـيـد قلب منافق
وكم شاق لـلفردوس أهل الحـقائق وكم من شهـيد فى القيامـة صادق

له من مدى صـوت الأذان المهبب

وفى غـزوة والكفــر رهن بشـتـه شـجى بأذان طال عــهـد بوقـتـه
وذكر عـصر الوحى من بعـد فوته وكم عـبرة بالشـام فضت لصـوته

وأحـضرها من بعـد طول تغـيب

وقالوا رجونا حاجة منك فاقضها فلما دنا وقت الصلاة بفرضها
وقيل له أذن بشامك ترضها بكى عمر والمسلمون بأرضها

لذكرى حبيب بالبقيع فبيثرب

قضى فى جهاد واجتهاد مردد شرى تعبا يفنى بروح مخلد
فلابن رباح كل ربح مجدد ولابن سلام عند عيسى وأحمد

وموسى مكان المخلص المتقرب

بما جعل التوراة حومة حومه تحقق بعث المصطفى قبل يومه
فأعرض عن عذل القبيل ولومه ولما أراد الله إخزاء قومه

وكانوا جميعا بين عاند وكذب

تجنب إفك الفاسقين ومينهم ودان لرسل الله لم يلو دينهم
إلى أن رأى ختم الجميع وزينهم وكان قديما لا يفرق بينهم

بنور من التوراة عن كفرهم خبى

فلما اهتدى وارتاب أهل التهود ووقف منهم بين شكر لسؤدد
وبين اغتياب أن دروا أنه هدى طوى عنهم إيمانه بمحمد

وقال متى أظهره أبهت وأسبب

وقال له أقبلت للرشد قابلا فأخف عن الأقوام شخصى عاجلا
وكن لهم عنى - فديتك - سائلا فلما انتهوا فى مدحه قام مائلا

يجادلهم فاستقبلوه بأزيب

ومن فقهاء الهجرة المدنية مفاتيح الاستفتاح عند السرية
وحلبة سبق للجنان العلية وما لابن مسعود ولابن سمية
وسلمان والندب الغفارى جندب

وسالم قرآن به ائتم كبرهم وداعى أذان حين يطلع فجرهم
ومصعب الدارى لله درهم من الفضل لا يحصى فحسبك ذكرهم
وإلا فقس خضر البحار بمخضب

فلله ما اتقى وأنقى صحيفة مراتبهم تعلو السماء منيفة
وليلاتهم تحيا رجاء وخيفة وأيام سيف الله أردت حنيفة
وسلت عليها كل أبيض مقضب

سيوف عنا قسرا لها كل قسور وأسكت ناقوس بصوت مكبر
وعوض من قس خطيب بمنبر وبشر منها آل كسرى وقيصر
بملك شعاع مستباح مخرب

سبى الفرس من تيجانهم أى حلية وقسم روما بين قتل وجزية
ومن كل أهل البغى فاز ببغية وأى كفور لم يرعه بفتية
تسقى عداها بالزعاف المقشب

عراق وشام والحجاز به فدى متى تأتها تسمع لدى كل مشهد
قضى خالد فينا بفتح مخلد وما هى إلا بطشة من مؤيد
متى يقعد الآجال تنقد وتصحب

صحاب رسول الله في نعت ناعت كـأشـجار طـيب فى أغض منابت
سمـا فرعهـا والأصل أرسخ ثابت وإن أبـا زيـد وزيـد بـــن ثـابـت
لفى شـامخ سـامى الذؤابة أرقب

همــا أحكمـــا وحى الإله وأتـقنا هما جـمعـا حفظا ولفظا مـحسنا
لقـد بهـــرا فـيـمـا أسـرا وأعلنا وفى آية تـتلى كـــمـــا نزلـت لنا
وتبـيـين فـرض إن تعـداه يذهب

بصحب الهدى أبدى الزمان اختياله غـداة غـدوا إجـمــاله وجـمـاله
فلوا أومـــئـــوا للأفق نالـوا هلاله ولو نيـط فـــخـــر بالثـــريا لـناله
أبو طلحـة عـفـوا ولم يتـصـعب

بســــراء أو ضـــراء أنفق مـــاله وفى الســـر والإعـــلان واصل آله
وصيحـته فى الحبيش هدت جـباله ولما تـناءى الـبـــر عـن أن ينـاله
بغـير سـخـاء عن نضـيد مـركب

وأيقـن أن النفس تـردى بضنهـــا وأن سـماح النفس من غـير منهـا
بفـتح للأبـرار جنات عـــدنهـــا سخت نفـسه عن بيرحاء وحـسنها
وعن كل قطف مائل العطف مرطب

وكم قـاد مـقـداد عـرابا سـوابقـا صـهلن رعـودا واخـتطفن بوارقـا
فـأهلكن ذعـرا كـافـرا ومنافـقـا وجاء صـهيب سـابق الروم سابـقا
يقود إلى دار الرضـى كل أصهب

وغـالبـه عن هجـره آل غـالب فأعطى القنى يرجو لقاء الأصاحب
فقـيل ربحت البيع يا خيـر كاسب وأن أبـا هر لألـزم صـاحـب

وكلهم مـن حـاضـرين وغـيب

مـبـشـر دوس حـين لاذوا بركنه مـسـددهم حـتى أنابوا بيـمنه
حظى لدى المخـتـار إن زار يدنه لزيم رسـول الله فى شـبـع بطنه

فـسـيـان إن يعـرق وإن يـتنغب

وعى الذكـر فى تهـجيـره وبكوره وواصل حـفظا باتصـال حضـوره
وبالبسط للثوب استقى من بحوره فـآض بعلم يسـتـضـاء بنوره

متى يعترض من دونه الصعب يركب

وزان ابن عم زانـه النور عـمـة فقـال عسى فى ذيل سوطى تتـمة
لئـلا يظنوا مـثله بى ملـمـة وكـان لدوس حـين أسلم رحـمـة

بها استنقذوا من حاجم ذى تلهب

ونجل حـوارى حـرى بـرعـيـه بميـلاده سـارت أكـابـر حـيـه
وتعـسـا لقـوم كبـروا عند نعيـه ولم يأل عـبد الله فى حـسن هديه

سمـوا إلى فاروقـه فاسـم وأقرب

فـبـورك من خـاش لذى العـرش روايتـه روت بأحلى المشـارع
وكم نـفـعـتنـا عنه آثار نـافع له كل برهان مـن الفـضل سـاطع

ورؤياه رؤيا أفـصـحـت بالمغـيب

ولابن ربيع فى أعـز المشـــاهد مقام سما عن مخبر أو مشاهد
وبالنصـر وصى غائبـا بعد شـاهد وفى أنس بن النضـر أعدل شـاهد
ببـــريمـــين عن يقـــين تحـــوب

تنسم عـدنا يـوم تمحيص شـهـد فقـد ولم يعرف بعضو سـوى اليد
وقـال كـذا فلينتـدب كل مـهـتـد ولابن أخـيه الندب خـادم أحمـد
فـضـيلة مـخـتـص لأبيـاته ربى

فطوبى له من طاهر القلب شهـمه مصـيخ إلى قول الرسـول بفهـمه
ومكمل مـــا يلقى لــه ومتـــمـه أبى حـــمـــزة أكـــرم به وبأمـــه
فكم لهـــمـــا من حظـوة وتقـرب

ومن سـابقـات نـيـرات آياتهـــا ومن مكرُمـات مُـكْرِمـات رواتهـا
ومن حـسنات أعـليت درجـاتها ومن دعـــوات خلدت بركـاتـهـا
طباهم وأرضـاهم بها خـير مطبى

وكعب علا كعـبا على رغم شامت ومنطـقـه للـحـرب أنعـت ناعت
وتيب عـليـــه توب أروع قـــانت وحسـان حسـان الحسـام بن ثابت
يقول وروح القدس للـقول مجنب

محا بامـتداح المصطفى طيب نومه وفى الله لم يحـــفل بمولم لـومـه
وفى محـفل الإنشاد أحفل بيـومه له مـجـده فى قـــومـه ولقـومـه
به رتبـــة زادت على كل مـــزرب

وصـوت ابن قيس إذ يرتل حـزبه		مـزامـيـر داود به تـتـشـبـه
وخـبب خـبـاب فلم يـنس ربه		وحـاطب لخم أعظـم القـوم ذنبـه
وحشوا عليـه الموت من كل محطب

وفـرقـة هدى أفـرقـتـه وهددت		وكـانت له زلفى عن النار أبعـدت
وأعذار إخـلاص لدى الله مـهدت		فنهنهـهم عنه الرسـول وقـد بدت
مـقـاتلة للـثـائر المتـوثب

ولقـاه بشرى سـامـيـا قدر أهلهـا		أوى كل ذى سـبق لـوارف ظلهـا
وفى مـحـفل رداه حلـة حـفلهـا		وصـدهم عنه بيـدر وفـضلهـا
وشـداته بالسـمـهـرى المعلب

تحلى خـبـيب للـتـقى خـيـر زينة		ومـاذا تلقى عـاصم من سكـينة
غـداة حـمـتـه الدبر أى أمـينة		وفـاز حـرام يوم بئـر مـعـونة
بقطر دم يسـتن من كل مـشـخب

منهم وقـور السـمت سكن طيـره		عويـمر القاضـى الذى شاع خـيره
فللعـدل مـثـواه وللغـزو سـيـره		وعـالم سـر ليس يدريه غـيـره
حـذيفـة لم يمـذل ولم يتـسـرب

وحـسل أبوه يوم أخلص غـزوه		سيـوف إلى الغايات لم يـثن شأوه
وإن ابنه بر إذ اخـتـار عـفـوه		وإن ابنى العـاصى هشامـا وصنوه
على نهج إيمـان منيـر مـصـوب

وفى اليمن الإيمان ليس بمختف ... وإن عديا للمحامد مقتف

وزاد قديما للقدوم المشرف ... وإن جريرا خير ذى يمن لفى

ذؤابة مجد باسق متهيب

لبهجة مرآه بيوسف قدوة ... وجقت له لولا الديانة نخوة

ببسط رداء فيه عز وحظوة ... وتمت له من خاتم الرسل دعوة

تقلب منها تحت عقد مؤرب

تلقى وصيات الرسول بوعيه ... وروح من طاغوت دوس وغيه

براشد منحاه وصائب رأيه ... وأصحمة أرضى الإله بسعيه

وذاد عن الإيمان كل مخيب

رأى الحق عن بعد بناظر قلبه ... وعاض من التثليث توحيد ربه

مقرا برسل الله طرا وكتبهم ... وكان ملاذا للرسول وصحبه

وبان وبانوا عنه غير مؤنب

أصاخ لوحى وهو باك موله ... وأعظم أمر المصطفى وأجله

وساق مطيعا مهر رملة كله ... وصلى عليه أحمد شرفا له

وأوصاله فى النعش لم تتحجب

هنيئا لزهر بايعوا تحت سرحة ... وفازوا من النور البهى بلمحة

ونالوا من الدارين أشرف منحة ... وناهيك من فخر الأشج بمدحه

يقصر عن إيجازها كل مهضب

لهم سؤدد قد أعجز الشعر وصفه ... ومن ذكرهم زهر تأرج عرفه
كمامته طرسى وبالسمع قطفه ... وقرة نالت خاتم الوحى كفه
وفاز بها فوز السعيد المنجب

محا شوقهم عن ناظرى طيب نومه ... وإن هواهم فى الحساب ويومه
يفى بصلاة المتقى وبصومه ... وما فضل أصحاب النبى وقومه
لمن رام إحصاء له بمحسب

هو البحر والخضر البحار تمده ... هو النجم من يبغى النجوم ترده
هو القطر لا يرجى من القطر عده ... ولكنه ذخر وأجر أعده
وأجعله أمنى وحصنى ومهربى

لخير الورى أخلصت دون وليجة ... وسبطيه أرثى ذا شجون مهيجة
وأصحابه حبوا بكل أريجة ... وأزواجه والفضل فضل خديجة
وكل له فضل المصون المطيب

ثنا أمهات المؤمنين محسن ... فهن أمان للورى وتيمن
لهن على النسوان فضل مبين ... ولكنها كانت وما كان مؤمن
سواها فنقر فى البلاد ونقب

تقى الله فى أعلى المراقى أجلها ... حبت وفرها تحوى المفاخر كلها
وحيا سلام للسلام محلها ... وسبط الهدى منها لفاطمة لها
فحسبك من فضل بفضل مرجب

شهيـدان ذا جهر أو ذاغيـبة قضى　　همـا قـرتا عين لأشـرف مـرتضى
وريحنتــاه من زمــان به أضـا　　هما سـيدا الشبـان فى جنة الرضى
وخـير كـهول الأرض شـرق ومغـرب

وفى حجـرات المصطفى فصل منطق　　وآيات بـرهان وحكمـة[1] منتق
أذاع بهـا الزوجـات غـربا لمشـرق　　وعـائشـة صـديقـة لمصـدق
ملىء من التـقـوى رءوف مـؤدب

وكم سنن تقضى صـحائح طرقـها　　بتـفـضـيل أم المؤمنين وسـبـقـهـا
على العلمـاء استـدركت وبحقـها　　مـبـرأة جـاء الكتـاب بصـدقـهـا
وتكذيب إفـك الفـاجـر المتكذب

ومـثلهـا جـبـريل وهى بخـدرها　　على الشرف الباهى فأعظم بفخرها
ولم يأت وحى قط فى لحف غيرها　　ومات رسـول الله ما بين سـحرها
إلى نحـرها توديع راض مـقـرب

ولا زوج للمـخـتـار إلا مـبـرة　　على الغـير خـصـتهـا من الله أثرة
شـمائـلها نسك وصـون وطهـرة　　وكـل لـنـا أم هـنـالـك بـرة
على برها تحـبـو الرجال وتحـتـبى

---

(١) يشـير إلى قـوله تعـالى: ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ... ﴿٣٤﴾﴾ [الأحزاب].

وخـيــر أناس يقـتـدى بـهـداهم سـراة رأوا خـيـر الورى ورآهم
فـحـسـبهم فـضـلا به وكـفـاهم صـحابة صـدق من يطر بحمـاهم

فنـحن براء مـنه باعـد وجـنب

أيا صـاح دعنى من ثراء وعـيلة ومل بى إلى صحب الهدى خير ميلة
أحـبـر ثناهـم كل يوم وليـلة وعـرج على الأنصـار أبـناء قـيلة

وبغـضـهم كـفـر فـعـذ وتحـبب

كـفـانى عـمـا بالقـوافى قـفـوته ثناء علـيـهم فـى الكتـاب تلوته
أمـانى وإيمـانى بـهـم قـد رجـوته كـرام لهم محـيـا الرسول ومـوته

تأسوا وواسوا من جـواد ومحرب

تناهوا من الإيـثـار فى كل نصـرة إلى أن قـروا أرواحهـم كل شفـرة
حـضـور ببـدر غـيـب عند بدرة يحـبون مـن وافى إليهم بـهـجـرة

ويلقـاه منهـم كل سـمح مـرحب

صحـاب رسول الله فى الأرض أنجم ليـرشـد حـيـران وينجـاب مظلم
بهم فى الدنا نحمـى وفى الدين نعصم سـأقطع عـمرى بالصـلاة عليـهم

وأدأب فى حـبى لهم كل مـدأب

تفـتح نظمى فى الطروس خمـيلة فـأهديت أزهـارا بدمـعى بلـيلة
عسـاها أتت من عثرتـى مستـقيلة إليك رسـول الله منهـا وسـيلة

تناجيـك عن قلب بحبك مـشرب

فؤاد بلفح البعد عنك تضرما يطالع بالفكر الحطيم وزمزما
ويلثم شوقا منتداك المكرما يزورك عن شحط المزار مسلما
ويلقاك بالإخلاص لم يتنكب

إلهى ذنوبى كالجبال وأكبر ولكنها فى جنب رحماك تصغر
ومالى سوى مدح الرسول مكفر ترجيت فضلا منك يعفو ويغفر
وراجيك فى الداريـن غير مخيب

انتهى التخميس الرائق الأبيات، للخالصية الباهرة المناقب والآيات.

وهذا البيت الأخير - وهو قوله: (إلهى ذنوبى... إلى آخره) زاده المخمس كله ليكون الختم به. ولم يزد بيتا غيره.

ولا خفاء أنه - رضى الله عنه - زاد هذه القصيدة بتخميسة حسنا، عاملنا الله وإياه بالزيادة والحسنى، وأنال جميعنا المقام الأسنى.

ومن بديع نظم ابن أبى الخصال المذكور آنفا، قصائده النبويات، التى عارض بها قصائد حسان بن ثابت - رضى الله عنه - فى رثاء المصطفى - ﷺ، وقد خمس أبو عبد الله بن حبيش المذكور الحسانيات، ومعارضتها الخصالية، وأفردها بتأليف، رأيت أن أذكر ذلك بجملته، وكتب فى أوله ابن حبيش المذكور ما نصه:

الحدائق النيسانية، والطرائق الحسانية، تشتمل بحول الله - على تخميس المراثى الحسانيات التى طبقت بإحسانها ما تحت السبع الطباق، وعلى تخميس معارضتها من الخصاليات التى فازت فى أساليبها بخصل السباق، تأليف محمد بن حبيش، انتهى.

قال - رحمه الله: تخميس الأولى من الحسانيات الأربع، التى عمرت من الإحسان أبهى مربع، محجبة فى انتساقها عن الغير، مرتبة على مساقها فى السير، ترثى سيد الخلق وخاتم الأنبياء، فتبكى بشجوها سكان الأرض وملائكة السماء، صلى الله عليه صلاة تتناهى فى تكريمه وإرضائه، وتقضى من حقه ما عجز العالمون عن قضائه، وعلى آله المنتخبين، وأهل بيته المطيبين، وسلم تسليما، ورضى الله عن صحبه الذين بدروا دعوته تصديقا، ومهدوا ملته تغريبا وتشريقا، ومن الله - سبحانه - يرجى العون والتيسير، فهو نعم المولى ونعم النصير.

أيبقى وجود والنُّبُوَّة تفقد ... بأرواحكم جودوا فما الدمع يحمد
أما هدكم ناعى الهدى وهو ينشد ... بطيبة رسم للرسول ومعهد
مبين وقد تعفو الرسوم وتهمد

مضى المرشد الهادى لحكم وحكمة ... وآلمت الإسلام أدهى ملمة
فما تخلع الأيام أوثاب ظلمة ... ولا تمحى الآيات من دار حرمة
بها منبر الهادى الذى كان يصعد

وفضفاض آلاء وضافى مكارم ... ومهبط وحى من إله العوالم
إلى خاتم الرسل السراة الأكارم ... وواضح آثار وباقى معالم
وربع له فيه مصلى ومسجد

بمأمورة القصواء قد كان خطها ... ونظم من در الهداية سمطها
نبى كساها الفخر تضفيه مرطها ... بها حجرات كان ينزل وسطها
من الله نور يستضاء ويوقد

مبادئ هدى تبلغ الخلد غايها يقربها من قلب ذى الصدق نأيها
وفى الملأ الأعلى تنشر رأيها معارف لم تطمس على البعد آيها
أتاها البلى فالآى منها تجدد

ولم لا أوفيها من الحب جهده وقد حازت الفضل الذى فاق عده
إذا زرتها بالقلب أخمد وقده عرفت بها رسم الرسول وعهده
وقبرا به واراه فى الترب ملحد

لقد خددت خدى دموعا توردت صحائح آثار لأحمد أسندت
وآيات وحى فى المحارب رددت ظللت بها أبكى الرسول فأسعدت
عيون ومثلاها من الجفن تسعد

صنوف الوجود الجم غيبا ومحضرا من الشهب والأفلاك والمزن والورى
وما أبصرت عينى وما ليس مبصرا يذكرن آلاء الرسول وما أرى
لها محصيا نفسى فنفسى تبلد

فلا جسم إلا حلة السقم يرتدى ولا روح إلا رائح غير مغتدى
ولا نفس إلا ذات وجد مجدد مفجعة قد شفها فقد أحمد
فظلت لآثار الرسول تعدد

وقد حبرت من كل مدح حبيره وقد عبرت عما ينمى عبيره
بنظم كما وشى النسيم غديره وما بلغت من كل أمر عشيره
ولكن لنفسى بعدما قد توجد

سرت مهجتى تبغى الجنان وخلدها فـمـا يممت إلا المـدينة وحـدها
وقـد نـالت الأوطار لم تتـعــدها أطالت وقوفا تذرف العـين جهدها
على طلل القبـر الذى فيه أحـمد

فطوبى لـنفس بالرســول تمسكت لقـد عطرت بين النفوس ومسكت
وما الفوز إلا مـسلك فيه أسلكت فبـوركت يا قبـر الرسول وبوركت
بلاد ثوى فـيـها الرسـول المسـدد

فـيـا خـاتم الرسل المكين المقـربا وأعلى الورى قدرا ونفـسا ومنصـبا
تقدست قـبل الكون تحبى وتجـتبى وبورك لحـد مـنك ضـمن طيــبـا
عليـه بـناء من صـفـيح يـنضـد

لفـقد رسـول الله لم يسل مـؤمن فـلـلـكرب أرواح ولـلـنـدب ألسـن
لقـد شق يوم فـيـه للوحى مـدفن تهـيـل عليـه التـرب أيـد وأعـين
هناك وقـد غـارت بذلك أسـعـد

إمـــام لرسـل لم يزالـوا أئمــــة غـدا للعُـلا بدءا وللبـعث ختـمـة
وجلى عن الآفـاق ظلمـا وظلمـة لقـد غيبـوا حلما وعـلما ورحـمة
عـشـيــة عـالوه الثـرى لا يوسـد

نعـموا قـمرا كم ضـاء عنه نديهم وودهم لو قـــبل ذاك نعـيــــهم
وزادوا غليـلا إذ مـن الدمع ريهم وراحـوا بحزن ليس فـيـهم نبيـهم
وقد وهنـت منهم ظهور وأعـضد

قد اغتبطوا بالوجد يغلون سومه   فهم بين طرف شرد الدمع نومه
وسمع عن السراء واصل صومه   يبكون من تبكى السموات يومه
ومن قد بكته الأرض فالناس ألمد

مصاب دهانا بالدواهى الفواتك   فبدل أنوار الضحى بالحوالك
وعاض دموعا بالدماء السوافك   وهل عدلت يوما رزية هالك
رزية يوم مات فيه محمد

فيا ربنا ضاع العباد فصنهم   وقد ضعفوا عن صبرهم فأعنهم
ليوم بعاد قرب الحين منهم   تقطع فيه منزل الوحى عنهم
وقد كان ذا نور يغور وينجد

فأين زمان رافل فى قشيبه   ببهجة مرآة ونفحة طيبه
إذ الوحى من رب الورى لحبيبه   يدل على الرحمن من يقتدى به
وينقذ من هول الخزايا ويرشد

تحرى حراء راكع الليل ساجدا   وأظما هجيرا يترك الماء واقدا
وبالوحى أضحى مرشد الخلق راشدا   إمام لهم يهديهم الحق جاهدا
معلم صدق إن يطيعوه يسعدوا

رحيم بأهل البر يرفع قدرهم   شديد على الكفار يخفت زأرهم
حبيب إلى الزوار يشبع وفرهم   عفو عن الزلات يقبل عذرهم
وإن يحسنوا فالله بالخير أجود

إذا جاش أعداء محاهم بنصلة   وفى المحل يغنى عن غمام ببذله
وإن جلت الجلى تجلت لأجله   وإن ناب أمر لم يقوموا بحمله
فمن عنده تيسير ما يتشدد

أقام لأرباب الديانة قسطهم   فقد فرسوا فرس الأعادى وقبطهم
فترجو رضاهم أو تحاذر سخطهم   فبيناهم فى نعمة الله وسطهم
دليل به نهج الطريقة مقصد

نصيح لخلق الله غيبا ومشهدا   موفيهم النعمى موقيهم الردى
مبصرهم فى اليوم شافعهم غدا   عزيز عليه أن يجوروا عن الهدى
حريص على أن يستقيموا ويهتدوا

أباد الأعادى – والدعاء سلاحه   فبالرعب قبل الحرب عم افتتاحه
قوام البرايا بأسه وسماحه   عطوف عليهم لا يثنى جناحه
إلى كنف يحنو عليهم ويمهد

وقد صيروا الأملاك بالقهر أعبدا   وردوا جميع الأرض طهرا ومسجدا
وبدر الهدى يلتاح من وجه أحمدا   فبيناهم فى ذلك النور إذ غدا
إلى نورهم سهم من الموت مقصد

ولما غدا المختار بالحق صادعا   ويبلغ تنزيلا وبث شرائعا
دعاه تقاه للجنان مسارعا   فأصبح محمودا إلى الله راجعا
يبكيه جفن المرسلات ويحمد

فحان لشمس بالظلام التفاعها   وزلزل من شم الروابى يفاعها
وحق لأصلاد القلوب انصداعها   وأمست بلاد الحرم وحشا بقاعها
لغيبة ما كانت من الوحى تعهد
وكادت قلوب أن تحس اختلافها   لفقدان من أعطى هداه ائتلافها
وعادت ربوع الأمن تشكو مخافها   قفارا سوى معمورة اللحد ضافها
فقيد يبكيه بلاط وغرقد
تغيرت الأشياء حزنا لبعده   فيا ظلمة الدنيا ويا نور لحده
بكاه مصلاه الأنيس بورده   ومسجده فالموحشات لفقده
خلاء له فيها مقام ومقعد
أرى الكعبة العيا لمنعاه أجهشت   بنوح وأدمت خدها حين خمشت
وهمت بتمزيق الستور فأدهشت   وبالجمرة الكبرى له ثم أوحشت
ديار وعرصات وربع ومولد
محا أحمد من كان يعبد صخرة   ومن طلبوا أن ينظروا لله جهرة(١)
ومن عبدوا كهلا وعذراء برة   فبكى رسول الله يا عين عبرة
ولا أعرفنك الدهر دمعك ينفد
ونوحى على من شاد أشرف ملة   بوكنافة هطالة مستهلة
هى الغيص لكن لم تطق رى غلتى   ومالك لا تبكين ذا النعمة التى
على الناس منها سابغ يتغمد

(١) يشير إلى قوله تعالى: ﴿...فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ... ﴿١٥٣﴾﴾ [النساء].

فيـــا أمــة الدين الحنيـف المكمل نبـيك والمـعلى لمنصـبك الـعلي
تنقـل للفــردوس أحــفى تـنقل فـجودى عـليه بالدمـوع وأعـولى

لفقد الذى ما مثله - الدهر - يوجد

ومـــا لى لا أفـنى وأفنى تجلدى وأجـعـل مـبكاى المـورد مـوردى
وثوبى أكـفـانى وبـيـتى ملحـدى ومـا فقـد الماضـون مـثل مـحمـد

ولا مـثله حـتى القـيـامة يفـقـد

أحب إلى رب وأحـــفى بأمـــة أبر بميـــثــاق وأرعى لحــرمــة
أحن لِسُــؤال وأسـدى لـنعـمــة أعف وأوفى ذمـــة بعـــد ذمــة

وأقـــــرب منـه نائـلا لا ينـكد

وهل أبصـرت عينا مـقر وجـاحد بأعلى على من أحـد ذى المحامـد
وأكـثـر إعـجـازا وخـرق عـوائد وأبـذل مـنـه لـلطـريـف وتـالـد

إذا ضن مـــعـطاء كـــان يتـلد

وأسمى سناء حين أسـرى إلى السما وأبهى سنا مـهمـا ارتدى وتعمـما
وأمـحى لجيش بـالحصـاة إذا رمى وأكرم صـيتا فى البيـوت إذا انتمى

وأكـــرم جـدا أبطحـــيا يســود

وأوصل أرحـــامـا وأقطع لـلطلى وأصفح عن جـان وأصبح مـجتلى
وأشجع مـقدامـا وأسخى مـؤملا وأمنـع ذروات وأثبـت فى الـعلـى

دعـائم عـــز شـاهقـات تشـــيـد

وأصدع بالقرآن لله مخبتا   وأنطق برهانا به الخصم أسكتا
وأهدى لأواب وأسطى بمن عتا   وأثبت فرعا فى الفروع ومنبتا
وعودا غذاه المزن فالعود أغيد

كريم نمته من لى كرامه   شريف علا فى الأنبياء مقامه
ضياء مساعيه ووحى كلامه   رباه وليدا فاستتم تمامه
على أكرم الخيرات رب ممجد

على كل بر أن يذوب بلهفه   ويغرق بالطوفان من فيض طرفه
على مرسل عم الأنام بعطفه   تناهت وصاة المسلمين بكفه
فلا العلم محبوس ولا الرأى يفند

لمثواه قصد الأجر تزجى الركائب   بعلياه عند الحشر ترجى الرغائب
صباح به تجلى لكفر غياهب   أقول وما يلقى لما قلت عائب
من الناس إلا عازب العقل مبعد

لدى البعث أرجو فوزة بلقائه   وقبل فنائى وقفة بفنائه
مديحى مدى عمرى حبيس علائه   وليس هواى نازعا عن ثنائه
لعلى به فى جنة الخلد أخلد

إلهى قضيت الذنب فاقض اغتفاره   بفضل شفيع قد رفعت فخاره
لعلى غدا والحب يدنى مزاره   مع المصطفى أرجو بذاك جواره
وفى نيل ذاك اليوم أسعى وأجهد

تخميس الحسانية الثانية، وهى لروض الرضى جانية

سجع الحمـام عن الحمام متـرجما فـالرزء قـد أبكى مـلائكة السـمـا
رد الكرى عـدما ودمـعك عندمـا مـا بال عـينك لا تنام كـأنما
كـحلت مـآقيـهـا بكحل الأرمـد

نجم الهـدى والرشـد أمـسى هاويا وأعـاد روض العيـش محـلا ذاويا
فسـقام جسمك لا يصـيب مداويا جـزعـا على المهـدى أصبح ثاويا
يا خيـر من وطئ الحصى لا تبـعد

مـولاى كم نعـمـة أوليـتنى وأجلهـا سنن بهـا حليـتنى
لا صـبـر فى زرء لـه خليـتنى وجـهى يقيك التـرب لهـفا ليتنى
غـيبـت قبلك فـى بقيع الـغرقـد

يا ويح من صـدع المصاب صـفاته فـيـود لو أمسى الـضريح كـفـاته
ويقـول عن شـوق يرى مـا فـاته بأبى وأمـى من شـهـدت وفـاته
فى يوم الاثـنين النبى المـهـتـدى

لما أقـيـم الديـن واتبع الهـدى دعى الحـبيب إلى النعـيم مـخلدا
فـأجاب واخـتار الرفـيق المصعـدا فظلـلت بعـد وفـاته مـتـبلدا
مـتـلددا يا ليـتنى لـم أولد

فـقـدوا كـمـال الأنبيـاء وزينهم فقـد استطاب رجـال طيبة حـينهم
لم لا وبعـد الوصل قاسـوا بينهم أأقـيـم بـعـدك بالمدينـة بينـهم
يا ليـتنـى صبـحت سم الأسـود

أضحى إلى الفردوس عنا راحلا فغدا الموصول الكرامة واصلا
يا ليتنا معه ننال النائلا أو حل أمر الله فينا عاجلا
في روحة من يومنا أو من غد

ما عيشنا بعد النبي المجتبى يا ليت يوم الحشر منا قربا
من غير أن نخشى ذنوبا حجبا فتقوم ساعتنا فنلقى طيبا
محضا ضرائبه كريم المحتد

يا من أسمى معدا فخرها يا مطلع الآيات يشرق بدرها
يا منجيا - والنار يلفح جمرها يا بكر آمنة المبارك بكرها
ولدته محصنة بسعد الأسعد

قمرا أفاد الشمس باهر فضلها صبحا جلا للأرض ظلمة جهلها
بدءا لتقوى الله خاتم رسلها نورا أضاء على البرية كلها
من يهد للنور المبارك يهتد

بمزاره يمحو إرشاد غينا وقلوبنا سبقت إليه مطينا
ويحفظ سنته نميز تقينا يارب فاجمعنا معا ونبينا
في جنة تثنى عيون الحسد

سدد لنهج محمد أعمالنا آمن بجاه محمد أوجالنا
يسر بفضل محمد آمالنا في جنة الفردوس فاكتبها لنا
يا ذا الجلال وذا العلى والسؤدد

كل الورى فى حـــزنى المتـــدارك إنســـا وجـنا ثم زهـر مـــلائك
قـد ساعـدوا جفنى بدمع سـافك تالله أسـمع مـا حـيـيت بهـالك
إلا بكيت عـلى النبى مـحــمـد

بحــر الرزية شـط مـدرك شطه لا جـــفن إلا ناثر مـن سـمـطه
درا دهاهـم كـــربهـم عن لقـطه يا ويـح أنصـــار النـبى ورهـطه
بعـد المغـيب فـى سـواء الملحـد

فى آل قـــيلـة بالوداد أصـــرح وبمنـتــهى يـمنى إلـيــهم أجـنح
يا ويحــهم ومصـاب أحمد يـفدح ضاقت بالأنصـار البلاد فأصبـحوا
سـودا وجــوههم كلون الإثـمـد

ويقـول قـائلهم فـيعظم فـخـره حل الرســول بنا وطـاب مـقـــره
فلنـا مـــهـاجــرة ومـنا نصـره ولقـــد ولـدناه وفــينا قـبــره
وفـضول نعـمته الـتى لم تجحـد

كنا كــتـــائبـــه وبيت كــتـــابه والقـــائمــين بخطبـــه وخـطابه
وغـدا نكون الصـفو من أحـبـابه والله أكـــــــرمـنا بـه وهدى بـه
أنصـاره فى كل سـاعـة مشـهـد

تمجـيد أحـمد فى العـوالم أفشـه وأرقم به طرس الـوجـود ووشــه
وأغـد ولو أضحى صـداك بنعشـه صلى الإله ومـن يحف بعــرشـه
والطيـبـون على المبـارك أحـمـد

تخميس الحسانية الثالثة، وهى بالسحر الحلال نافثة:

أسـاء بالناس دهر كـان آنقـهم وأوسع العـهد نكثـا حين واثقـهم

يا من ثوى بـين أبرار ورافـقـهم نب المسـاكين أن الخير فـارقـهم

مع النـبى تولى عنـهم ســحـرا

بان الرسول فـأشجانـى مواصلتى من غيث عاجلتى؟ من غوث آجلتى؟

من ذا يصحح لى فـرضى ونافلتى من ذا الذى عنده رحـلى وراحلتى

ورزق أهلى إذا لم يؤنـسـوا المطرا

من نرتجـيـه فـيـولينا صنائعـه من نجـتـديه فيـصـفـينا مـشارعـه

من نقـتـفـيـه فيـهـدينا شـرائعـه أم من نعـاتب لا نخـشى جنادعـه

إذا اللسان عـتا فى القول أو عـثرا

أوحى له الله بالإســلام يشـرعـه وفى غـد لمقـام الحـمـد يرفـعـه

وفى العـصـاة بتنويه يشـفـعـه كـان الضـيـاء وكان النور نـتبعـه

بعـد الإله وكان السـمع والبصـرا

الأمن بين مـغـانيـه ومـسـجـده واليــمن بين مـثـانيـه ومـسنده

كنا مـواتـا فـأحـيـانـا لمولده فلـيـتـنا يـوم واروه بملحـده

وغـيـبـوه وألقـوا فـوقـه المدرا

كنا سـبقنا فـجـرعنا كئـوس ردى فـالحـين أسـهل من يوم به فـقـدا

أوليــتنا حـين ذبنا إثْره كـمـدا لم يتـرك الله مـنا بعـده أحـدا

ولـم يعش بـعـده أنثى ولا ذكـرا

أبناء قـــيلة لا تســـأل بثكـلهم   لو أن خـير الورى يفـدى ببـذلهم

جـــادوا بأنفـــسـهم طـرا وأهلهم   ذلت رقـــاب بنى الـنجـار كـلـهم

وكـان أمرا من الرحـمن قد قـدرا

لم يعـــهـدوا مـــثله رزءا لمثلهم   حالت حلاهم به مـن فرط خبلهم

وفـرقت حـادثات جـمع شـملهم   وأقـــسم الـفىء دون الناس كـلهم

تخميس الحسانية الرابعة، وهى على المنارع نازعة،

وفى أحلى المشارع شارعة

الحـمـــد لله حـمـدا دائـمـا أبدا   سمى بأحمد من فى الغيب قد حمدا

خيـر العباد وأهدى الأنبـياء هدى   آليت ما فى جـميع الناس مجتـهدا

منـى أليـــة بر غـــيـــر إفـناد

يمين صدق لأصناف التقى جمعت   وبالخلوص لدى الرحمن قـد نفعت

ومن خمولى غداة الحـشر قد رفعت   تالله مـا حملت أنثى ولا وضـعت

مـثل الرسـول نبى الأمـة الهـادى

الله أهدى له أزكـى تحـيـــتـــه   وطهـر السـر من صـــافى طويتـه

وصـاغ من قدسـه عظم سجـيتـه   فـمـا برا الله خلقـا من بريتـه

أوفى بذمـة جــار أو بميـعــاد

ولا غـمـام يروى مـن سـواكـبـه   ولا هلال تجلـى فى كـــواكـبـــه

ولا صـبـاح يجلى من غـيـاهبـه   مـثل الذى كـان فينـا يستـضـاء به

مـبـارك الأمـر ذا عـدل وإرشـاد

يا سيـد الأنبيـاء السـادة العظمـا　　يا لهـفنا لمصـاب فـيه قـد عظمـا

حق انتـشـار نجوم وانفطـار سمـا　　أمسى نـساؤك عطلن البـيوت فـما

يضـربن فـوق قـفـا سـتـر بأوتاد

ترحـة لم تدع للمـسـلمـين جلد　　وفـجـعت أمهـات المؤمنين فـقـد

أصبحن بين جـوى حزن وبرح كمد　　مـثل الرواهب يلبـسن المبـاذل قـد

أيقن بالبـؤس بعد النعـمة البـادى

قسمت قلبى على الأشجان والفكر　　تقـسم الطرف بين الدمع والسـهـر

لم تبق بـعـدك لوعــاتى ولم تذر　　يا أفـضل الناس أنى كنت فى نهـر

أصبحت منه كمـثل المفرد الصادى

كمل تخمـيس المراثى التى بهر ما اشتـهر من إحسانهـا، وأجاد ما أراد منطق حسانـها، فصلى الله على المرثى بها ملء سـمواته وأرضه. ورضى الله عن الواقى بأبيـه وجـده وعـرضه، يتـلوها إن شاء الله تـعالى - تخـمـيس معـارضاتهـا من قصائد ابن أبى الخـصال، المتـصلة بما قبلهـا أبدع الاتصال، سلكت مهـيع المخلص الوافى، وعضدت المتقـدمات عضد القـوادم بالخوافى وحذت بالغافقـية الأندلسية، حذو النجارية القدسـية - فى المعانى والقوافى، وتخميس اثنتين له أيضا، فاض بحرهمـا فيضا، وهما فى الرتبة سنيتان، وفى النسبة حسينيتان، فجملة المخمـسات أربع يثربيات، صحا بياتها بثوب الثواب مشتملة، وست مـغربيات، سحابياتها بصوب الصـواب منهملة، تلك عشرة كاملة، ولموصـول القبـول بفضل الله آملة، والله تعالى ينفـع بكل ما أخلص لوجهه من قربة، ويفرج بها فى الدارين كل كربة.

قال جامع هذا الموضوع أحمد بن محمد المقَّرِىّ - وفقه الله - سقط من هذه النسخة التى رأيت - القصيدتنان الحسينيتان، فلذلك لم نكتبها بعد الأربع الآتية، ولنعد إلى كلام هذا الشيخ فنقول: قال - رحمه الله ورضى عنه:

تخميس الخصالية الأولى - ولله ولسوله المنة الطولى

أفق عن هوى سعدى فما الشيب مسعد — وقــرب مطايا لـلخطايا تبـسعــد
وحث ركــابا فوقــها الركب ينشــد — بطيــــبــة آثار تحج وتــقـــصــد
ودار بهـــــا لله نور مــــخــلد

فــويــح المعنى بـين هم وهمــــة — يشــوقــه مـثــوى ثواب ورحــمــة
ومـرقى دعــاء من نبـوة عصــمــة — ومــهــبط جــبــريل بوحى وحكمــة
يبــينهــا للعــالمين مــحــمــد

وحق لنفــسى أن تطيل غــمــومهــا — وقد شــوقتــها لو أطــالت قدومــها
ديار تبــاهى من ســمــاء نجومــهــا — ومظهـــر آيات كــأن رســـومــهـــا
على مــا محــا منهــا البلى تتجــدد

فيــا حســرتا من للكسـير بنهــضة — ومن لى من برق العـقـيق بومضــة
أبعد النوى عن طيبــة طيب غمضة — وفى مــسجد الــتقوى تــأرج روضة
عليـــهــا من الفـــردوس ظل ممدد

أتروى الصدى من عذب رومة شربة — أتقــصــد من غــرب به الدار غــربة
مــعاهد تقــديس بهــا النفس صبــة — يفــاوحـــهـــا طيب الجنــان وتربة
تبـــوأها من جنة الخــلد أحــمــد

عراص على الأحراس محروسة البقا   بهـا أربع الهادى تـشوق إلى اللقـا
ومسـجده البر الذى اختـار وانتقى   ومنبـره الأعلى على ذروة التـقى
وجـذع له فـيـه حنين مـردد

ومـشـهد أبرار لدى أحـد قـضت   وخندق أحـزاب رأته فـقـوضت
ومدفن صحب أرضت الله وارتضت   ومـولد إبراهيـم حـيث تمخـضت
به أمـة مـثـوى كـريـم ومـولد

أجل أب فـاق الأنـام فـخـاره   يسـر بخـيـر ابن زكى نجـاره
ولم لا يحـوز المجـدسـام مناره   ومـوقـعـه من نفـسه واخـتـيـاره
له اسم خليل الله فـخـر مـشيـد

مـعـالى رسـول الله للـدهر زينه   وأبكى الورى حـتى الحياسح عـينه
أسـاه لنجـل حـان للخلد بـينه   وإعـلان بـالحـزن تدمع عـينه
له رحـمة والنفـس ترقى وتصعـد

تحـفيـه بالأصحـاب أعلى لهم يدا   وأصـهـاره الصديـق ثم مقـصـدا
لألفـتـهم دنيـا وأخـرى وملحـدا   ومبنى على - والهدى يألف الهدى
بفـاطـمـة نور يـقـيـد

مـصـلاه يزهى من مناجـاة ربه   ومجلـسه الأسمى يـغص بصحـبه
كمـا حف بدر ليل صحـو بشبـهه   ومـولد سـبطيـه وريحـان قـلبـه
مكانهـمـا من عـاتقـيـه ممهـد

مـعـــالم هدى نورها قـد تـألقـا   بحـيث دعا المخـتـار للبر والتـقى
وحيث التقى بالروح أشرف ملتقى   وحـيث ارتقت منه أمـامـة مـرتقى
يقـوم بهـا حـبا لهـا ثم يسـجـد

وحـيث حـبـاه الله نصـر لوائه   فـمكنه فى الأرض بعـد اصطفـائه
بما جل من أسـمـائـه لسـمـائه   وحـيـث بنى بالطيـبـات نسـائه
بعصـمته الوثقـى وجبريل يشـهد

حلى أمـهـات المؤمنين جـهـاتهـا   تنسى شمـوسا فى سـماء سمـاتها
بما راق مـن آياتهـا وإيـاتهـا   ومـتلى كتـاب الله فى حـجراتهـا
يقـمن به اللـيل - والناس هجـد

ديار لأمـر الله فـيـهـا إدارة   وللوحـى بشـر بينهـا وبشـارة
إلى حجـر فيـها أضاءت حـجارة   وتمت لأصـحـاب الكسـاء طهـارة
من الله يحيـيها الـكتاب المؤيد[1]

مـدارس قـرآن يزكـى حـضـورها   مـوارد إحـسـان تفـيض بحـورها
مطـالع رضـوان تجلت بـدورها   مـعـاهد إيمـان تألق نـورها
فـفى كل أفق جـذوة تتـوقـد

بأحـمـد أزرت بالنجـوم أنافـة   وأحسن صحب الهدى فـيها خلافة
إلى أن جنت عـين التكامـل آفـة   وكـانت أمـانا ثم عـادت مخـافـة
فـزائرهـا فـوق الردى يتـوسـد

---

(١) يشيـر إلى قوله تـعالى: ﴿...إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الأحزاب].

فـيا ليت أجـفـانى غـمام لمحلهـا ومن نفـسى مسـرى نسيم لنخلهـا
ولكن إذا بـلتــه عـينـى بوبلهــا فـيـا أيهـا الدار الـتى حق أهلهـا
على النـاس طرا دائم ليس ينفـــد

لقـد أغرقـتنى بالدمـوع وأعطشت صنوف صروف فى ضـيائك أغطشت
وامعان بؤسى في معانك قد فشت لقد درست منك المعـانى وأوحشت
وكـان إليك الدين يأوى ويصمـد

لئن عاق جـسمى سـقمـه ووساده وأودى بطرفى دمـــعـه وســـهـاده
فـقلبى يشق البـيـد والشـوق زاده ذكـرتك ذكـرى من يـهـيم فـؤاده
بقـربك لكنى على القرب مـبعـد

تصـورت عصـرا فى علاك تألقـا وكل القرى مـثل القرى لك تنـتقى
ولا ملك إلا انقـاد أو قيـد موثقـا ومثلت لى فى بهـجة الدين والتقى
وأمـر رسـول الله يعلـو ويمـهـد

إذا انصـرف الجبـار عنك بجـبهـه سمـيعـا مطيعـا فى رضاه وكـرهه
وإذ نصـر المخـتار فى كل وجـهـه وإذ برقت نورا أســارير وجـــهـه
فـزحزح قطع الليل والليل أسـود

وبدلـت الأمـــلاك عـــزا بـذلة لمبـــدل أنصـاب بمنـصـوب قـبلة
أطاعـت له إنس وجن بـجـــمـلة وألقت إليـه الأرض أفــلاذها التى
تحل بهـا عظمى الأمـور وتعـقـد

لقد أمن الإيمان بعد ارتياعه حلول رسول الله دار امتناعه
وفتح التى كانت أحب بقاعه وغزو تبوك ثم حج وداعه
ولم يبق تبيين ولم يبق مشهد

ذكرتك إذ حاباك عيش بصفوه وإذا سحب الإسلام حلة زهوه
بما راق من حج الرسول وغزوه ومثلت لى والمسلمون بشكوه
فرائصهم من روعة البين ترعد

فلا قلب إلا مستطار مشوق ولا طرف إلا ينهمى ويورق
ولا بدر إلا هو يمحى ويمحق وقد جلل الدنيا ظلام مطبق
يخال به على الناس سرمد

وكان الورى قد سرهم نيل سؤلهم وقد أملوا محو المدى بنصولهم
ففاجأ رزء قاطع عن وصولهم فما راعهم إلا وفاة رسولهم
وكل يرى أن الرسول مخلد

رجوا مكثه يعطى البلاد هدونها شهيدا عليهم مدة يلبثونها
إلى أن يوافوا جنة يدخلونها وقد ذهلوا أن التى يقرءونها
إذا جاء نصر الله للموت مرصد

فأقصد سهم الرزء كل الخلائق وعوض فى الآفاق صبح بغاسق
وشابت من الولدان سود المفارق وودع جبريل وداع مفارق
ولا عود يستثنى ولا وحى يعهد

صحاب الهدى قد ريع بالبين روعها   تفيض مآقيها وتذكى ضلوعها

وأجفان أهل البيت طار هجوعها   وأم أبيها مسبلات دموعها

كما انحل من سلك فريد مبدد

قال جامع هذا الموضوع - وفقه الله - أراد بأم أبيها مولاتنا فاطمة بنت مولانا رسول الله - ﷺ - حسب ما ذكره صاحب الاستيعاب عن جعفر بن محمد الصادق - رضى الله عنه - أنه قال - كانت كنية فاطمة بنت رسول الله - ﷺ - أم أبيها.

رجع إلى التخميس:

درى صلوات الله ملء نديه   بحب لها فيه زهت بحليه

ولو خيرت لم تبق بعد مضيه   فأودعها سرا بكت من نجيه

وثنى بسر فانثنت تتجلد

وصدع قلب الصلب تصديع قلبها   ليتم كريميها وترويع سر بها

وقد كاد يدنيها النحيب لنحبها   وقد أعلنت عند الرسول بكربها

لكرب أبيها وهو بالموت يجهد

تنادى وفوق الخد منثور جوهر   أيا أبتاه كيف لى بالتبصر

أيا كربتاه من حمام مقدر   فقال لها: كفى دموعك واصبرى

فما بعد هذا اليوم كرب يعدد

وسكن من إقلاقها لمصابه   بأن لها قبل الألى فى حجابه

ذهابا إلى الفردوس إثر ذهابه   وبشرها من قرب ملحقها به

ببشرى حديث صادق لا يفند

قـضى أنهـا سـبـاقـة أهل بيـتـه   للقـياه فـارتاحت لمسموع صـوته

وسرت بسدل كم بكت خـوف فوقه   فـيـا من أرى حـيـا يعـزى بموته

فـيـرضى كـأن الموت خلد مـؤبد

لسـيدة النسـوان لم ألف مشـبهـا   قلت عـيـشهـا بعـد النبى لحـبهـا

بتول أبت خـدرا سوى قعـر تربها   عن الـدنيـا إلـى قــرب ربهـا

وشـحـا عليـهـا من حـيـاة تنكد

وتهـدئة كى لا تثـور شـجـونهـا   وتسليـة كى لا تفـيض شـئـونهـا

وحفظا عن البـقيـا لعصر يخـونها   ولطفـا من الله العظيم يصـونهـا

ويـاب الزرايا المستكنات مـرصـد

دنت رحلة الهـادى وحم شـتاتهـا   وفـاطمـة الزهـراء زهر صـفـاتهـا

غدت بضـعة منه فـحانت وفـاتها   ولو أنهـا امـتدت طـويلا حيـاتهـا

لشـرد عنهـا الـنوم ليل مـسـهـد

وآلمهـا تبـديل بشـرى بغـمـهـا   وحرب بنى حرب بها بـعد سلمها

وإفـشاء قـوم إحنة بعـد كـتـمهـا   وغصت على قرب بثكل ابن عمها

وفـقد شـهيـد حـزنه ليس يفقـد

مـواخى رسـول الله الخـلائق   وناصـره عند اعـتكـار المآزق

وحـامل تحـقيق وحـامى حـقـائق   أقـام كـتـاب الله فى كـل مـارق

يقـربه فى زعـمـه وهو يجـحـد

لقاسطة أجرى من القسط عادة وناكثة أفنى وأبقى سيادة
وباغية سلها أتبغى زيادة فقيض أشقى الناس يدنى سعادة
لمن هو بالإيمان أولى وأسعد

درى ربها إشفاقها وحنانها فنزهها عما يروع جنانها
ولو أزمنت شيئا لذمت زمانها فكيف بها - والله يأبى هوانها
بمصرع سبط أول وهو مقصد

على روحه تعطى اللهى دون عدة ويسجد فى منعاه أطول سجدة
فكيف رضى رب كريم وجدة وقد جرعته حنفه كف جعدة
بكرع سم مجه فيه أسود

فما أزهر الزهراء ليلة أقبرت بكل جليل من رضى الله بشرت
وباللحد عن إلحاد قوم تسترت ولو حدثت عن كربلاء لأبصرت
حسينا فتاها وهو شلو مقدد

سليل مبيد الكافرين بعضبه وسيد شبان الهدى وبحسبه
ومن لم يقس بعد الشقيق بشبه وثانى سبطى أحمد جعجعت به
عماة جفاة وهو فى الأرض أوحد

فما لذكاء بالدجى ليس ترتدى وللمزن لم يمطر بجمر وجلمد
وشر عبيد جدلوا خير سيد ولم يرقبوا إلاً لآل[1] محمد
ولم يذكروا أن القيامة موعد

(١) إلاً - بكسر الهمزة وتشديد اللام - العهد.

ولم يعلموا - والظلم يمهل مدة بأن حقوق الله تزداد شدة
وأن أذى المختار يكتب وأن عليهم فى الكتاب مودة
لقرباه لا ينحاش عنها موحد
أترجو من الهادى شفاعته غدا عبيد حباهم عتقه فانثنوا عدى
وأحياهم لكن أذاقوا ابنه الردى فيا سرع ما ارتدوا وصدوا عن الهدى
ومالوا عن البيت الذين بهم هدوا
ترى بعد هذا العثر يرجى انتعاشهم وقد سلبت أرواحهم ورياشهم
أسود دهاهم من كلاب هراشهم فجلى عن ماء الفرات عطاشهم
وروى منهم ذابل ومهند
حسين العلى والمجد والبأس والندى ترائبه فى الترب قد رضها العدى
وأطفاله عيضت بنهد تنهدا فيا أوجها شاهت وتاهت عن الهدى
أهذا التحفى منكم والتودد
قدحتم زنادا تحرقوه بسقطه وقابلتم حق الإله بغمطه
سفكتم دما هام النبى بلقطه وترتم رسول الله فى قتل سبطه
وبؤتم بنار حرها ليس يبرد
أتعصى أمور للنبى مطاعة أتغزى بنوه والثغور مضاعة
شققتم عصا الإسلام لم تبق طاعة فما لكم عند الشفيع شفاعة
ولا لكم فى كوثر الحوض مورد

سميكم تسقيكم السم لا السمى ومرجانه شبت لكم مارجا حمى
ودعوتكم تدعو بكم لجهنم لعمرى لقد غادرتم كل مسلم
على مضض برح يقوم ويقعد

ملكتم وكنتم للنبوة حسدا فأصبح مالى الكفر فيكم مجددا
أطعتم ضلالات وعاصيهم الهدى ونغصتم المحيا وأرضيتم العدا
فأنتم لغير الله جند وأعبد

تغيب يوم الطف عضبى ومشرعى فما يبدى إلا رثائى وأدمعى
مضوا دون توديع فيا نفس ودعى ويا كبدى إن أنت لم تتصدعى
فأنت من الصفوان أقسى وأجلد

ولو لم أنح إلا اشتياقا إليهم فكيف وقد جل المصاب لديهم
سباهم عُبَيْد آبق من يديهم فيا عبرتى إن لم تفيضى عليهم
فنفسى أسخى بالحياة وأجود

أيهدم بين الوحى بعد التشيد أيؤذى حبيب الله وهو به اهتدى
أيجزى على نصح بشمل مبدد أتنتهب الأيام أفلاذ أحمد
وأفلاذ من عاداهم تتودد

فويل يزيد حين زادت هناته ففاضته من روض الجنان جناته
ولو أصبحت ملء الملا حسناته أيضحى ويظمى أحمد وبناته
وبنت زياد وردها لا يصرد

أتى المصطفى يهـدى لنهج رشـاده　　فـــجلت غـــواة أولا فى عـناده
وثانـيـــة فـــتكا بـأهل ولاده　　أفـى ديـنـه فى أمـنـة فـى بـلاده
تضـيق عليـــهم فـسـحـة تتـورد

بغى ابن بغى للـغواية مـحـتـذى　　على كل زاكى النجـر أروع أحوذى
بأزكى لبـــان للنبـوءة قـــد غـذى　　ومـا الدين إلا ديـن جـدهم الذى
به أصـدروا فى الـعـالمين وأوردوا

بنو الأدعـــيـاء الأحـرياء بلـعنهم　　أحالوا على الأبرار أسـياف ضغنهم
وردوا بنى الهـادى دريئـــة طعنهم　　ينام الـنـصـارى واليـهـود بـأمنهم
ونومـهـم بالخـوف نوم مـــشـرد

عـمـيـتم عن الأنوار وهى جليـة　　غضـضـتم من السـادات وهى علية
لتنـفـذ فـيكم شـــقـــوة أزليـــة　　ومــــا هى إلا ردة جـــاهليـــة
وحـقـد قـديم بـالحـديث يؤكـد

مصاب سمـا عن كل صبر وأسوة　　فـحـسـبى شكوى مـسى وغـدوة
لمن فى يـديه كل جـــول وقـــوة　　ألهـــفى على بسطى هدى ونـبـوة
جـرى لهـمـا يوم من الشـر أنكد

شريفين جاز النجم قدرهما السنى　　حقـيقـين من صنفى قلوب وألسن
بحب صـريـح وامـتـداح مـدون　　شهـيدين متـبوعـين من كل مؤمن
بكل صــلاة برة تتـــعـــــهـــد

فيـــالوجـــيع والمقـــشب هده ويا لـصـــريع والمشـطب قـــده
كلا السيدين اسـتأسد الخطب عنده فـهـذا أذابت سـورة السم كـبـده
وهذا أذابتـــه قـــسـى تكبـــد

أبيت الهـدى تنحنى عليـه الملاحم وتنـدق فـيـــه ذابل وصـــوارم
ألا ينتـــهى غـاو ويـنهـاه عـــالم فما عذر أهل الأرض والقسط قائم
وكلهم فى مـوقف الفصل يشـهد

فيـا حـاضـريه يا دعـاة دعـيكم غـدرتم حـسـينا غـدركم بـعليكم
سـتـثقـفكم قـربا ظبـا ثقـفـيكم أيفـــعل هذا بابن بـنت نبـــيكم
وليس لكم فى النصـر يوم لا غد

كحلت قـريح الجفن سهدا وعـبرة وأنزعت رحب الصدر وجدا وزفرة
وأوسعت حسن البـصر صدا وهجرة أبى الله إلا أن فى النفـس حـسـرة
بغـصتـها أمـسى وأضحى وأرقـد

أنظم من دمـعـى نفـيس جـواهر أقلدها جـيـد العلى والمفـــاخـر
وأصلت مـن فكى أمـضـى بواتر إلى أن يقـيـــد الله مـن كل واتر
على أن كـفـأ مقنعـا ليس يوجـد

فلو ملئ المعـمـور من كل سـيـد وأنفـــدهم فى الثـأر حـــد المهند
لما نال شسع النعل من بسط أحمد وأى دم يوفى دم ابـن مـحـــمـــد
حسـين وأمسى وهو سبط مـوحد

أهلـة تلك الـهـــالة النـبـــوية وأزهار تـلـك الدوحـــــة العلـوية
تهـيش لهـــا الأرواح بالأريحـيـة فـيـا خـاتم الأسـبـاط إن تحـيـتى
تؤمك من صـقع بعـيد وتـقصـد
عساها وراجى الله لم يخش ضيعة تفـــرج لى كـــربا وتؤمن روعــة
سرت كالضحى ضوءا وكالمسك ضوعة مـشـــقلة بالدمـع شـوقـا ولـوعـة
علـى زفـــرة مـن حـــرهـا أتأود
فـيـــا نعـمــة للآملين جـسـيـمــة ويا روضـــة للـرائضـــين وديمـــة
ويا حــجـة للزاهـدين قـويمـــة ويا أسـوة للـمـسلمـين كـــريمـة
يلين علـيـهـا الحـادث المتـشـدد
فـلا عــلقم إلا برزئك قـــد حـــلا ولا مظلـم إلا ذكـرنـاك فـــانجلى
وكل أخى شجو بشـجوك قد سلا فـــمن ينكـر البلوى وأنت بـكربلا
لذى البث والشـكوى إمـام مـقلد
لك الرتبـة العـليـا أناف مـحلهـا وأفـضت إلى دار المقـامـة سبلهـا
وما أنصفت لو داست الـشهب نعلها فـإن تجـهـل الدنيـا عـليك وأهلهـا
فـإنك فـى أهل السـمـــاء ممجـد
لك البـيت مـرفـوع السنـاء جليله فـــمــا تقـــتـفى الأبـرار إلا دليله
ولا فـاز إلا الســـالكون سـبـيله أبوك شـفـيع الـناس وهو الذى له
مـقـام كـريم فى البـرية يحـمـد

هناك يلوذ المسلمون بعطفه وأمته تحظى بمعتاد عطفه
ومن يشك من سقم الكبائر يشفه ومشرعة الحوض الروى ويكفه
تزداد رجال عنده وتصرد

تسقاه أبرار حلاهم إصابة لكل من النور البهى عصابة
وتحرمه الفجار فهى مصابة وممن يزود الله عنه عصابة
بقتلك فى طغيانها تتحمد

لقد عرف الدين العراق وأهله نجيعك أضحى كلهم يستحيله
لك الحرب من هذا ومن ذاك خذله وذنبهم فى قتلك الذنب كله
فما لهم إلا الجحيم تغمد

فلا عمر أرضا أتت كل منكر وقال بها داء لذى البر ينبرى
وما ذاك إلا أن غرتك بعسكر وهل كنت إلى مثل عمك جعفر
قتيلا لكفار بذى العرش ألحدوا

وإلا كأسلاف كرام أعزة رجوا فوزهم من فتنة مستفزة
ونالوا بالاستشهاد أشرف عزة وإلا كليث الله جدك حمزة
وحربة وحشى إليه تسدد

ومثل الألى ثابوا إلى الله وحده وباعوا نفوسا واشتروا منه خلده
ففازوا وحازوا أكبر الملك عنده ومثل أبى حفص وعثمان بعده
ومثل على وهو للناس سيد

لبست حلاهم من علا ومجادة وقاستهم فى نيل كل سعادة
وفزت بحسنى مثلهم وزيادة وما منهم إلا غريق شهادة
حياتهم موصولة حين تنفد

معاشرك الأشراف لله درهم وأعمام صدق عم باسمك فخرهم
وأنجم فضل باهر أنت بدرهم دماؤهم مسك زكى وأجرهم
على الله لا يحصى ولا يتحدد

فيا أهل بيت بالنبوة زاهر ويا أبحر الجدوى وشهب المفاخر
ومن مدحهم للحشر أسنى ذخائر أقول ببث مستكن وظاهر
مضاضته عن حبكم تتولد

ثنائى منشور على القرب والنوى وصدرى على محض الصفاء قد انطوى
وسرّى وجهرى فى الخلوص لكم سوا وما سرنى أنى خلى من الهوى
هوى هو فى حاميهم يتلى(1) وينشد

ولو أن نظمى كالبحار الزواخر لقصر عن بعض الذى فى ضمائر
ولكننى أرجو ثواب المبادر سريرة حبى يوم تبلى سرائرى
يقوم بها عنى الصفيح المنضد

فمن لى بدار أمن الله سكنها وبالكعبة العليا أقبل ركنها
وطيبة أثوى قبل يومى عدنها سلام على تلك المواطن إنها
لآل رسول الله طهر ومسجد

(1) يعنى قوله تعالى: ﴿...قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ ... ﴿٢٣﴾﴾ ﴿حم ﴿١﴾ عسق ﴿٢﴾﴾ [الشورى].

أبيت بهـا صـبا وأصـبح مـغرمـا فـروحى فيـها حـاضر قـد تنعمـا
وجـسـمى عنهـا غـائب قـد تألما فـيـا رب وفـدني إليـهـا مـسلمـا
ويا طيب مـسرى من إليـها يوفـد
أيثـرب هل أمسى وضـوؤك حلتى وروضة شـربى والنخـيل مـظلتى
وهل قـبلة فى مـسك تربتك التى أفـيض بـهـا دمـعى وأنقـع غلتى
وأتهم فى ربـع الرسـول وأنجـد
لتـجلى بإصبـاح القبـول غيـاهبى وتهدى إلى قـصد السبـيل مذاهبى
وأقـضى من التـقوى أجل مـآرب وأدعـو إلى الرحــمن دعـوة تائب
إلى عــفـوه من طيــبـة يـتـزود
فيا رب يسـر أسعد اليسـر واقضه لعلى وحـبلى مـبـرم بعد نـقضـه
أزور نبـيـئـا همت فى لثم أرضـه وأسمـو إلى البيت العـتيق بفـرضه
فكل بـه من ذنبــه يتــجــدد
وبعـد التشـفى من مقـام ومشـعر أثنى مـزار المصطفى فهـو مفـخرى
لأفنى عـمـرى فى الجـوار المطهـر ولست على قـبـر الرسـول بمؤثر
ليـحشر مـن ذاك البقـيع محـمد
عـسى منيـتى تدنى قـبيل منيـتى فـأرفض من دنـيـاى كل دنيــة
بمثـوى تسنى فـيــه كل سنيــة فـيـا رب حـقق مـا طلبت فنيـتى
هنـالك والأرواح جند مـــجـند

تخميس الخصالية الثانية، ذات القطوف الدانية

لم يسبنى حب الحسان الخرد   لكن بليت بشوقى المتجدد
لأعز لحد وسط أشرف مسجد   هل يجمعن صباح يوم أو غد
بينى وبين القبر قبر محمد

يا خالقى أنت المقيل لعثرتى   وعلمت سرى فى الخلوص وجهرتى
فامنن بحجتى ثم عجل زورتى   حتى أروى ناظرى من عبرتى
ويقر عينى طيب ذاك المشهد

وتفوز نفسى بالمنى من قربه   وتنال عينى إثمدا من تربه
وألم بالهادى وخيرى صحبه   وأقبل الأرض التى حملت به
بدرا يجلى كل جنح أسود

وأعيد نحو الجسم شرخ شبابه   وأجىء بيت سعادتى من بابه
وأورد غيث الغيث عند مصابه   وأعظم البلد الذى أرسى به
طود النبوءة ثابتا بالأسعد

فمتى يسوق بى المزمزم ركبه   فأحل أرضا لثمها بى أشبه
سجد النبى بها وناجى ربه   أشكو إلى جبل تضمن حبه
حبا أضاق تصبرى وتجلدى

ومتى أحل من الحجاز معانه   فأرى بآثار الحبيب عيانه
ويمثل المسكون لى سكانه   وأبلغ القلب المروع أمانه
وأقول للنفس التى ظمئت ردى

ومتى أحث العود جما عدوه يحكى ظليما فى ظلام خطوه
فأفوز بالعيش المهنا صفوه وأهش للأفق المبارك جوه

متجددا من نوره المتجدد

وأزور للشهداء أفضل مشهد وأتم عمرى فى جوار الأسعد
وأشم ترب الند من ترب ندى وأسح فى أبيات آل محمد

دمعا كمثل اللؤلؤ المتبدد

للآدمى بمقتضى معقوله فئة يؤمل جاهها لخموله
وبحبها يحظى بأشرف سوله والله يعلم أن آل رسوله

آل تمكن حبهم فى محتدى

آل النبوءة حقهم عنهم زوى وبساطهم فوق البسيطة قد طوى
عطشوا فكان العضب عذبهم الروى فبكربتى منهم أنوح وأنطوى

وبحسرتى فيهم أروح وأغتدى

يا موضعا عنسا تخب برحلها ينوى بيثرب أن يقيل بظلها
فى نضر غابتها وسامق نخلها قف بالمنازل سائلا عن أهلها

أين النبوءة والنبى المهتدى

أين المحافل راجيات طوله أين الجحافل سامعات قوله
أين القبائل خائفات صوله أين الصحابة والصواحب حوله

إذ باعيوه باللسان وباليد

أين الألى باتوا ركـــوعــا ســجــدا   ولدى الحروب سطوا بأصناف للعدا
فى الله واختــاروا على العيش الردى   أين الذين بســبـقــهم عــز الهــدى
وعلت على الأديــان ملة أحــمــد

أين الألى نصــروا الرســول بطيبــة   وحــموا حــمــاه بحضــرة وبغــيبــة
ناهيك من كـــرش هناك وعــيــبــه   أين الذين لــعــتــبــة ولشــيــبـــة
وإلى الوليــد ســمـــوا بكل مــهند

أين الذيــن غــداة بدر صـــرعـــوا   عــمرا ومــن جمـعت لؤى أجــمع
وحــموا ذمــار الدين وهو مضــيع   أين الذين بــيــوم أحــد صـــرعــوا
مــا بين مــثنى فى الإله ومــوحــد

أين الألى حضروا الوغــى بعتادها   فــالــســمـــر آجــام على آســـادها
وتريكهــا حــبب لسـيل جــيــادها   أين الــذين بمــؤتة وجـــــــلادهــا
مــاتوا كــرامــا كــالليــوث الحــرد

أين الكرام المـفــردون بفــخـــرهم   الســـابقـــون الخلق آخـــر دهرهم
بكريم هجــرتهم وعــالى نصــرهم   أين الثــمـــانيــة الذين بصـــبــرهم
ثابت بأوطــاس بصــائــر من هدى

صحب غــدا المختار سيــد جفلهم   لما اقـــتـــفــوه بقـــولهم وبفـــعلهم
عــقم النـســاء فــمــا يلــدن بمثلهم   يا مســجد التقوى غــدوت بفضلهم
ومكانهم فى الدين أفضل مــسجد

عـمروك مكنوفـا بأوقى عـصمـة والوحى يسـمعـهم مـثانى حكمـة
ثم ارتقـوا عـدنـا لأسـبغ نعـمـة وبقـيت بعـدهـم مـثـابة رحـمـة
فى غـربة المســتـوحش المتـفـرد

أصـبحت للعليـاء جـامع شملهـا بثـلاث أقـمـار شـرفت بفـضلهـا
فـاخلـد مـلاذا للتـقى ولأهـلهـا تبكى علـى خـيـر البـريئـة كلهـا
بدمـوع كل مـــصـدق ومـوحـد

فكم انتـحـيت حظيهـم ورضيـهـم حـتى حـجـبت سـريهم وسنيـهـم
وطويت مـيـتهم كـنشرك حـيـهم فـقد السـماء كـمـا فقـدت نديهم
ونجـيـهم فى مـهبـط أو مصـعـد

وبكى الأنام عـلى شـفـيع مـنقـذ كـان الغـمـام على نداه يحـتـذى
والســمـر لولا بأســه لم تنفـذ وتفــرد الرحــمن بالغــيب الذى
كان الرسول بوحـيه يروى الصدى

قـبض النـبى فـرسـمنا لعـــفـائه أمـسى بـه الإسـلام فى إشـفـــائه
لكـن تدارك ربنـا بشــــفــــائه ولقـــد أقـام الـدين من خلفـــائه
أصـهـاره كل بأحـــمـد يقـتـدى

سـيــر النبى بـعـدلهم لا تـبـرح سنن تـقـــــام وأمــــة تـتنـصح
والأمـر شـورى والأقـاصى تفـتح وأتتك بعــدهم الملوك فـمــصلح
يضع الأمـانة عند آخـر مـفـسـد

الحــزن عندى مكسـبــا ووراثة والبـعـد أمعن فـى الفؤاد عـيـاثة
فـمــتى أرجى بالوصــول إغـاثة يا بـيت عـــائشــة المجن ثـلاثة
نظمــوا به نظم الطـراز الأوحـد

أرواحنا شـفـقـا عـليك أشـحـة وجـفونـا بدموعـهـا لك سـمحـة
فـيك العلى طرا لتـهنك مـدحـة مـثوى النبى وصـاحبـيه وفـسحـة
عـيسى بن مـريم حازها بالموعـد

فـقت النجــوم سـعـادة وجـلالة وإنـافـــــــــة وإنـارة وإنـالـة
فــعلى بيــوت الله حــزت إيالة بوركــت من بيت يـضم رســالة
ونبــوّة وخــلافــة فى ملحـــد

بك أملت نفـسى جـلاء كـروبهـا ما غـير سكنك عـد من محبـوبها
وبهم وسـيلتـهـا إلى مـرغـوبهـا منى إليـك تحـيـــة يهـــفـو بهـــا
قلب بذكــرهم وحـــبــهم ندى

مـــا للكـئـيب فـتنجلـى غـمـاؤه ولمن عـصى فـيـغـاث منه ذمـاؤه
إلا نبـى قـــدسـت أســمــــاؤه صلى الإلـه وأرضـه وســمــــاؤه
والعــالـمون على النبى المقــتـدى

بالوحى فى صحب يصـد صداهم المســـــتـــــقـل بأن يـرد رداهم
المســتــدل إذا يبـيـــد عــداهم بالأنبـيـــاء المهـتــدى بهـــداهم
رشـدا تبـين فى الكتـاب المرشـد

تخميس الخصالية الثالثة، وهى بأشجانها
للعباد كارثة، وبتحنانها للأكباد فارثة

يا صادعا بشكاة تصدع الحجرا   من حادثات أعادت صبره صبرا
عمت فلا وطنا أبقت ولا طرا   هون عليك من الأرزاء ما حضرا
بعد النبى ولا تعدل به خطرا

هو الرسول الذى جلت مفاخره   زار السماء وجبريل موازره
يسر به كل مأمول تبادره   واذكروه فى كل مكروه تحاذره
تلف المصاب به قد هون الحذرا

لى فى الدجى أنة تبكى سواجعه   وهل يبيت قرير الطرف هاجعه
من ذاق وجيع الشكل فاجعه   أبعد أحمد يستقرى مضاجعه
يودع البيت والأركان والحجرا

فعلم الحج حتى بان مجمله   وبلغ الدين حتى تم مكمله
وآب تدنيه للفردوس أرحله   مستقبلا طينه والله ينقله
إلى رضاه فلما يعد أن صدرا

لاحت بأحمد من شرع مناهجه   ولم يدع لامرئ شكا يخالجه
بسورة النصر قد تمت مباهجه   ثم استعز به شكو يعالجه
يغشى بسورته الأبيات والحجرا

فكم عـقـول مـن الأبرار طائشـة   بفـرقـة لسـهـام الحـزن رائشـة

شكا الرسـول فـما نفس بـعائشـة   حتى انـتهى دوره فى بيت عـائشة

فى يومـها يتـبع الأنفـاس والأثرا

رجت شـفـاء تغـيث الدين كـرته   مـا راعـهـا إذ أتت للـحق سكرته

إلا اخـتــيـار رفـيق فـيـه أثرته   جـمال فـى حجـرها طلق أسـرته

غض البشاشـة إلا اللمح والنضرا .

فاق النبـيئـين فى سامى سـماتهم   ويقـتـفـيـهم لحـب فى صـلاتهم

قد أشـبه القـوم حتى فى وفـاتهم   فـأذهل الناس طـرا عن حـيـاتهم

موت الرسول ومنهـم من نفى الخبرا

ما فى الصدور سـوى الأشجان والحرق   وكل طرف رهين الـسـهـد والأرق

وكل جـمع من التـفريق فى فـرق   فــيــاله مـن نظام بات فـى قلق

لولا أبو بكـر الصـديق لانتـشـرا .

خليـفة المصطـفى طاع الجمـيع له   تقـديمـه لصــلاة الفـرض فـضله

رأوه نصــا فــمـــا رامــوا تأوله   إن كنت مـعــتـبـرا فـانظـر تقلله

والأرض تبـر ودين الله قد ظهـرا

بالفـــتح نال من الـدنيـا تمـكنه   فـــحـــين دانـت له أبدى تدينـه

وكم تـسنت فــــأولاهـا تسنـنه   لـم يرض منهـا سوى قـبر تضـمنه

كـان الفـراش له فى نومـه مـدرا

يارب أسـرف لكن عـــذت بالكرم إن طال خوفى فجـاه المصطفى حرمى

لثم الضريح ولو فى الوهم معتصمى يا قـبـر أحـمـد هل عن زورة أمم

قبل الحـمام تسر السـمع ولابصرا

مـتى تلوح لعـين فاض صـيـبهـا عروس هدى قلوب الخلق تخطبـهـا

تجلى بمكة والأسـتـار تحـجـبـهـا وهل إلى طيـبـة ممشى يقــربهـا

يا طيـبـة إن تـأتى يومـه سـفـرا

متى أرى منهج الـرضوان منتهـجا لبلـدة يرتجى همى بهـا فـرجـا

من زارها فإلى الأفـلاك قد عـرجا فـتنشق النفس فى أرجـائهـا أرجـا

يشفى السقام وينفى البؤس والضررا

وأشـهـد الله أنى قــاطع سـبـبى من ظالمين عتـوا فى الريب والريب

عموا بنى المصـطفى بالحرب والحرب واسـتـجير بـبطن الأرض من كرب

فى ظهرها لم تدع شمسا ولا قمرا

ويح المشـوق فكم يفنى بحـسـرته لمحـضـر زانه الهـادى بحـضـرته

فى أهل هـجـرتـه طر ونصـرته اسـتـحـمل الله من أسـرار قـدرته

عزما يخوض إليـه البدو والحضرا

ووثبـة لنواصى النـجم قـابضـة وتوبة لـكـبـيـر الإثم راحـضـة

وهمـة لدنـى - الهم رافـضـة وقـوة بضـعـيف الهم ناهضـة

وحـجـة تنظم الآصـال والبكرا

أرجـو الوفـود وفـــودى فى إنارته   وليس بعـــد عـــشى من غـــرارته

كـلا فـكم عـاد ذا وفى نضـــارته   يارب أحـــمـد كن لـى فى زيارته

أقوى معـين إلى أن أقضى الوطرا

ولا وســـائـل تدنى كل شـــاردة   من الأمـــانى وتسـنى كل فـــائدة

ســوى صلاة على المختار خـالدة   صلى الإله صـــلاة غـيـر نـافـدة

تكاثر الـريح والأشـــجـــار والمطرا

على السراج المجلى الظلم والظلما   على الشـفـيع الرفـيع المنقـذ الأمما

على الأمين المكـين المجتبى قـدما   على البشـير النذير المصطفى كـرما

من كـل بطن وصـلب طهـــــرا

على المشـفع فى أصـحاب قـبلتـه   على المبـيد جـيوشـا قـبل حملتـه

على الحـمـيـد مقـاما يوم وصلتـه   علـى ابن آمـنة المـاحى بملـتـــــه

من كـان بالله والإسلام قـد كفـرا

وصحـبه النخب المحـبين كل سنن   عتـيقهم وأبى حفص وخـير سكن

لخبر بنتـين والمكنى باسم حسن(١)   وأهله الطيبـــين الأكـرمـين ومن

آوى وساهم فى البلوى ومن نصرا

---

(١) يعنى بعتيق: أبا بكر الصديق، وبأبى حفص: عمر بن الخطاب، وبخير سكن لخير بنتين: عثمان بن عفان، والمكنى باسم حسن، على بن أبى طالب.

وخـير عـمين عـمـا أنعمـا ومنن وخير سبطين هاجا لوعة وشجن[1]
وسائر الصحب من عدنان ثم يمن وأمـهــات جـمـيع المؤمـنين ومن
هدى هداهم ومن صلى ومن نحرا

صلى علـيـه وأسـمـاه وأعـظمـه رب حـباه مـن التشـريف أعظمـه
وخيـر وسطى لعقـد الرسل نظمه ونضـــر الله حـــسانا وأعظمـــه
فقـد بكى ورثى فى الله وانتـصرا

بالمدح سـر وبالتـأبين قـد حـزنا يذكـر الناس بالعـصر الذى حـسنا
كـــأنما رد من وحـى لهم زمـنا أبا الوليـد لقد هـيجت لى شـجنا
وقد بعثت الجـوى والحزن والذكرا

حزت الفـصاحة للرضوان خـاطبة بمحفل الفـخر قامت عنك خـاطبة
بليـغـــة لم تكن بالليل حـــاطبـة فـــأنت شـاعـــر آل الله قـاطبـــة
نافحت عنهم بروح القدس مقتدرا

أجـــاد فى مـسدح للوحـى باهرة جـادت بـأقطاره أخـلاف قـــاطرة
بدر غـــــيث كـــدر عنـه هادرة يا رخـمـة الله أمى غـير صـاغـرة
ضريحة وامسحى عن وجهه القترا

لشـعره تلبس الشـعـرى تخاملهـا وحق أن تظهـر الدنـيـا تخـايلهـا
به وإن تصـل العليـا تـطاولهـا فـإنـه سـابق والســابقـات لـهـا
فى الحق أن تمسح الأعطاف والغـررا

(1) خيـر عمين: يعنى عمى الـرسول ﷺ، وهما حـمزة والعبـاس، وخير سـبطين: الحسن والحسين.

مـقلد الفـخـر أسـلاكـا منظمـة　　ولابس المجـد أبرادا منـمنمـة

وحـائز الفـضل أنواعـا مـتمـمـة　　أبقى له مـنبـر الإنـشـاد مكرمـة

عمت فلا المدر استثنت ولا الوبرا

قد أخجل الزهر زهر من كـمائمه　　وروع الأسـد سجع من حـمائمـه

ما فى فـحول قـريش من مقـاومه　　ولم يسل لـسـانا فى مـقـاومـه

وإنما سل سـيـفـا صـارمـا ذكـرا

نجـر سـمـا آل نجـار بمنصـبـه　　ومـذهب ما لوشى حـسن مذهبـه

إن قال فـالكفر مقـضوب بمقضـبه　　يا مـقـولا نصـر الله الرسـول به

لا زالت فى جنة الفردوس مشتهرا

تخميس الخصالية الرابعة الرافعة، الرائقة الرائعة، وهى فى سماء السنا طالعة، ولأكباد الحساد خالعة

يا فـوز ركب إلى المخـتار قـصـاد　　وأسهـم الشوق فـيهم ذات إقـصاد

تطيـر أرواحـهم إن كـرر الحـادى　　قلبى إلـى طيـبـة ذو غلة صـاد

إلى البـشيـر النذير الخاتم الهـادى

لله واصل روح قـبل رحلتـه　　لـم يشـك إلا لمولاه بـعلـتـه

سحب البكار لا تروى فـرط غلته　　إلى أبى الـقـاسم الماحى بملتـه

كـفـران كل كـفـور جـهله بادى

بحر الجـوى زاخر من لى بشـاطئه والصـبـر وعر فـمـا قلب بواطئـه
قد همت فى الشافعى المنجى لخاطئه حـتى اعـفـر خـدى فى مـواطئـه
غـــورا بغـــور وأنجـــادا بأنجـــاد

فـأرشف الشـهد من بقـيـا مناهله وأقطف الزهر من ذكـرى شمـائله
وألثـم المسـك من ممـشى رواحـله وأرسل الدمع سـحـا فـى منازله
مـسـتـفرغـا جـهد أفـلاذ وأكبـاد

إذا لمحت لـذاك البـــدر هالتـــه فـالشوق يذبل من جـسمى ذبالتـه
والصدق يـسأل من روحى إسـالته فى حـيث أودع جـبـريل رسـالتـه
وحـيــا إليـه بتـوفــيق وإرشـاد

أجرى العـقيق بدمـع مثل ناصـعه وأسـأل الـنخل تظليـــلا بيـانـعـه
وألمح الـنور من أبهـى مطالعـــه وأشـــرب الماء من أروى مـنابعـــه
فطيـبة قد سـرى فى ذلك الوادى

رحـماك فى مـقلة عبـرى مؤرقـة واعطف على مجهـة ولهى مشوقة
وانظر إلى كـبـد قـرحى محـرقـة يا حب أحـمـد إنى منك فى ثقـة
وأنت أحـضـر أعـتـادى وأزوادى

أنت المبلغ لا أخـــشى حـجـابتـه إلى الرسـول الذى أرجـو إجـابتـه
فـيـا هواه ولا أنسـى صـحـابتـه سـر بى وجـاور بـى مـآبتـه
حـتى أضـمن أكفـانى وأعـوادى

إلى رضى الله كن لى أوثق السبب فــأنت أعظم ذخــر عند منـقلب
بك ارتجـيت بلوغ السـؤل والأرب ومـا تمكنت من قـلبى ليـفـدع بى
ولا لتــقــطعنى عن ذلـك النادى

لا أرهب الهم يغــزونى بموكـبـه ولا أحـــاذر دهـرا فى تقلـبـــه
وقـد بدا لى يجلو جنح غــيـهبـه نور مــن الله لو أنى ســـريـت به
لما افـتـقـــرت إلى هاد ولا حــاد

بالهــاشــمى حـبانى الـعز رتبتــه أعلى مـــرادى لو قـــبلت تربتــه
ورزت فى الحين أهليـه وصحبته لم يفـرغ الله فى قـلب مـحـبـتـه
إلا لأحــمل فـــوق الرأس والهــاد

لم يبق-والله-لى فى العيش من أرب ســوى البكور أشد الكور والقـتب
ميـممـا خيـر لحد ضم خيـر نبى مـتى أقــول لوفــد الله من كـثب
يا رائحـــين انظـرونى إننى غـــاد

أسمو إلى المسجـد الأسمى فواطربى مـقــابلا روضـة أبهى من الشـهب
مـقـبـلا تربة أشــهـى من الشنب وقـد برأت إلى الرحـمن من نشب
وقــد تخليت على أهلى وأولادى

وقد كـسانى التقى مما انتـقى خلعا يومى صـيـام وليلى سـجدة ودعـا
أعرضت عن عرض الدنيـا وكم خدعا مـســتـبـدلا بجـوار الله مـنقطعـا
إلى الرسول انقطاع العاكف البادى

أما ذوو النسك فالرحـمن يرحمهم   وفى الصلاة عـلى الهادى تنعـمهم
بهـا يوقـيهم المـولى ويعصـمـهم   صلى الإله وأهل الأرض يقـدمـهم
أهل السـموات مـن مثنى وآحـاد

على سليل من استهدى بكوكبه   على الإمـام برسـل من تقـر به
على الشـفيع الذى يرضى بمطلبـه   على الذى أنـقـذ الله العـبـاد به
من ظلمـة الكفر رشدا بعـد إفناد

علـى المؤيد بـالآيات والســور   على مجير ذوى الأحجـال والغرر
على مـبيد العـدا بالنصر والـظفر   على ابن آمـنة المختـار من نفـر
مـا فـوق مـجـدهم مـرقى لمزداد

على الذى عظمت فى الرسل حظوته   على الذى عـمـت الآفـاق دعـوته
على الذى أفـنت الكفـار سطوته   علـى النبـى الذى تمـت نوبتـه
وآدم طينـة قـدت لأجـسـاد

على مـقيم فـروض للتـقى وسنن   على الذى سن للإيمـان خيـر سنن
على الذى ملأ الـدنيا هدى وهدن   على الرسول ابن عبد الله أكرم من
أورى بنور أضـاء فى الأرض وقاد

دامت عليـه صـلاة الله مـاطرة   غـيث الرضى أبدا لاقلت خـاطرة
للمسك فى طيب رياه مـشـاطرة   وبعـده صلوات الله عـاطرة
على الصـحـابة أعـداذا بأعـداد

على الذين بصفو الود أتحفهم   من صحبه السادة الحامين موقفهم
يوم الهياج بنصر قد تكنفهم   وأهله الطيبين الأكرمين فهم
في الأرض أطهر غياب وشهاد

قبل الممات أرجى لثم تربتهم   وفي المآب عسى لمح لرتبتهم
قد تؤنس العبد سادات بصحبتهم   يارب واحفظ مقامى فى محبتهم
فإنها - وإليك المنتهى - زادى

كمل تخميس الخصاليات الأربع، المعارضة للحسانيات فهى مساقها الأطبع، والحمد لله كثيرا أثيرا، والشكر له منظما ونثيرا، لحميد كرمه مستثيبا، ولمزيد نعمه مستشيرا.

انتهى التأليف بحروفه

أهم مراجع التحقيق

- البيان المغرب لابن عذارى، دار الثقافة، بيروت ١٩٩٨م.
- الصلة فى تاريخ أئمة الأندلس لابن بشكوال، طبعة الخانجى، القاهرة ١٩٩٤م.
- المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا للنباهى، بيروت.
- معجم أصحاب الصدفى لابن الأبار، مصورة الثقافة الدينية ٢٠٠٠م، عن طبعة أوروبا.
- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقّرى، دار صادر بيروت ١٩٦٨م.
- نيل الابتهاج بتطريز الديباج للتنبكتى، الثقافة الدينية، القاهرة ٢٠٠٤م.
- وفيات الأعيان لابن خلكان، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨م.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع | **الصفحة**

مكتبة الثقافة الدينية
٥٢٦ شارع بورسعيد / القاهرة
ت . ٢٥٩٢٢٦٢٠ ـ ٢٥٩٣٨٤١١ فاكس : ٢٥٩٣٦٢٧٧
ص.ب ٢١ توزيع الظاهر ـ القاهرة
E-mail : alsakaalDinaya@hotmail.com

مكتبة الثقافة الدينية

٥٢٦ شارع بورسعيد / القاهرة
ت . ٢٥٩٢٢٦٢٠ ـ ٢٥٩٣٨٤١١ فاكس : ٢٥٩٣٦٢٧٧
ص.ب ٢١ توزيع الظاهر ـ القاهرة
E-mail : alsakaalDinaya@hotmail.com

المكتبة المالكية

أزهار الرياض في أخبار عياض

تأليف

شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني

(ت: ١٠٤١هـ)

طبعة مزيدة ومنقحة

تحقيق

الدكتور علي عمر

الجزء الخامس

الناشر

مكتبة الثقافة الدينية



الناشر

مكتبة الثقافة الدينية

٥٢٦ شارع بورسعيد - القاهرة

ت: ٢٥٩٢٢٦٢٠ - ٢٥٩٣٨٤١١

فاكس: ٢٥٩٣٦٢٧٧ ص.ب: ٢١ توزيع الظاهر

E-mail:alsakafa_alDinaya@hotmail.com